الخلافة الرّاشدة

مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه
الخليفة الثاني للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

الخلافة الراشدة

خطاب

في الجلسة السنوية بمناسبة يوبيل الخلافة الفضّي

بقاديان في ١٩٣٩

ألقاه

حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه

الخليفة الثاني للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

ترجمة: عبد المؤمن طاهر

اسم الكتاب: الخلافة الراشدة

الطبعة الأولى: ١٤٣٦هـ الموافق لـ ٢٠١٥م

Al-Khilāfatur-Rāshidah

(The Rightly Guided Caliphate)

By

Ḥaḍrat Mirza Bashir-ud-Din Mahmud Ahmad Khalīfatul-Masīḥ II (may Allah be pleased with him)

Translated from Urdu by: Abdul Momin Tahir

First Arabic translation published in the UK in 2015

Published by:
Islam International Publications Ltd.
Islamabad, Sheephatch Lane
Tilford, Surrey, GU10 2AQ
United Kingdom

Printed in the UK at:
Raqeem Press
Tilford

For further information please contact:
Phone: +44 1252 784970
Fax: +44 1252 781692
www.islamahmadiyya.net

Cover designed by: Anan Massoud Odeh

ISBN: 978-1-84880-454-8

بسم الله الرحمن الرحيم

فهـرس المحتويات

مقدمة الناشر أ
ضرورة مناقشة الجوانب المختلفة لموضوع الخلافة ٢
محاولة معارضي الجماعة للتهوين من شأن الخلافة ٢
مسألة الخلافة من أهم مسائل الإسلام ٣
ضرورة ربط نظام حُكم الأمة المسلمة بالدين ٣
الرد على سؤال ٥
السياسة لا تخص الحكومة فقط ٦
الاعتراض على الخلافة الدينية ٧
اجتماع النظامين السياسي والديني في أوائل الإسلام ٧
دليل على الخلافة ٨
هل الأعمال التي قام بها النبي ﷺ لإقامة النظام، مِن الدين أم لا؟ ٩
نتيجة خطيرة لإنكار الخلافة ١٢
نوعان من الأديان ١٣
السبب الأساس لاعتبار الديانة المسيحية الشرع لعنةً ١٤
تدخُّل الديانة اليهودية في نظام الحكومة ١٨
موقف الإسلام ١٨
تعليمات الإسلام الجامعة حول جميع أقسام الحكومة ٢٢

تعليمات مفصلة عن تطبيق القانون الإسلامي ٢٣
طريقة حكم رسول الله ﷺ ٢٨
الأمر بإخراج الكفار المعتدين ناقضي العهود من الجزيرة ٣٠
شروط ضرورية للحكم ٣٢
هل الأحكام المتعلقة بالنظام تخصّ شخص النبي ﷺ وحدَه؟ ٣٥
حبٌّ الأتباع للنبي حبّ خارق ٣٦
مسألة الخيار عند البلوغ ٣٨
الإسلام يقدم نظامًا للحُكم ٣٩
سبب تمرد القبائل العربية ٤١
تفاصيل مسألة الخلافة ٤٢
تجربة شخصية ٤٢
حالة الصحابة عند وفاة النبيّ ﷺ ٤٤
يستحيل التفكير في نيابة النبي في حياته ٤٧
لكل نبي حياتانِ: شخصية وقومية ٤٨
حياته الشخصية هي القدرة الأولى، وحياته القومية هي القدرة الثانية ٤٨
نظرة على قضية القرطاس ٤٩
يبدأ الله حياة نبيه القومية بالوحي ٥٢
ثلاث فئات من الصحابة عند وفاة الرسول ﷺ ٥٢
الخلاف بين الأنصار والمهاجرين ٥٣

انتخاب أبي بكر رضي الله عنه ٥٦
انتخاب عمر رضي الله عنه ٥٧
انتخاب عثمان رضي الله عنه ٥٨
انتخاب عليّ رضي الله عنه ٥٩
إعلان عائشة رضي الله عنها الجهاد ٦٠
وقائع حرب صِفّين ٦٠
نظريةُ خلافة عليّ بلا فصل ٦٣
ثلاث فئات في المسلمين حول الخلافة ٦٤
ذكرُ الخلافة الإسلامية الأحمدية ٦٥
صلاحيات الخليفة ٦٧
أسئلة رفعها مير محمد إسحاق إلى حضرة الخليفة الأول ٦٧
رؤياي ٦٨
اجتماع ممثلي فروع الجماعة الخارجية في قاديان ٧٠
خطاب حضرة الخليفة الأول حول مسألة الخلافة ٧١
تجديد خواجه كمال الدين والمولوي محمد علي للبيعة ٧٢
اقتراح نشر إعلان عند المرض الأخير للخليفة الأول ٧٤
محاولةُ حماية الجماعة من الخلاف ٧٥
وفاة الخليفة الأول رضي الله عنه ٧٦
دعوة الناس إلى الدعاء ٧٦

قرار أجمعت عليه عائلة المسيح الموعود عليه السلام ٧٧
لقائي بالمولوي محمد علي ٧٧
منشور نشره المولوي محمد علي ٧٨
إجماع ٩٠% من الأحمديين على انتخاب الخليفة ٧٩
نقاش آخر مع المولوي محمد علي ٨٠
انتخاب الخليفة الثاني ٧١
حقيقة بعض أقوال الخليفة الأول ٧١
أحكام قرآنية حول الخلافة ٨٢
اعتراض بشعٌ من أعداء الإسلام على قوله تعالى ﴿أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ ٨٧
لا جنة دنيوية ولا أخروية بدون تعاون الرجل والمرأة ٨٨
حكمة عظيمة ٨٩
شرح حديث: "الجنة تحت أقدام الأمهات" ٩١
الأمر بأداء الأمانة إلى أهلها ٩٢
أسس النظام الإسلامي في القرآن ٩٥
هل يجيز الإسلام حكومة دنيوية بحتة ٩٦
مفهوم النظام الدنيوي البحت ٩٧
خطأ للمسلمين يبعث على الأسف ٩٨
خطأ آخر ٩٩
الدليل على أهمية إقامة نظام دينيّ خالص عند تفرُّق المسلمين دولاً شتّى ٩٩

الرد على اعتراض يثار بخصوص ﴿أُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ١٠٢
معنى ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ عند الاختلاف مع أولي الأمر ١٠٣
قوله تعالى ﴿وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يشمل الحكام الدنيويين والخلفاء الراشدين ١٠٦
أحكام منفصلة عن أولي الأمر بنوعيهم ١٠٧
الأمر باتباع سنة الخلفاء الراشدين دائما ١٠٩
الخلفاء الراشدون ميزان للأمة ١١٠
مناقشة آية الاستخلاف ١١٢
إقامة الصلاة كما ينبغي محال من دون الخلافة ١١٣
طاعة الرسول لا تتم بحق من دون الخلافة ١١٦
خلاصة مضامين آية الاستخلاف ١١٨
علامات الخلفاء الصادقين ١١٩
الخلافة في الأولين، كانت خلافةَ نبوة أو خلافةَ مُلك ١٢٢
سبب تشبيه خلافة المسلمين بخلافة النبوة دون خلافة المُلك ١٢٣
وعد الخلافة مشروط بالإيمان والعمل الصالح ١٢٥
زوال الخلافة ليس راجعًا إلى عيب في الخليفة بل إلى عيب في الجماعة ١٢٦
علامة تمكين الدين ١٢٧
نبوءة تبديل خوفهم أمنًا ١٢٩
لم يكن عمر يخاف الشهادة ١٣١
لم يستشعر عثمان رضي الله عنه أي خوف ١٣٢

استشهاد عليّ رضي الله عنه	١٣٥
يحفظ الله خلفاءه من الخوف المعروف أيضا	١٣٦
كشفٌ لرسول الله ﷺ تحقّقَ بعد وفاته	١٣٧
خوف الخلفاء ظلّ يتبدّل أمنًا بعد موهم أيضا	١٣٨
هيبة الخلفاء الراشدين على ملوك غير المسلمين	١٣٨
الخلفاء الصادقون يكونون حَمَلةَ التوحيد الحقيقي	١٣٩
واقعة الشيخ غلام علي	١٤١
طريفة رجل صالح من أهل السنة	١٤١
ثبات أبي بكر في مواجهة فتنة الردّة	١٤٣
مواقف باسلة لعمر رضي الله عنه	١٤٦
أبو هريرة يبصق في منديل كسرى	١٤٨
مواجهة عثمان وعليّ للأعداء ببسالة نادرة	١٤٨
اعتراضات تثار حول آية الاستخلاف	١٤٩
الرد على هذه الاعتراضات	١٥١
طريفة لأحد غير المبايعين	١٥٤
تأثير الاحتجاج ضد أفغانستان	١٥٨
الخلافة أمرٌ انتخابيٌّ تشترك فيه الأمة كلها	١٥٩
لماذا عيّن أبو بكر عمرَ خليفةً؟	١٥٩
هل تعيين معاوية ليزيد خليفةً انتخابٌ؟	١٦٠

ترشيح الأب ابنه للخلافة يخالف سنة الصحابة ١٦١
استقالة ابن يزيد من الحكم ١٦٢
تفسير المسيح الموعود عليه السلام لآية الاستخلاف ١٦٤
الاستدلال بالخلافة المحمدية ١٦٤
شهادة الله الفعلية ١٦٥
تشابُه الخلفاء الأربعة بخلفاء الأولين في كل شيء ليس ضروريا ١٦٦
"علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل" إشارة إلى الخلفاء الروحانيين ١٧٠
الخلافة الأحمدية ١٧٢
آية الاستخلاف تشمل نبوة المسيح الموعود عليه السلام وخلافته كلتيهما ١٧٥
خلفاء المسيح الناصري أيضا لم يكونوا حائزين الحكم ١٧٧
الرد على اعتراض آخر للمعارضين ١٧٩
خلافة الأنبياء السابقين ناقصة، سواء كانت خلافةَ نبوة أو خلافةَ مُلك ١٨٠
الرد على اعتراضين ضمنيين ١٨١
هل الخلافة الموعودة هنا تخصّ فقط الخليفة الآتي بعد النبي فورا؟ ١٨٢
هل يجوز عزل الخليفة؟ ١٨٥
نكتة لطيفة ١٨٧
آية أخرى في تأييد الخلافة الراشدة ١٨٩
قول آخر للنبي ﷺ عن الخلافة ١٩٥
اعتراض كبير على حقوق الخلفاء ١٩٦

الزيغ يعني الكفر البواح فقط	١٩٧
هل هناك إمكانية لوقوع أبي بكر في الكفر البواح	١٩٨
بعض الأمثلة من القرآن الكريم	١٩٨
واقعة من زمن المسيح الموعود عليه السلام	٢٠٠
آية الاستخلاف وخلافتي	٢٠٣
آية إلهية عظيمة	٢١٠
تحقّقُ وحي "ليمزّقنّهم" بشأن غير المبايعين	٢١٢
الثقة بالله تعالى	٢١٣
رؤيا عن فتنة البنّائين	٢١٣
ادعوا دائما لنــــزول القدرة الثانية	٢١٦
الكلمات الاختتامية	٢١٦



بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم

مقدمة الناشر

هذا الكتاب هو خطاب لحضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد ﵁، المصلح الموعود، والخليفة الثاني للإمام المهدي والمسيح الموعود ؑ، ألقاه في الجلسة السنوية، بتاريخ ٢٩ كانون الأول ١٩٣٩ التي صادفت اليوبيل الفضي لخلافته ﵁. وقد تناول فيه تأصيل الخلافة الراشدة وأدلّتها، وأكَّد على وجوب قيام نظام الخلافة الراشدة، وبيّن أنه لم ينشأ صدفةً أو نتيجة اجتهاد بعد وفاة النبي ﷺ، بل كان متأصلاً بآيات القرآن الكريم وسنّة النبي ﷺ ووصاياه ونبوءاته التي أخبرت عن نشأتها ومسيرتها ومستقبلها إلى عودتها ثانيةً ثم استمرارها إلى يوم القيامة.

وقد أكّد حضرته في هذا الخطاب أن الخلافة هي من أهم مسائل الإسلام، وقدَّم الأدلة على أنه لا بد من نظام لسياسة شؤون المسلمين، وأن الوضع المثالي الذي قام في زمن النبي ﷺ ثم ورثْته الخلافة الراشدة، هو أن يتولى هذا النظام شؤون المسلمين كلها الدينية والدنيوية؛ لأن الإسلام دين شامل، وما جاء فيه من أحكام سياسية فهي جزء من الشريعة وليست أحكاما مؤقتة كما يظن البعض. ولكن إذا تغيَّرت الظروف، وأصبح الاضطلاع بالشؤون السياسية للمسلمين أمرًا يمكن أن

يعيق النظام الديني الذي تديره الخلافة الراشدة، أو أصبح من الأفضل أن ينفصل النظامان بسبب انتشار المسلمين في أنحاء العالم، فيمكن أن ينفصل النظام الديني عن النظام السياسي، وعندها يُعَدُّ كل نظام سياسي لا يعارض النظام الديني جزءًا من النظام الديني، ويدخل في مفهوم "أولي الأمر منكم". فالخلافة الراشدة لا تطمح لحكم العالم سياسيا، بل هدفها إقامة الدين ورعاية شؤون المسلمين وتزكيتهم حيثما كانوا، وليكونوا متفانين في خدمة الإنسانية، فيتحقق بذلك الأمن والسلام العالمي الذي هو الغاية التي من أجلها أقام الله ﷻ الإسلام.

وقد تضمَّن هذا الخطاب استعراضا لتاريخ الخلافة مشتملاً على ردود مفحمة على شبهات تاريخية أُثيرت حول حقّيَّة الخلافة. ودافع حضرته عن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين وبيَّن ما كانوا يتحلون به من إيمان راسخ وشجاعة فائقة وتوكل عظيم، وكيف أنهم كانوا مصداقا لوعد الخلافة وتحققت فيهم أمارات الخلافة الحقة كلها.

واستعرض حضرته أيضا تاريخ قيام الخلافة الراشدة الثانية في الجماعة الإسلامية الأحمدية، ومواقف الخليفة الأول ؓ الذي حقّق الله به هذا الوعد حيث وقف بكل شجاعة وبسالة ودافع عن الخلافة وأرساها بفضل الله ﷻ. كما استعرض حضرته الفتنة التي قامت ضد خلافته، وكيف أن الله تعالى قد أنجز وعده وبدَّل الخوف أمنًا ومكَّن الدين وأرسى التوحيد وأيَّد الخلافة تأييدا خارقا وأخزى الأعادي من الداخل

والخارج. وقد أكّد حضرته ﷺ أن هذه الوعود مستمرة مع الجماعة، وأن الذي سيتمسك بأهداب الخلافة سيرى هذه الآيات والمعجزات التي قدَّرها الله ﷻ، وستحقق له النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة.

نسأل الله تعالى أن يوفق القارئ الكريم لينهل مما في هذا الكتاب من فوائد جمَّة، وأن يوفقه لإدراك مكانة الخلافة والالتزام بها، تلك النعمة العظمى التي أنعم الله ﷻ علينا بها بفضله وبرحمته.

بقي أن نذكر أنّ النصوص التاريخية الواردة في الكتاب مذكورة عمومًا بالمعنى لا نصًّا.

لقد حاز شرف تعريب هذا الخطاب القيّم الداعيةُ عبد المؤمن طاهر، فجزاه الله أحسن الجزاء. كما نتقدم بخالص الشكر لكل مَن ساهم في نشر هذا الكتاب ولا سيما الأساتذة الأفاضل التالية أسماؤهم: هاني طاهر، خالد عزام، تميم أبو دقة، د. محمد حاتم الشافعي، د. وسام البراقي، مير أنجم برويز، محمد أحمد نعيم، محمد طاهر نديم. جزاهم الله خيرًا.

نبتهل إلى الله تعالى مرة أخرى أن يجعل في هذا الكتاب بركةً خارقة ونفعًا عظيمًا للعباد، ويشفي به غليلهم الروحاني، آمين.

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم

الخلافة الراشدة

خطاب

ألقاه سيدنا حضرة ميرزا بشير الدين محمود أحمد

الخليفة الثاني رضي الله عنه

في الجلسة السنوية بمناسبة يوبيل الخلافة الفضّي

في ٢٨-٢٩ ديسمبر/كانون الأول ١٩٣٩ بقاديان



أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لــه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، آمين.

ضرورة مناقشة الجوانب المختلفة لموضوع الخلافة

لقد اعتدتُ أن ألقي خطابًا علميًا في كل جلسة سنوية، وعليه فأودُّ اليوم أن أعبر عن أفكاري حول موضوع هامٍّ جدا. ولأن هذه الجلسة مميزة لكونها تخصّ يوبيل الخلافة، ولأن مواضيعها أيضا ذات صلة بمسألة الخلافة، فارتأيتُ أن أتناول في خطابي اليوم شتى جوانب الخلافة. وقد يسبب هذا الأمر ملَلاً لبعض الطبائع، إذ يقولون إن كل من يقف على المنصة يلقي خطابا حول الخلافة، ولكن أهمية هذا الموضوع ومقتضى هذه الجلسة السنوية تفرض علينا أن نبيّن كل التفاصيل المختلفة لقضية الخلافة على أحسن وجه ممكن. فكما أن من فطرة الإنسان أنه إذا أُطعمَ أشياء مختلفة نفعته، كذلك يضطر أحيانا لتناول شيء واحد مرة بعد أخرى؛ وعلى سبيل المثال، قال الرسول ﷺ عن العيدين إنه يوم أكْلنا وشربنا. ولا يكون طعامنا في عيد الأضحى بالأخص إلا اللحم، حيث تذبح في أيام الحج الخراف وغيرها من الأضاحي بكثرة، فيؤكل من لحمها ما يمكن أكله، والباقي يرمى. كذلك تماما لا بد في بعض الأحيان من إلقاء الضوء على جوانب شتى لموضوع واحد.

محاولة معارضي الجماعة للتهوين من شأن الخلافة

ومن الخطط والمكايد التي يلجأ إليها أعداء جماعتنا في هذه الأيام للنيل منها أنهم يسعون باستمرار جاهدين للتهوين من مكانة الخلافة الإسلامية

الأحمدية، ويريدون أن يُحيوا الشيطان في قلب من يستطيعون إحياءه فيه، ومن أجل ذلك قررتُ هذه المرة أن أعبّر عن أفكاري حول الخلافة لكي ينتفع منها من يريد الانتفاع، ويكون هذا التعليم مدعاة بركة وهداية للذين يحبون الدين.

مسألة الخلافة من أهم مسائل الإسلام

أرى أن مسألة الخلافة هي من أهم مسائل الإسلام، بل أرى أننا لو فسّرنا كلمة الشهادة لكانت هذه المسألة في القمّة لدى تفسيرها. لا شك أن كلمة الشهادة هي أساس الإسلام، ولكنها تحتوي على تفاصيل، وإن أهمّ ما تشير إليه هذه الشهادة هي مسألة الخلافة، ومن أجل ذلك ارتأيت أن أضع أمام الجماعة أفكاري عن هذه المسألة بشكل واضح، لكي تقوم الحجة على المعارضين، و﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.. أي أن تقام الحجة بجلاء على مَن يهلك بالحجة، ويتيسر لَمن كان إيمانه مبنيًا على البصيرة برهانٌ بيّنٌ يجدّد إيمانَه.

ضرورة ربط نظام حُكم الأمة المسلمة بالدين

أولاً وقبل كل شيء، أتناول سؤالاً يثار بتأثير الثقافة الغربية، وهو نفس السؤال الأساس الذي عليه مدار هذه القضية، ألا وهو: إن النظام أمرٌ دنيويّ في كل حال، وما دام النظام ليس أمرًا دينيًّا فما الحاجة لربط نظام الحكم في الأمة الإسلامية بالدين؟ النظام قضية سياسية، ولا علاقة

له بالدين، فما الحاجة للتدبر فيه من وجهة نظر دينية؟ لقد أنزل الله دينه فآمنّا به، والآن لا يحقّ للدين أن يتدخل في النظام الذي نختاره لأنفسنا، بل هذا متروك لخيار مسلمي كل عصر، فيقرّرون ما يشاءون لهم من نظام، فلهم أن يتفقوا على اختيار مَلِكٍ مطلق الصلاحيات، أو يختاروا لهم الديمقراطية، أو يرضوا بمبادئ بلشفية، أو بملكية دستورية، ولكن لا حاجة لتنفيذ نظام معيَّن باسم الدين، ولن يكون هذا نافعا. إن الهدف الأساس هو نشر الدين، فما الحاجة بعد ذلك إلى تحديد نظام نختاره لتحقيق هذا الهدف؟

لقد أثار هذا النقاش الشبابُ المثقفون الجدد المتأثرون بالغرب، والحقّ أن هذا النقاش نتيجة للحرية الخاطئة التي تولدت في المسلمين في هذا العصر بتأثير أفكار الفلاسفة المختلفة. إن هؤلاء يثيرون هذا السؤال مرارا ويقولون بأن هذه الطريقة تسيء إلى الدين وتنفّر المثقفين الجدد منه، فالأفضل أن نترك الدين في مكانه، والسياسة في مكانها.

هذا التيار الفكري كان ساريًا في المسلمين منذ مدة بتأثير الغرب، ولكن لم يجرؤ أحد منهم أن يتفوه به علنًا. ولكن عندما قُضي على الخلافة العثمانية وألغاها "كمال أتاتورك" وقع هيجان شديد في العالم الإسلامي، وشكّل أصحاب الأفكار القديمة لجانًا للخلافة، وتشكلت بعضها في الهند أيضا، وقال أصحابها: سوف نقاوم هذا التيار الجديد. أما الذين كانت تساور قلوبهم الشبهات بأن هذه مسألة سياسية، فإنهم

لما رأوا أنّ ملِكًا مسلمًا منتصرا يحظى باحترام كبير لدى الناس قد أيّـد أفكارهم بعَمله ازدادوا جرأةً، فكتب بعضهم مقالات ومواضيع في هذا الشأن. هذه المقالات كتبها المسلمون والأوروبيون وبعض الروس أيضا، ولكن لم يقدِّم هذه الفكرة بأدلّتها إلا عالـمٌ مصري اسمه علي بن عبد الرزاق، وهو أحد علماء الأزهر، وأحد قضاة المحاكم الشرعية، وذلـك في كتابه "الإسلام وأصول الحكم". وكما قلتُ كان الدافع وراءه ذلك الهيجان الشديد الذي ساد العالم الإسلامي عموما والعالم العـربي خصوصا بسبب إلغاء الخلافة العثمانية.

الرد على سؤال

لعل أحدًا يقول: ما علاقة هذا البحث بالخلافة الأحمدية التي يجب أن تكون موضوعَ خطابي، فإن الخلافة التي نوقشت في كتاب هذا العالم المصري إنما هي الخلافة السياسية، ولكن الخلافة في جماعتنا إنما هـي خلافة دينية. الأتراك ملوك، والأحمديون ليسوا بملوك، لذا فالأدلـة في تأييد الخلافة العثمانية هي غير الأدلة في تأييد الخلافة الأحمدية، وكذلك الأدلة ضد الخلافة العثمانية تكون غير الأدلة ضد خلافتنا، فشتان بـين الخلافة العثمانية والخلافة الأحمدية التي ليس عندها مُلْكٌ والـتي هـي خلافة دينية فقط.

والرد على هذا السؤال هو أنّه ليس ضروريا عند نقاش مسألة ما أن يلقى الضوء على جانبها الذي أثير السؤال عنه فحسب، بل تُناقَش جميع

جوانبها في أحيان كثيرة، وهذا لا يكون مدعاة لاعتراض. وعلى سبيل المثال لو سأل أحد: كيف تغسل الأيدي في الوضوء، وبيّنّا له تفاصيل الوضوء كلها، فلا حرج في ذلك، بل هذا ينفعه، لأنه سوف يفهم أمورًا أخرى عن الوضوء. كذلك فلا شك أن الخلافة في جماعتنا إنما هي خلافة دينية، ولكن لا حرج لو ناقشنا الخلافة السياسية أيضا، بل هذا ضروري لاستكمال هذا الموضوع.

السياسة لا تخص الحكومة فقط

والجواب الآخر هو أنّ السياسة اسم آخر للنظام في الواقع، والسياسة ذات صلة بالحكومة، وتكون السياسة بغير الحكومة أيضا. لقد ظنّ الناس خطأً أن السياسة تتعلق بالحُكم فقط، مع أنها تكون من دون الحكومة أيضا، ويقام النظام بغير الحكومة أيضا، فمثلا قال النبي ﷺ: إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمِّروا واحدا منهم[1]، لكي يكون إمامًا لهم في الصلاة ويستشيروه في حاجات أخرى تعنّ لهم في السفر. وهذا أيضا نوع من النظام، ولكن لا علاقة له بالحُكم. النظام شيء مستقل في الواقع، وإذا كان ذا صلة بالحكومة فهو يغطيها أيضا، وإذا لم يكن مرتبطا بالحكومة فلا بد للناس من الالتزام به أيضا. فمسألة الخلافة ذات صلة بالنظام الإسلامي، سواء كان مشتملا على الحكومة أم لا.

---

[1] أبو داود، كتاب الجهاد، باب في القوم يسافرون

الاعتراض على الخلافة الدينية

والجواب الثالث هو لو ثبت أن الإسلام لم يقدّم نظامًا معينا، فهذا لن يقدح في الخلافة السياسية فحسب، بل سوف يقدح في خلافتنا.. أي أن هذا الاعتراض سوف يقع على الخلافة السياسية وعلى النظام الديني البحت على حدٍّ سواء.

فمع أن تلك الأدلّة قد قُدِّمت ضد الخلافة العثمانية إلا أنها تؤثر على الخلافة الأحمدية أيضا مثلما تؤثر على الخلافة السياسية، لذا فلا مناص لنا من دراسة تلك الأدلة. ذلك لأنّه إذا لم يكن الإسلام يقدّم نظامًا معينا، فإن المسلمين سيكونون أحرارا في النظام السياسي، كذلك سيُعَدّون أحرارا في النظام الديني الخالص أيضا، ويكون لهم الخيار في أن يقيموا لهم في أي عصر وفي أي بلد نظاما كيفما يشاءون.

اجتماع النظامين السياسي والديني في أوائل الإسلام

وهذا السؤال يكتسب أهمية أكبر حين نجد أنّ النظامين السياسي والديني في بداية الإسلام كانا مجتمعين، أعني أنه كان عند المسلمين نظام ديني بلا شكّ، إلا أنه كان عندهم جيوش، وكان بينهم قضاة يطبقون الحدود، وينفذون القصاص، ويقلّدون المناصب ويقسمون الوظائف، كما كانوا يصلّون ويصومون ويحجّون ويؤدّون الزكاة، مما يعني أن النظام بنوعيه كان ساريًا في بداية الإسلام. لذا لو ثبت أن الإسلام لم يقدّم أي نظام محدد فسوف تُعَدّ الخلافة الدينية التي كانت في بداية

الإسلام مجردَ قرار مؤقت عابر اتخذه المسلمون في ذلــك الوقــت، ولا يمكن الاستدلال به والاعتماد عليه للمستقبل، وإذ لم تثبت الخلافــة في بداية الإسلام فإقامتها فيما بعد لا يمكن أن تُعتبر قضية دينية. وهكــذا، فإذا وقع الاعتراض على مسألة الخلافة فلن يقول الناس بــأن الخلافــة العثمانية وحدها باطلة، بل سوف يرفضون الخلافة أصلا، وهكذا سوف نتأثر حتمًا نحن أيضا الذين نقول بضرورة الخلافة. وعلى سبيل المثــال، لو وُجِّه للهندوس والمسيحيين اعتراض يمكن توجيهه إلى الإسلام أيضا، فلا يقال بأنه سيضرّ بالهندوس والمسيحيين فقط، وأن لا خوف علــى الإسلام منه، لأنه إذا كان سبب ذلك الاعتراض موجودا في الإســلام فمن واجبنا أن نردّ عليه، لأن ذلك الاعتراض لو جعل الناس يكرهــون الدين فلن يكرهوا الهندوس والمسيحيين، بل لا بد أن يكرهوا المسلمين أيضا.

دليل على الخلافة

والجواب الرابع هو أننا نقدم للناس مثــال خلفــاء رســول الله ﷺ الراشدين إثباتًا للخلافة الأحمدية ونقول: كما صار أبو بكــر وعمــر وعثمان وعليّ رضوان الله عليهم أجمعين خلفاءَ رسول الله ﷺ بعــده، كذلك لا بد من الخلافة بعد المسيح الموعود عليه السلام، ولكن إذا لم تثبــت تلك الخلافة الراشدة بعد الرسول ﷺ فسوف تبطل الخلافة الأحمديــة تلقائيا.

هل الأعمال التي قام بها النبي ﷺ لإقامة النظام، مِن الدين أم لا؟

ولا يغيبنّ عن البال أيضا أننا إذا سلّمنا بصحة العقيدة التي يقـدّمها العالم المصري "علي عبد الرزاق" للناس، والتي يقدّمها غـيرُ المبـايعين أيضا[2]، فإن ذلك سيحدو بنا إلى سؤال هام آخر، وهو: هـل أعمـال الرسول ﷺ التي قام بها لإقامة النظام تُعَدّ من الدين أم لا؟ ذلك أننا إذا قضينا بأن الإسلام لا يقدّم نظامًا معينا، وأن خلافة أبي بكـر وعمـر وعثمان وعلي رضي الله عنهم إنما كانت قرارًا عابرا اتخذه المـسلمون، وأن الإجراءات التي كانوا يتخذونها لإرساء النظام السياسي إنما كـانوا يتخذونها نيابةً عن الرسول ﷺ، فينشأ سؤال طبيعـيّ ألا وهـو: هـل الأعمال التي قام بها الرسول ﷺ لإدارة الحكم وتوطيد النظـام كانـت بمقتضى حاجة ذلك العصر فحسب، أم أنها من صميم الدين؟ لو كانت أعماله تلك صادرة وفقًا لضرورة ذلك العصر فحسب، فإنّ كل ما فعله أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم اتباعًا للنبي ﷺ ونيابة عنه، سيُعَدّ أيضا ضرورة عابرة، ولن يكون حجةً شرعية علينا. أما إذا كانت

[2] وهم الذين أرادوا إلغاء الخلافة في الجماعة في عهد الخليفة الثاني رضي الله عنه، ولم يبايعوه، وانشقّوا عن الجماعة التابعة للخلافة واتخذوا مدينة لاهور مركزًا لهم، وكان أول رئيس لهم هو المولوي محمد علي. واشتهروا بألقاب عديدة مثل "غير المبايعين" لرفضهم بيعةَ الخليفة الثاني رضي الله عنه، و"اللاهوريين" نظرًا لمركزهم لاهور، و"البيغاميين" نظرًا لجريدتهم "بيغام صلح" أي "رسالة الصلح". (المترجم)

أعمال النبي ﷺ المتعلقة بالحكم والنظام ذات صبغة دينية، فـــلا بـــد أن نتخذها حجةً وسندا. فهذا السؤال لا يبقـــى منحـــصرًا في الخلفـــاء الراشدين فقط، بل يصل إلى رسول الله ﷺ أيضا.. أعني أن نظام الخلافة إذا لم يكن مبدأً دينيا، فلأنه تقليد لأعمال الرسول ﷺ، فلن تُعتبر أعماله التي قام بها لتوطيد النظام دينيةً ولن نكون بحاجة لاتّباعها. خذوا الثياب والأطعمة مثلا، فلا يقول أحد بأن الرسول ﷺ كان يلبس لباسًا كـــذا، ويتناول طعاما كذا، لذا فلا بد أن نلبَس ذلك اللباس ونأكـــل ذلـــك الطعام فقط، فلا يقال مثلا بأن الرسول ﷺ كان يلبس الإزار لذا فلا بد أن تلبسوه، أو كان ﷺ يأكل التمر فلا بد أن تأكلوه أيضا. وإنما نستنتج من هذا مبدأً بأن على الإنسان أن يعيش عيشة بسيطة. كـــذلك إذا لم نعتبر أعمال الرسول ﷺ -التي قام بها لإرساء النظام- شرعيةً، وقلنا إنها صادرة بحسب حاجة الزمن فحسب، فلن تكون حجة علينا، وغاية ما نقوله هو إن حكومة الأعداء كانت قد دُمِّرت وصاروا كلهم تابعين له، فاضطر لإقامة نظام ما، ولأن إقامة النظام يتطلب قوانين فوضعَ بعـــض القوانين، إصلاحًا للناس، لا لأن يقدِّم نظامًا يحظى بتأييد الدين دوما.

باختصار، إن التسليم بالعقيدة المشار إليها يحتِّم علينا الإقـــرار بـــأن الأعمال التي قام بها الرسول ﷺ لإرساء النظام لا تحمل صبغة دينيـــة، وإنما صدرت منه بحسب حاجة العصر فقط، ولا تحظى بأي تأييد مـــن

الدين. ولو كانت تحظى بتأييد من الدين لصارت سنة وقابلة للعمل لمن بعده.

هذه نتيجة طبيعية للعقيدة المشار إليها، ولكن منكري الخلافة ظلّوا يسعون لإخفائها عن أعين الناس على مر العصور؛ لإدراكهم أهم لو قالوا بأن أعمال النبي ﷺ التي قام بها لإدارة شؤون الحكومة إنما هي مجرد أعمال دنيوية صادرة عن ضرورات ذلك العصر فقط، لما تحمَّلَهم المسلمون ورموهم بالإساءة للنبي ﷺ، ولذلك فإن منكري الخلافة ظلوا يسلكون دوما بهذا الشأن أسلوبا غير منطقي. ولكن الشيخ الأزهري علي بن عبد الرزاق قد ناقش هذا الموضوع بحرية وجرأة، لذلك قد توصّلَ تلقائيا إلى النتيجة المذكورة آنفا.

ومن غرائب الصدف أنني لما بدأت أكتب ملاحظاتي حول هذا الموضوع، خطر ببالي أننا لو توجهنا بهذا الدليل صعودًا فهذا سيطال رسولَ الله ﷺ، ولا يكون لنا مناص من التسليم بأنّ هذه الجزئية من أعماله ﷺ إنما كانت أعمالاً دنيوية بحتة قام بها وفقًا لضرورة عصره. لقد توصلت إلى هذه النتيجة أولاً، ثم بعد ذلك لما طالعت كتاب هذا العالم المصري وجدتُه يقوم بالاستنباط عينه. ومع أنه لم يذكره بوضوح خوفًا من المسلمين، وإنما حاول دسّ السمّ في العسل، إلا أنّ قصده واضح تماما، وهو أنّ نظام القضاء والميزانية وغيرهما مما هو ضروري للحكومة

ليس ثابتًا في ذلك الوقت، وعليه فإن كل ما كان النبي ﷺ يفعله في ذلك الوقت إنما كان يفعله لمصالح عابرة فقط.

نتيجة خطيرة لإنكار الخلافة

الحق أن إنكار الخلافة يدفع بالمرء حتمًا إلى القول بأنّ نظام حكم الرسول ﷺ لم يكن دينيا، ومهما استخدم مِن كلماتٍ ليّنة في تقديم هذه الفكرة مخافةَ معارضة المسلمين فإنها سوف تُسقِط نظامَ حكم الخلفاء من الشرعية الدينية، وليس هذا فحسب بل ستؤدي إلى القول بأن أعمال رسول الله ﷺ التي قام بها لإدارة الحكم كانت دنيوية بحتة قام بها بحسب حاجة العصر، وأنه، باستثناء الصلاة والصوم والحج والزكاة، قد ترك خيار النظام السياسي بأيدي الناس، وأعطاهم حرية مطلقة في أن يختاروا ما يشاءون من نظام بحسب سهولتهم.

لقد ناقش عليّ عبد الرزاق هذا الموضوع أيضا حيث كتب: لو تيسرَ للنبي ﷺ الحُكمُ حقَّ التيسر لعيَّن قضاة في كل مكان، ولكنه لم يعيّنهم في كل مكان، وكذلك لأعدّ ميزانية وغيرَها من الأمور الضرورية للحُكم، ولكنها ليست ثابتة في عهده ﷺ. وقد حاول هذا العالم أن يثبت أن الرسول ﷺ إذا كان ساهمَ في إدارة أمور الحكومة فإنما فعل ذلك لضرورات آنية، كإنسان لا يجد في البيت كرسيًا فيجلس على الأرض. لم تكن هناك عندئذ أية حكومة، فسنّ ﷺ بعض القوانين

لإرساء نظام عابر، فعملُه هذا إنما كان عملا دنيويا محضا لا يمكـــن أن تُؤخذ منه شرعية دينية.

باختصار، إن التسليم بهذا المبدأ لا يُسقط نظام حكومة الخلفاء مـــن الشرعية الدينية فحسب، بل يدفع بالمرء لاعتبار أعمال الرسول ﷺ التي قام بها لإدارة نظام الحكومة أعمالاً دنيوية بحتة، وأنها ليست ســـنة ولا قابلة للعمل لمن بعده.

بعد هذا التمهيد أتناول الآن مسألة الخلافة والنظام الإسلامي تنـــاولا مبدئيا.

نوعان من الأديان

أرى أن استيعاب هذه القضية يقتضي أن ندرك أن ديانــــات العــــالم نوعان، أولهما: تلك الأديان التي تحصر الدين في بضع عبادات وأذكار، وتفصل بينها وبين شؤون الدنيا الأخرى، وتعتبرها أعمالا دنيويـــة ولا تتدخل فيها، فهي تقول: هكذا صلّوا، وهكذا صوموا، وهكذا تَصدّقوا، وهكذا أنفِقوا، وهكذا أدّوا حقوق الناس. باختـــصار، إنهـــا تـــصدر الأحكام حول العبادات والأذكار، ولكن لا تصدر أية أحكام ذات صلة بالنظام أو الاقتصاد أو العلاقات الدولية، أو معاملات الناس، أو الميراث أو غيرها، ولا تقدّم أية تعليمات في هذه الأمور مطلقا.

السبب الأساس لاعتبار الديانة المسيحية الشرع لعنةً

ومن هذه الأديان الدين المسيحي. فمن أكبر أسباب تركيز هذا الدين على اعتبار الشرع لعنةً أنّهم يريدون فصل أعمال الناس عن قيود الدين. يقولون إنّ عمل الدين محصور في أن يقول للناس أن يصلّوا ويصوموا ويحجّوا ويزكّوا ويؤمنوا بألوهية عيسى، فما للدين ليصدر للناس أحكامًا عن القتل والفساد والسرقة وقطع الطرق والعلاقات الدولية وعقد المعاهدات بين الشعوب وكيفية إدارة اقتصاد البلاد؟ كلا، لا علاقة للشرع بهذه الأمور. وإذا كانت هناك قضية تقسيم الإرث بين الأبناء والبنات مثلا فيقولون: أي حق للشرع للتدخّل في ذلك؟ إنما هو عمل برلمان دولتنا، فما يرى فيه منفعة الشعب سيسنّه قانونا. كذلك يقولون إذا قرّرنا نحن أخذ الربا نقدًا أو عينًا، فلا يحقّ للدين أن يقول إن أخذ الربا نقدًا أو عينًا حرام؟

باختصار، إنهم ينظرون إلى أحكام الدين المتعلقة بالنظام نظرة كراهية شديدة، ولذلك اعتبروا الشرع لعنة. إن اعتبارهم الشرع لعنة لا يعني أن الصوم عندهم لعنة، لو كان الصوم عندهم لعنة لما وردت العبارة التالية في النسخ القديمة للإنجيل عن الجنّ والشياطين: {وَأَمَّا هذَا الْجِنْسُ فَلاَ يَخْرُجُ إِلا بِالصَّلاَةِ وَالصَّوْمِ}[3]. هل من الممكن أن تذكر الأناجيل هذه الكلمات، ومع ذلك تعتبر الشرع لعنة؟ الحق أن قول المسيحيين بأن

---

[3] متَّى ١٧: ٢١

الشرع لعنة فإنما يعني أنّ تحديد الشرع للنظام القومي لعنةٌ، وأنه لا يحقّ للدين إصدار أية أوامر في أمور دنياهم، وإنما يسنّ كل قوم قوانينهم في أمور دنياهم بحسب ضرورتهم وظروفهم. وهكذا فإنهم قد حرّروا أنفسهم من قيود الشرع الموسوي التي تخص أمور الحكومة.

إذا كان المسيح عليه السلام قد قال هذا الكلام - على فرض صحة نسبته إليه- فلم يكن مراده ما يعنون به، وإنما كان قصده أن اليهود يعيرون ظاهر أحكام الشرع أهمية كبيرة حتى نسوا الروحانية والأمور الباطنية تماما، وهذا الأمر قد صار لهم لعنة، وأبعدَهم عن الحقيقة جدا. ولكن عندما انتشرت المسيحية في الإمبراطورية الرومانية فإن الرومان ما كانوا مستعدين لترك دستورهم الوطني، إذ كانوا يرون أنه ليس هناك أي قانون أو دستور أفضل من دستورهم -بل الحق أن الدول الأوروبية لا تزال حتى اليوم تنتفع بالدستور الروماني- فظن هؤلاء الذين كانوا جد متحضرين وخبراء بالقانون أن من المحال أن يسنّ أحد في العالم قانونًا أفضل منه. لقد وجدوا من ناحية أن تعاليم الديانة المسيحية عن حب الله تعالى والمعجزات والآيات والدعوات وتضحيات المسيح وما إلى ذلك جميلة جدا، فمالت قلوبهم إلى المسيحية، واعترفوا بأن هذا الدين يستحقّ القبول، ولكن من ناحية أخرى ما كانوا يطيقون أن يطبقوا على أنفسهم الشريعة اليهودية التي كانوا يرونها أدنى من الدستور الروماني جدا، فوقعوا في إشكال عجيب. كانت تعاليم الدين المسيحي

الجميلة تجذبهم إليها، ولكن فكرة أفضلية الدستور الروماني ما كانت تدَعهم يحنون رؤوسهم أمام الشريعة اليهودية. وبينما هم مذبذبون في هذا الإشكال وقع نظرهم على هذه الفقرات من العهد الجديد: {لأَنَّ جَمِيعَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَعْمَالِ النَّامُوسِ هُمْ تَحْتَ لَعْنَةٍ}[4]، و{اَلْمَسِيحُ افْتَدَانَا مِنْ لَعْنَةِ النَّامُوسِ، إِذْ صَارَ لَعْنَةً لأَجْلِنَا}.[5] وهذه ليست كلمات المسيح ﷺ، بل هي كلمات بولس، إلا أن هؤلاء وجدوا لهم فيها مبررًا، فوسّعوا مفهومها وقالوا: لا يحقّ للدين أن يعطينا الأوامر في أمور دنيانا، بل كل قوم يسنّون بأنفسهم القوانين لإدارة أمور دنياهم حسب حاجاتهم وظروفهم. الحق أن هذه الجملة لو كانت للمسيح ﷺ أو لأحد حوارييه فإنما المقصود منها البيان أنّ اليهود يبالغون في التركيز على ظاهر الأحكام متناسين اللب والروحانية تماما، وهذا ما جلب عليهم اللعنة. إنهم يصلّون في الظاهر، ولكن لا تميل قلوبهم إلى الله وخشيته وحبه، فصارت صلاتهم لعنة عليهم. إنهم يخرجون الصدقات ويذبحون الأكباش في الظاهر، ولكنهم لم يذبحوا أكباش نفوسهم قطّ، فصارت صدقاتهم ونفقاتهم لعنة عليهم. إنهم يحنون رؤوسهم أمام الله تعالى عند العبادة في الظاهر، ولكن لا تخضع قلوبهم أمام الله أبدا، فصارت عبادتهم لعنة عليهم. إنهم يخرجون الزكاة وينفقون الأموال في

---

[4] رِسَالَةُ بُولُسَ إِلَى أَهْلِ غَلاَطِيَّةَ ٣ : ١٠

[5] رِسَالَةُ بُولُسَ إِلَى أَهْلِ غَلاَطِيَّةَ ٣ : ١٣

سبيل الله، ولكنهم لا يطيقون التضحية بأفكارهم الباطلـــة، فـــصارت زكاتهم لعنة عليهم. باختصار، لأن اليهود كانوا يركّزون على ظـــاهر الأحكام متناسين إصلاح الباطن تماما، فاضطر المسيح أو حواريوه للقول بأن عملهم بظاهر الشرع وعدم اهتمامهم بإصلاح الباطن لعنة. لم يكن معنى هذا القول أن الشريعة لعنة، بل كان معناه أن العمل بظاهر الشرع فقط وإهمال إصلاح الباطن قد جلب لهم اللعنة. غير أن الرومان وجدوا مبررًا في هذا القول وقالوا إن هذا يعني أن علينا أن نطيع الـــدين فيمـــا يحكمنا به عن العبادات كالصوم والصلاة وغيرهما، ولكننا لـــن نطيـــع الدين في أمور دنيانا، ولا يحق له أن يعطينا الأوامر في هذه الـــشؤون، فهذا متروك لنا، فنختار لأنفسنا ما نشاء من قوانين، ومن أجل ذلك فإن المسيحيين الرومان الذين عدّوا الدين والشريعة لعنة قد سنوا بأنفـــسهم قانونا وأكرهوا الناس على العمل به. لو كان القانون بحدّ ذاته لعنة لمـــا سنّوا قانونا، وما نفّذوه. إن اعتبارهم الدين لعنة من جهة، وسنَّهم شتى القوانين لأنفسهم من جهة أخرى لدليلٌ بيّنٌ على أنهم فسروا هذه الفقرة الإنجيلية بأنّ من حق الناس أن يسنّوا لأنفسهم ما يشاؤون من قـــوانين، ولا يحقّ للدين أن يصدر لهم أية أحكام في أمور دنياهم، وهكذا حرروا أنفسهم من قيود الشريعة الموسوية التي فُرضت على النـــاس في أمـــور الحكومة.

تدخُّل الديانة اليهودية في نظام الحكومة

وعلى النقيض من ذلك، هناك أديان وسّعت دائرة نفوذها، وسنّت قواعد وقوانين حول أعمال الناس وعلاقاتهم ونظام حُكمهم وغير ذلك، ولا مناص لأتباع مثل هذه الأديان من الإقرار أنه يحق للدين أن يتدخل في أمور الحُكم، وأنّ العمل بأحكام الدين المتعلقة بالحُكم واجب على الأفراد والجماعات وجوبَ العقائد والأحكام الفردية مثل الصلاة والصوم وغيرهما. ويمكن تقديم الديانة اليهودية مثالاً على ذلك. لو قرأ المرء الشريعة الموسوية لوجد فيها بكثرة أن مَن قتلَ فعقابه كذا، ومَن سرق فعقابه كذا، وأنه يجب مراعاة قواعد كيت وكيت في حالة الحرب، ويجب العمل بمبادئ كيت وكيت عند تقديم القرابين، وكذلك يعطي الدين اليهودي شتى الأحكام في المعاملات من دَين وتجارة وغيرهما. باختصار، إن الدين اليهودي يتدخل في أمور الحكومة، وكلما تدبر المرء في الشريعة الموسوية توصّلَ إلى أنه كما يحقّ للدين أن يتدخل في معاملات الأفراد، كذلك يحق له أن يتدخل في شؤون الأمة والدولة.

موقف الإسلام

والآن علينا أن نرى أيَّ الديانات يشبه دينُ الإسلام؟ هل يشبه القسمَ الأول منها أم الثاني؟ وهل يتدخّل في شؤون الدولة أم لا؟ فإن كان محمد رسول الله ﷺ قد تدخّلَ في شؤون الشعب والدولة، سواء من عنده، أو لأن البلد كان بحاجة ماسة إلى ذلك، فلا بد من الإقرار بأن

شأنه شأن إنسان يجد في الغاب طفلا صغيرا تائها فيشفق عليه ويأخـــذه إلى بيته، وهذا لا يعني أنه قد نالَ حقّ ولايته، كذلك فإن كان محمد ﷺ قد وجد أيتام العرب فأشفق عليهم واحتضنهم، فهذا لا يعني أنه قد نال حق ولايتهم، بل كان لهم الحق أن يختاروا لأنفسهم ما يـــشاؤون مـــن قوانين ونظام حين قدروا على الوقوف على أقدامهم. ولكن لو وُجدتْ في الشريعة الإسلامية أحكام ذات صلة بالنظام والحكم، فلا بـــد مـــن الإقرار أن النبي ﷺ لم يتدخل في شؤون الحكم والنظام هذه مِن تلقـــاء نفسه، وإنما أخذ زمامها في يده بأمر الله تعالى. وإذا ثبت أمـــرُ الله لـــه بذلك فقد ثبت أيضا أن جزء حياته الذي قضاه في إدارة أمور الدولـــة لـــهو ذو صبغة دينية، وأن المسلمين كما هم ملتزمون بالعمل بأحكام الإسلام فيما يخص النظام الديني الخالص، كذلك هم ليسوا بأحرار فيما يخصّ الحكم والدولة، بل هم ملتزمون بالنظام الذي أقرتـــه الـــشريعة الإسلامية بهذا الشأن.

وعندما نرجع إلى القرآن الكريم والأحاديث النبوية من أجـــل هـــذا الغرض نجد بإلقاء نظرة عابرة عليها أن الإسلام ليس من القـــسم الأول للأديان، بل هو من القسم الثاني منها، إذ لم يكتـــفِ ببيـــان العقائـــد والأعمال الفردية فحسب، بل قد تناول الأحكام المتعلقـــة بالحكومـــة والقانون، فإنه لا يقول فقط أن صلّوا وصوموا وحجّوا وزكّـــوا، بـــل يصدر أحكاما ذات صلة بالحكومة والقانون. فإنه، على سبيل المثـــال،

يناقش العلاقات الزوجية، ويذكر التدابير التي يجب اتخاذها من أجل الصلح بين الزوجين عند الخصومة، ويبين مقدار العقوبة ونوعيتها إذا ما اضطر الرجل لإيقاع عقوبة بدنية على المرأة. كما يبين قواعد المعاملات المالية، ويذكر ما هو المطلوب عند الدَّين والإقراض، وأي أنواع القروض حلال وأيها حرام. كما يذكر قواعد التجارة والمال. ويبين قوانين الشهادة التي عليها أساس القضاء، فيذكر بكل صراحة نوعية الشهود وعددهم، والأمور التي يجب مراعاتها عند الشهادة. كذلك يصدر أحكاما عديدة متعلقة بالقضاء، ويبين كيف يجب أن يحكم القضاة. ثم يبين العقوبات الجسدية المترتبة على شتى أفعال الناس، وهي عقوبات تنفذها الدولة، مثل عقوبة القتل وعقوبة السرقة. كما يبين قوانين الميراث، ويضع قيودا على حقّ الضرائب الذي يكون للدولة، ويذكر تفاصيل الضرائب مبينًا صلاحيات الحكومة في إنفاقها. ويذكر الضوابط التي يجب أن يلتزم بها الجيش، ويبين قواعد المعاهدات، ويذكر المبادئ التي تجب مراعاتها عند إبرام معاهدة بين أمّتين. كما يبين قوانين العلاقات الدولية وقواعد العلاقات بين المستأجر والمؤجر وآداب الطرق.

فكل الأحكام التي هي ذات صلة بالدولة قد بينها الإسلام صراحة، فلا يمكن القول بأن الإسلام قد ترك الناس أحرارًا فيما يتعلق بالحُكْم، بل كما أثبتُّ آنفًا فإنه قد تناول كل شعبة من شعب الحكومة ببيان

مستفيض. لذا فمن كان يؤمن بالإسلام، ويرى أنه قد ذكر الأحكام المتعلقة بالحكومة مفصلةً، فلا يسعه أن يقول ما علاقة الدين بهذه الشؤون، بل لا بد له من الإقرار بأن أفعال رسول الله ﷺ المتعلقة بالدولة والحُكم واجب العمل بها كما يجب العمل بأحكامه الأخرى المتعلقة بالصلاة والصوم وغيرهما، لأن الله الذي أمر بالصلاة والصيام والحج والزكاة هو الذي قد أنزل الأحكام المتعلقة بالسياسة ونظام الدولة أيضا. لذا فلا يمكن القول إن كل قوم وبلد حرّ في أن يختاروا لأنفسهم ما يشاءون من نظام، وأن يعيشوا كما يحلو لهم، كلا! بل لا مناص لهم من الالتزام بأحكام الإسلام في مناحي الحياة كلها. إذ لو كان الرسول ﷺ قد فعل هذا من عند نفسه لجاز لنا القول أن الناس أحرار في هذه الأمور، ولكنا ما دمنا نقول إن هذه الأحكام مذكورة في القرآن الكريم فعلاً وأن النبي ﷺ لم يبينها إلا بأمر الله تعالى، فثبت أنه لم يفعل ذلك من عند نفسه. وما دام القرآن الكريم قد بين كل هذه الأمور المتعلقة بالحكومة، فمن غير المعقول ألا يكون قد أخبر كيف تُدار هذه الحكومة. إنما مثل ذلك الظن كمثل أن يجمع أحد الخشب لبناء البيت ويصنع الشبابيك والأبواب ويجمع أكواما من الطوب والكلس وغيرها من المواد، وحين يسأل متى يُبنى هذا البناء وما هو تصميمه فيقول: لا علم لي بذلك. من البديهي أنه لما جمَع مواد البناء من إسمنت وكلس ولبن وطوب وغيرها وصنَع الأبواب والشبابيك، فلم

يفعل ذلك كله إلا لبناء البيت، وليس لتبقى هذه المواد من دون فائـــدة وتذهب سدًى. كذلك ما دام القرآن الكريم قد ذكر كل الأمور المتعلقة بالحكومة فلا يقبل العقل ألا يكون قد أمر بإدارة نظام الحكومـــة، و لم يبين كيفية إدارته. وإذا كان القرآن الكريم لم يبين ذلك فلا بـــد مـــن الإقرار بأنه ناقص والعياذ بالله.

تعليمات الإسلام الجامعة حول جميع أقسام الحكومة

باختصار، ما دام الإسلام قد قدم تعليمات مفصلة حول شُعب الحُكم كلها، فلا يمكن لأحد أن يقول ما للدين ولهذا؟ فكل قوم وكل بلد حر في أن يختار لنفسه ما يشاء من نظام حكم ملائم له. لا شك أنه يحـــق للمرء القول بأن الشريعة الإسلامية قد تركته حرًّا في أمر معين، ولكـــن من غير المعقول أن يكون الإسلام قد بين حقوقا صغيرة، ولكنه أهمـــل تمامًا بيانَ أكبر حقّ وأهمّ سؤال، ألا وهو: ما هي حقـــوق الفـــرد إزاء الدولة، وكيف تنفّذ الدولة أحكام الله بين الأفراد؟ لو قلنا بهذا فلا بـــد من الاعتراف بنقصان هذا الدين، معاذ الله. الدين الذي يعتبر الـــشرع لعنة يمكنه أن يقول إن هذه الأمور ليست في نطاق سلطته، وإننا لـــن نصم هذا الدين بالنقصان إذا لم يعطِ أحكامًا واضحةً حول جميع شؤون الحياة الإنسانية. ومثل هذا الدين إذا لم يناقش العلاقة بين الله والعبـــاد مثلا، أو لم يبين كيف يجب أن تكون العلاقة بين الناس، أو لم يعطِ أية تعليمات حول شؤون الدولة والسياسة، فيمكنه أن يتخلص من السؤال

بسهولة، إذ يعُدّ الشرع لعنةً، ولكن الدين الذي يتدخل في مثل هـذه الشؤون ويقرّ بأن من حق الله تعالى أن يتدخل فيها، فإهماله لمثل هـذه القضية الحساسة البالغة الأهمية وتعريضه أرواحَ ملايين الناس للخطر لهو خطأٌ ونقصٌ من جانبه حتمًا.

تعليمات مفصلة عن تطبيق القانون الإسلامي

بعد هذا التمهيد أتناول الآن السؤال الأساسي. لقد بُعث رسول الله ﷺ بين العرب الذين لم يكن عندهم أيّ دستور مكتوب، وإنما كانت تقاليدهم القبلية بمنـزلة القانون، فكل قبيلة كان لها قانون خاص مختلف عن قانون القبيلة الأخرى، فكانوا يحسمون خصوماتهم أو يعقدون معاهداتهم طبقًا لتقاليدهم القبلية. ولكن رسول الله ﷺ قدّم أمامهم شريعة سماوية، وقال: لقد فرض الله عليكم هذه التعاليم، فاعملوا بها، ثم جعَلهم يعملون بها. لو أن القرآن الذي هو صحيفة سماوية اكتفى ببيان أحكام الصوم والصلاة وبعض العقائد فحسب، ولو أن الرسول ﷺ كان قد بين أحكام السياسة والدولة من عنده، ثم أكره الناسَ على العمل بها، لقيل بأن العرب دمّروا مُلكهم بشنّ هجوم غاشم على المسلمين، فعادت بلادهم بلا نظام ولا قانون، فاضطر الرسول ﷺ لأن يسنّ القوانين ويجعل الناس يعملون بها حلًّا للأزمة وإنقاذًا للبلاد من الدمار، وأن هذه الجزئية من أعماله ليست دينا. ولكنا نجد في القرآن

الكريم أحكاما مفصلة بشأن القضايا المتعلقة بالحُكم أيضا، ولا نجد فيه هذه الأحكام فحسب، بل هناك أوامر لتنفيذها أيضا، فمثلا:

أولاً: قال الله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[6].. أي أيها المسلمون، خذوا ما يعطيكم محمد رسول الله، وامتنِعوا عما يمنعكم منه. وهذا يعني أن العمل بأحكام رسول الله ﷺ فرض على المسلمين في كل حال.

ثانيًا: قال الله تعالى ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[7]. كان البعض في زمن رسول الله ﷺ يثيرون هذا الاعتراض، بل لا يزال في هذا الزمن أيضا من يعترضون بأنه ليس للرسول ﷺ الحق- والعياذ بالله- في أن يحكم بين الناس في خصوماتهم، وأن يعطي أية تعليمات لتوطيد النظام. ولكننا نجد الله تعالى يعلن هنا بأننا نفنّد هذه الفكرة ونعلن على الملأ: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.. أي يا محمد رسول الله، إن هؤلاء لن يُعَدّوا مؤمنين ما لم يتخذوك حَكمًا في خصوماتهم، ثم يرضوا بقضائك عن طيب نفس.

لقد بين الله تعالى في هذه الآية أمرين في غاية الأهمية، الأول: لقد اعتبر رسولَه ﷺ القاضي الأخير، وقال إن حكمه نهائي لا يحق لأحد أن

[6] الحشر ٨

[7] النساء ٦٦

يستأنف عليه. ومنحُ حقّ الحكم النهائي للرسول ﷺ يبيّن أن الله تعالى قد أعطاه صلاحيات الحُكم.

والثاني: لقد تبين من هنا أيضا أن الله تعالى يعُدُّ التسليم بقرارات النبي ﷺ جزءا من الإيمان حيث قال: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾.. أي أنهم لن يُعَدّوا من المؤمنين ما لم يسلّموا بقراراتك. كأنه تعالى اعتبر هذا الأمر جزءًا من الدين كالصلاة والصوم والحج والزكاة. لنفترض أن بكرا وزيدا اختصما، فيقول أحدهما إن لي على الآخر عشرة روبيات، والآخر ينكر، فيأتيان رسولَ الله ﷺ ويرفعان خصومتهما إليه، فيحكم بحق أحدهما، فإن لم يرضَ الآخر بقراره ﷺ فإن الله تعالى يعلن أنه لم يعدْ مؤمنا. فمع أنه يصلّي ويصوم ويحجّ، إلا أنه إذا رفض قرار الرسول ﷺ في هذا المجال فإن الله تعالى يحكم بأنه لم يعدْ مؤمنا نتيجة رفضه لقرار رسول الله. فقوله تعالى ﴿لا يُؤْمِنُون﴾ يبين أنه تعالى يعدّ هذه الجزئية أيضا من الدين وليست منفصلة عنه.

ثالثا: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[8]. لقد ربط الله تعالى هنا الإيمان بالتسليم بقرار الرسول ﷺ من ناحية، ومن ناحية أخرى أعلن أن الذين يقولون ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ عند صدور قرار الرسول ولا يخالفونه ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، مما يدل

[8] النور ٥٢

على أن الله تعالى يتصرّف تصرفًا خاصا فيما يتعلق بأحكام رسوله وقراراته، فإن لم يعمل بها أحد نزل عليه عذاب الله، وأصبح من الخائبين الخاسرين. ولكن لا يحدث هكذا في شؤون الدنيا عموما، وإنما تترتب عليها النتائج الطبيعية فقط.

رابعا: قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٩].. أي أن الذين يتبعون هذا الذي هو رسول الله ونبيٌّ أمّيٌّ جاءت نبوءات عديدة في التوراة والإنجيل عن ظهوره، فإنهم يعلمون أنه يأمرهم بالصالحات دائما وينهاهم عن المنكرات.

وهذا يعني أن رسول الله ﷺ يسنّ القوانين للناس، ويقول: افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا، وكذلك ﴿يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾؛ مما يعني أنه يعطيهم تعليمات ملائمة بشأن أفعالهم وأقوالهم وأكلهم وشربهم، ويقول: كلوا هذا ولا تأكلوا كذا، ودعوا هذا ولا تدعوا هذا. وكذلك يضع عنهم أعباءهم التي لا يطيقون حملها، ويفكّ عنهم أطواقهم التي تعيق سبل رقيهم، فالذين يؤمنون بهذا الرسول

[9] الأعراف ١٥٨

ويوقّرون أحكامه وينصرونه ويؤيدونه ويتبعون النور الذي نزل بواسطته فأولئك هم الفائزون في الدنيا والآخرة.

فترون أن الحكومات أيضا تسنّ مثل هذه القوانين نفسها دوما، وتقول: اعملوا كذا ولا تعملوا كذا، بينما يعلن القرآن هنا أن هذا الخيار الخاص بالحكومات قد منحناه محمدًا رسول الله ﷺ، فالذين يتبعونه سيفلحون، والذين لا يطيعونه سيفشلون.

خامسا: قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[10].

لقد بين الله تعالى هنا كيف ستكون حكومة محمد ﷺ، هل ستكون على شاكلة حكومة ملوك الدنيا، أم بشكل آخر. يقول الله تعالى إن رسول الله موجود بين ظهرانيكم، ولو قبِل معظم اقتراحاتكم وآرائكم لوقعتم في المصائب، ولكن الله تعالى قد خلق في قلوبكم الإيمان وتدركون أهمية الإيمان وقدره جيدا وتعلمون مدى نفعه وبركته لكم، وتدركون أن في ضياعه دماركم. لقد جعل الله الإيمان جميلا في قلوبكم، وجعل الكفر والفسق والعصيان والخروج عن الطاعة مكروها في أعينكم، فيجب أن تدركوا جيدا أن رسولنا مخيَّر في أن يعمل بمشورتكم أو يردّها إن شاء. ومن أدرك ذلك فأولئك هم المهتدون.

[10] الحجرات ٨

طريقة حكم رسول الله ﷺ

لقد بيّن الله تعالى في هذه الآية طريقة حكم رسول الله ﷺ، وهي أنه لا يقبل مشورتكم في كل شيء. كان ذكر هذا الأمر ضروريا إذ قد يقول البعض بأن محمدا ﷺ كان يقرّر ما يقرّره القوم، فكما أن برلمانات الدول تصدر القرارات بحسب أصوات ممثلي الشعب، كذلك كان ﷺ يصدر قراره وفق قرار أهل بلده، ولم يكن ينفّذ قانونه هو، فأزال الله تعالى هذه الشبهة واللبس في هذه الآية، وخاطب القوم بنفسه وقال إن رسولنا لو قبِل معظم آرائكم واقتراحاتكم التي تقدموها بأكثريتكم لتعرضتم للمصائب. وهذا يعني أن طريقة حكم رسول الله ﷺ ليست أن يصدر القرار بحسب قرار الأغلبية، بل إذا وجد رأيهم نافعًا ومفيدا حكَم بحسبه، وإذا وجد رأيهم ضارا حكَم بخلافه. فإن كلمات ﴿كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ﴾ تكشف أنه ليس ضروريا أن يقبل رسول الله ﷺ كل رأي، بل هو مخير في رفض رأي القوم إذا وجد فيه عيبًا، ويصدر القرار من عند نفسه.

سادسا: يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾[11].. أي يا محمد، خُذْ من أموالهم صدقةً وطهِّرْ بذلك قلوبهم وأصلح حالتهم الاقتصادية. ثم قال ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾، أي عاملْهم برفق دائما.

[11] التوبة ١٠٣

لقد آتى الله تعالى رسوله هنا ثلاثة أحكام، أوّلها أن يأخذ الزكاة من الناس، فهذا سيولد في قلوبهم حب الفقراء والإحسان إليهم. والثاني أن ينفق أموال الزكاة بما ينهض بالفقراء ويجعلهم يسيرون قدما في أمور الدنيا. والثالث ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِم﴾، ونهاه بذلك عن القسوة في أخذ الزكاة، وأمره بالرفق في العمل بهذا الحكم دوما. ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا أرسل جابي الزكاة أوصاه دومًا بألّا يختار أفضل كباش القوم وجِمالهم، بل يأخذ منهم ما يعطونه عن طيب خاطر من زكاة، من دون أن يتمنى أن يعطوا أفضلها وأجودها. وكأنه ﷺ كان يأمره بأقصى ما يمكن من رفق شرعًا وقانونًا عند أخذ الزكاة.

سابعا: والآية السابعة التي تذكر أمورا عن الحُكم هي قول الله تعالى ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[12].. أي أن الذين لم يوفّقوا، نتيجةَ غضب الله عليهم، للخروج مع رسول الله ﷺ من أجل القتال، فرِحوا بقعودهم وراءه ﷺ، واستاءوا جدا من أن يضحّوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وقال بعضهم لبعض إننا في فصل الحر الشديد والخروج فيه للقتال يعني إلقاء النفس في التهلكة. فأجابهم الله تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾،

[12] التوبة ٨١

أي قل لهم يا محمد: تتخلفون عن الجهاد بحجة الحر الشديد، فاعلموا أنّ حرارة نار جهنم أشد منه جدا، ليتكم تدركون ذلك.

لقد أمر الله تعالى رسوله هنا صراحة بالجهاد، وأن يتجند المسلمون ويحاربوا العدوّ، وأن الذين لا يخرجون للحرب طاعةً لأمرك سيكونون عند الله من المجرمين.

ثامنا: قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.[13]

الأمر بإخراج الكفار المعتدين ناقضي العهود من الجزيرة

تاسعا: كذلك قد أمر الله تعالى في أوائل آيات سورة التوبة بإخراج الكفار من الجزيرة العربية، فقال: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ

[13] المائدة ٣٤

شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٤].. أي يا محمد، أعلنْ بين هؤلاء القوم أنّ النبوءات التي تنبأ بها الله ورسوله عن خزيكم قد تحققت، و لم تبق لكم حجة على الله ورسوله، فاذهبوا وسيروا في الجزيرة العربية كلها أربعة أشهر، لتروا هل بقي لكم حكمٌ في أي بقعة فيها، وستعلمون يقينا أنكم لن تهزموا الله أبدا، وأن الله هو الذي قد أخزاكم. كذلك أعلِنْ بين الناس يوم الحج الأكبر أن الله ورسوله قد ثبتتْ براءتهما من مطاعن المشركين كلها، وقد زالت جميع اعتراضاتكم وانتهت، فإن تابوا فهو خير لهم، وإن لم ينتهوا فاعلمْ أن أية حكومة باقية في أي بقعة صغيرة في الجزيرة العربية فسوف تُدمَّر أيضا. إلا أننا نستثني هنا أولئك المشركين الذين عاهدوكم، شريطة ألا يكونوا قد نقضوا عهدهم بشكل من الأشكال و لم ينصروا عليكم عدوكم بأية صورة، فحافِظوا على عهدكم معهم، لأن الله تعالى يحب المتقين. أما غيرهم من المشركين فأعلنْ بينهم أن يخرجوا من الجزيرة العربية خلال أربعة أشهر من اليوم، وإن لم يخرجوا وبقوا فيها، فلأنهم لم يطيعوا أوامر الحكومة، فإننا نأمركم أن تقتلوهم بعدها حيثما وجدتموهم، وأن

[14] التوبة ١-٥

تأسروهم وتتربصوا بهم في كل مكان، أما إذا أسلموا وصلّوا وزكّوا، فخلُّوا سبيلهم، لأن الله غفور رحيم.

ما هي الحكومة يا ترى؟ الحكومة لا تعني أن يجعل الزوج زوجتَه تطيعه، أو أن تجعل الزوجة زوجها يطيعها، بل للحكومة نطاق خاص، وليس أن كل من يأمر غيره بأمر يصبح مِلكًا. هناك طريفة بالإنجليزية أن ولدًا سأل أباه وقال: يا أبتاه، مَن هو الملِك؟ قال: الملِك من لا يقدر أحد على رفض أوامره. فقال الولد: إذن، فأمي ملِكة. يبدو أن الرجل كان مطيعًا لزوجته المتسلطة، فلذلك قال الولد: إذا كان هذا هو تعريف الملِك، فهو ينطبق على أمي.

شروط ضرورية للحكم

باختصار، إن للحكومة نطاقا خاصا، وإذا سلّمنا بحكومة فلا بد من توافر شروط معينة فيها، وفيما يلي بعضها:

١: لا بد للدولة من حدود لكيانها، أي أن يكون للنظام حدود جغرافية، فيقال بأن هذا النظام له سلطة ونفوذ من هنا إلى هناك. فحدود الدولة شرط لا بد منه للحكومة.

٢: تتمتع الدولة بحق وضع قيود على مواطنيها فيما يتعلق بأموالهم ونفوسهم وحريتهم في الإقامة. فمثلا، من صلاحيات الدولة أن تسجن أحدًا، أو تنفيه من البلاد، أو تجبره على دفع مالٍ، أو تفرض على حريته

حظرا، ويحقّ لها مثلاً أن تأمر الشباب كلهم بالتجنيد في الجيش، أو إذا كانت بحاجة إلى متطوعين فلها أن تدعو أي واحد من المواطنين.

٣: يحق للدولة فرض الضرائب وجبايتها. كذلك يحق لها إبرام المعاهدات مع البلاد التي تمتلك مثل هذه الصلاحيات. كما يحق لها فرض قيود على الوافدين والمسافرين للخارج، وأن تسن القوانين للتجارة والأمور المالية، ولديها سلطات قضائية. وكل هذه الأمور تخصّ الدولة، وهي مخيرة في إنجازها كيفما تشاء، وبالأخص إنّ وجود حدود للدولة أمر ضروري جدًّا، إذ بحسبها تقرر بأنّ أوامرها تغطي منطقة من كذا إلى كذا، وعلى المواطنين العمل بها، وإذا دخل الأجانب في حدود هذه الدولة فعليهم الامتثال لهذه الأوامر أيضا، ومن خرج من هذه الحدود فيكون حرًّا إلى حدٍّ ما في العمل بتلك القوانين والأوامر.

باختصار، إن من عمل الدولة أن تأمر ببعض الأمور وتنهى عن بعضها، وأن تفرض عند الحاجة القيود على حرية الأفراد فيما يتعلق بأموالهم ونفوسهم وسكنهم، وأن تأخذ منهم الضرائب، وتدعوهم للتعبئة في الجيش، وأن تبرم المعاهدات وتقوم بأعمال القضاء.

هلمّوا نَرَ الآن هل أُعطي الرسول ﷺ كل هذه الصلاحيات أم لا؟

الأمر الأول هو تحديد حدود البلاد، ومن الواضح الجلي أن الرسول ﷺ قد مُنح هذه الصلاحية، إذ أعلن أنه لا يجوز لأحد سوى المسلمين أن يعيش داخل تلك الحدود، وإذا دخلها أحد من غيرهم فسوف يُطرد

منها، ومن ناحية أخرى أعلن أن الذين يعيشون داخلها عليهم مراعاة شروط معينة. كما خيَّر الله رسوله بإبرام المعاهدات مع الآخرين، ومنحه حق إلغاء أية معاهدة إن ارتأى ذلك نظرًا للظروف. كما أعطاه حق فرض الضرائب وفرض القيود عند الحاجة على حرية الناس فيما يتعلق بأموالهم ونفوسهم وسكنهم. فكل الحقوق التي تتمتع بها الدولة قد منحها الله رسولَه ﷺ. فمثلا مِن حق الدولة إصدار الأوامر، وقد منح الله تعالى رسوله هذا الحقّ، ومِن عمل الدولة أن تنهى عن أمور معينة، وقد منح الله رسوله هذا الحق أيضا، ومن حق الدولة تقييد حرية الأفراد في أموالهم وأنفسهم وسكنهم تحت ظروف خاصة، ومنح الله رسولَه هذا الحق أيضا وقال له: يمكنك أخذ أموالهم وجباية الضرائب منهم ومطالبتهم بتقديم نفوسهم للجهاد والخروج بهم للحرب. كما منحه الله تعالى حق طرد بعض الناس من البلاد. ثم مِن عمل الدولة القضاء، وقد منح الإسلام الرسولَ هذا الحقّ، حيث اعتبر الله تعالى قراره ﷺ هو القرار النهائي.

ثم بين الله تعالى نوعية حكومة رسول الله ﷺ؛ فأخبر أنه ليس ملزَمًا بأن يقبل كل ما تقولون، بل أنتم ملزَمون بطاعته في كل ما يقول، إذ لو عمل بكل ما تقولون لأدى ذلك إلى عواقب وخيمة.

لقد ثبت من هذه الآيات كلها أن إدارة الرسول ﷺ أمورَ الدولة لم تكن نتيجة ضرورة مؤقتة، بل كانت جزءًا من الشريعة، فكما أن

الصلاة والصوم وغيرها من الأحكام جزء من الدين، كذلك فإن أعمال النبي ﷺ وطريقته في إدارة نظام الدولة جزء من الدين، ولا يمكن أن يسمى أمرًا عابرًا آنيًّا.

هل الأحكام المتعلقة بالنظام تخصّ شخص النبي ﷺ وحدَه؟

يقول منكرو الخلافة بأن الإسلام لم يقدّم نظامًا معينا.

لو كان الأمر كما يقولون فلا بد من القول بأنّ أعمال الرسول ﷺ المتعلقة بإرساء النظام ليست ذات صبغة دينية، إنما قام بها نتيجة حاجة عابرة. هذا الاعتراض قد فطِن له العالم المصري علي عبد الرزاق أيضا، فهو إنسان ذكيّ أدرك أن الناس سوف يعترضون بأنه ما دام القرآن الكريم قد سجل أحكاما تتعلق بالحُكم والنظام، فكيف يقال بأن النبي ﷺ قد قام بهذه الأعمال نتيجة حاجة عابرة، وأن الإسلام لم يقدِّم نظاما خاصا للحُكم. فحاول هذا العالم رفع هذا الإشكال وقال: إن حكومة الرسول ﷺ كانت حكومةَ رسالةٍ ومحبةٍ، لا حكومةَ ملوكيةٍ، ولا شك أنه ﷺ قد أصدر شتى الأحكام والأوامر، ولكنه أصدرها بصفته رسولًا لا رئيسًا لحكومة، فلا يمكن أن تنتقل هذه الصلاحيات إلى غيره، ولأنه ﷺ قد أصدر تلك الأحكام بصفته رسولاً فقد انتهت تلك الصلاحيات مع وفاته. يقول هذا العالِم إثباتًا بأن كل هذه الصلاحيات كانت مخصوصة بالرسول ﷺ: كان الناس يحبّون الرسول ﷺ حبًّا خارقا، فكان كل منهم يطيعه فيما يأمره به. كان الصحابة يحبونه لدرجة العشق،

ويفدونه بأرواحهم في سبيل الامتثال لكل أمر من أوامره، فأطاعوه في كل ما أمرهم به، وكانوا مضطرين لذلك لحبهم له، فإن العاشق يطيع معشوقه في كل شيء، ولكن هذا لا يعني أن أحكامه صارت موجبة للعمل بها للأبد، بل كانت مخصوصة به فقط، وإذا توفي انتهى العمل بها أيضا.

حبُّ الأتباع للنبي حبّ خارق

والدليل الذي يقدمه "علي عبد الرزاق" صحيح من حيث إن أتباع كل نبي يحبونه بالفعل حبًّا خارقا، فقد رأينا بأم أعيننا أن آلافًا من جماعتنا إذا رأوا المسيح الموعود عليه السلام يفعل فعلاً فعلوا مثله. فذات مرة قيل له إنّ بعض أتباعكم يحلقون اللحى، وهو تصرف غير محمود، فقال عليه السلام: عندما يتولد في قلوبهم حبّي الكامل فسوف يُعفون لحاهم مثلي، ولن يكونوا بحاجة إلى أي وعظ أو نصح مني. فلا شك أن بين النبي وأتباعه علاقةَ حبّ لا يوجد لها نظير في علائق الدنيا كلها، بل الحق أن البعض يقلده من فرط حبه تقليدًا غير معقول في بادئ النظر، فمثلا كان الصحابي عبد الله بن عمر رضي الله عنه كلما خرج للحجّ مال في الطريق إلى مكان معين ليبول هنالك، ولما تكرر منه ذلك، سُئل: لماذا تذهب إلى هذا المكان بالذات للتبول؟ قال: لقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يبول هنا مرةً، فلذلك كلما مررت من هنا أتذكر النبي صلى الله عليه وسلم، فأذهب وأبول هناك. فثبت أن الإنسان من شدة حبه يقلد محبوبه في بعض الأحيان تقليدا غير

معقول فيما يبدو. فنحن نسلِّم بما يقوله هذا العالم بأن الصحابة كـــانوا يحبون الرسول ﷺ حبًّا خارقًا، فلذلك كانوا يطيعونه في كل ما يأمرهم به، ولكنا لا نناقش هنا ما إذا كانوا يطيعونه حبًّا أو نتيجة ضغط مـــا، وإنما السؤال هل منح الإسلام النبي ﷺ أيَّ سلطة على البلاد والنفوس أم لا؟ وهل آتاه أيّ حقٍّ على الكافرين أم لا؟ لو اكتفى القـــرآن بـــذكر الأحكام فقط دون أن يذكر أي عقوبة على من يخالفها، فيصح القول بأن الرسول ﷺ أعطى الصحابةَ الأوامر فقبِلوها بسبب حبهم الخارق له ﷺ، ولكننا نجد أن القرآن الكريم قد فرض عقوبات على من لا يطيـــع النبي ﷺ فيما يأمره به، وقال للقوم: إذا ارتكبتم جريمة كذا فعقـــوبتكم كذا، وإذا فعلتم كذا فعقابكم كذا. فثبت أن مبدأ الحبّ ليس صحيحًا كليةً، لأنّ من يخالف الأوامر التي طاعتها منوطة بالحب فقط لا يعاقَب.

ثم إن الإسلام لم يعطِ بعض الأحكام والأوامر فقط، بل بـــيّن نظـــام الحُكم مفصّلا، وإنْ لم يذكر تفاصيل بعض الأمور، تاركًا باب الاجتهاد مفتوحًا للناس، مخافة أن تتضرر قواهم العقلية والفكرية. فقـــد اجتهـــد سيدنا أبو بكر في بعض القضايا، وبيَّن موقف الإسلام الحقيقي بشأنها، وفي بعضها الأخرى اجتهد عمر وعثمان وعلي رضـــوان الله علـــيهم أجمعين، وأرشدوا الناس فيما استجدَّ عليهم من قضايا، بل لا تزال هناك بعض القضايا التي يُعمِل الناس فيها فكرهم واجتهادهم.

مسألة الخيار عند البلوغ

فمثلا هناك سؤال: إذا زوّج الأب بنْتَه القاصر، فهل يحق لها فسخ زواجها عند البلوغ أم لا؟ وهذا السؤال يثار من حين لآخر، وتذكُر كتب الفقه القديمة أنه إذا زوَّج الوالد بنتَه فهي لا تتمتع بخيار فسخ زواجها عند بلوغها، ولكنني قد قررتُ أنها تتمتع بهذا الخيار ويحق لها أن ترفض هذا الزواج عند البلوغ إن شاءت.

وهناك مسائل فقهية كثيرة أخرى ظلت تُقدَّمُ حلولها على ضوء تعاليم الإسلام على مرّ العصور، وسوف تظهر مثل هذه المسائل مستقبلا أيضا.

فنحن لسنا هنا في معرض مناقشة تفاصيل الأحكام، ولا لنناقش ما إذا كان الإسلام قد منح الرسول ﷺ حكومة معينة أم لا، ذلك أن نُظُم الحُكم يختلف بعضها من بعض، فنظام الحُكم في إنجلترا يختلف عما هو عليه في أمريكا، وهو يختلف عما هو عليه في روسيا، وهو بدوره يختلف عن نظام الحكم في ألمانيا، ولكن هذا الاختلاف لا يعني أن نسمي بعض هذه النظم حكومةً ولا نسمي بعضها حكومة. الحكومة تعني إقرار نظام خاصّ وتسليم زمام أمور الناس في يد شخص أو جماعة، وتطبيق هذا النظام في داخل حدود الدولة. فعلينا أن نرى هل يأمر الإسلام بإرساء نظام ما، مهما كان مختلفا عن النظم الأخرى، وهل كان الرسول ﷺ يدير هذا النظام أم لا.

الإسلام يقدم نظامًا للحُكم

لا شك أن الإسلام لا يقول بالمَلَكية، لأن لها مفهوما خاصا لا يرضى به الإسلام، فقد قال الرسول ﷺ عن نفسه: إني لستُ ملِكًا، كما لم يستخدم كلمةَ الملوك بحق خلفائه من بعده، ولكن هذا لا يعني أن الإسلام كدين لا يقول بأي نظام حُكم. لو ثبت من القرآن الكريم والإسلام نظام ما فسوف نقول: لا شك أن الإسلام يعارض الملكية، ولكنه يقيم مكانها نظاما خاصا، وهذا النظام جزء من دين الإسلام، ولأنه جزء من الدين فلا بد للمسلمين من إقامته قدر المستطاع. الواقع أن الحكومة اسم لتحديد حدود البلاد وتوطيد السلطة فيها، وليست اسما لنظام معيَّن. وتحديد حدود الدولة وتنفيذ السلطة فيها ثابت من القرآن الكريم، كما هو واضح من الآيات التي سجّلتها آنفا. فإذا ثبتت حدودُ البلاد وتطبيقُ قانون خاص فيها، ووجودُ مواطنين فيها، ومعاهَدين وأجانب، فقد ثبت نظام حُكم معين أيضا. نحن لا نسميه ملكيةً، لأن المَلَكية لها مفهوم خاص يخالفه الإسلام، إلا أنّ نظام الحُكم والقانون ثابت في الإسلام في كل حال، وهذا ما نريد إثباته، ومن أجل إرساء هذا النظام نرى الخلافة ضرورية. فثبت أن الخلافة نظام إسلاميّ وليس نتيجة ضرورة عابرة.

إنني أقرّ بأن إنكار الخلافة يؤدي إلى نفس النظرية المنطقية التي يقول بها علي بن عبد الرزاق، وهو يؤدي في آخر المطاف إلى رفض النظام

الذي أقامه الرسول ﷺ بنفسه. والذين ينكـــرون الخلافـــة مـــن دون الاعتراف بهذه النظرية المنطقية فإما أنهم أغبياء أو أنهم يريدون ذرّ الرماد في أعين الناس.

وما دام قد ثبت من القرآن الكريم أن الإسلام يعتبر أمـــور الدولـــة ونظام الشعب جزءًا من الدين، وما دام قيام النبي ﷺ بهذه الأمور يجعلها جزءا من الدين، فلا مناص من القول أن هديه وإرشـــاده ﷺ في هـــذه الأمور سنّةٌ تستوجب العمل بها كما نعمل بسنته في الصلاة والـــصوم وغيرها من الأحكام، ويستحيل أن يطالب أحد بالتحرر من قبول هذه الأمور إلا إذا طالب بالتحرر من الإسلام نفسه. وإذا ثبت ذلك فقـــد ثبت أيضا أن أحكام الصلاة والصوم كما لم تُلْغَ بوفـــاة الرســـول ﷺ، كذلك فإن الأحكام المتعلقة بنظام البلد لم تُلْغَ بوفاتـــه ﷺ؛ ذلـــك أن الصلاة والصوم كما هي ضرورية للرقيّ الروحاني للفرد، كذلك لا بد من تطبيق أحكام النوع الآخر لرقي الأمة، وكما أنه لا مناص من أداء الصلاة بالجماعة، التي هي عبادة جماعية، بعد النبي ﷺ بواسطة نوابـــه، كذلك لا بد بعد النبي ﷺ من العمل بتلك الأحكام التي هي من نـــوع آخر عن طريق نوابه. وكما أن الأحكام التي أمرنا الله بها بصدد الصلاة والصوم وغيرهما لا تعني ألا نصلي ولا نصوم بعد وفـــاة الرســـول ﷺ، كذلك فإن الأحكام التي قدّمها الإسلام بشأن النظام لا تعني أنهـــا لـــن تبقى قابلة للعمل بها بعد وفاته ﷺ، بل كما أنّه لا بد من إمام عند وفاة

إمام من أجل الصلاة، كذلك يجب العمل بالأحكام المتعلقة بالنظام بواسطة نواب الرسول ﷺ دائما.

سبب تمرد القبائل العربية

وأرى أن الخدعة بأن أحكام الرسول ﷺ المتعلقة بالنظام كانت مخصوصة به ﷺ وحده هي التي دفعت بالقبائل العربية إلى التمرد بعد وفاته، حيث رفضوا أداء الزكاة بحجة أن الله تعالى لم يمنح أحدًا حقَّ أخذ الزكاة سوى الرسول ﷺ، حيث قال له: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾[15]، أي يا محمد، خُذْ بعض أموالهم زكاةً، ولم يُذكَر في أي مكان أنّه يحق لأحد بعد وفاة النبي ﷺ أخذ الزكاة. ولكن المسلمين رفضوا حجتهم هذه، مع أنّ الله تعالى قد وجه الخطاب في الآية إلى رسوله ﷺ خاصةً. على أية حال، كانت أكبر حجة عند المرتدين أنه لا يحق لأحد سوى النبي ﷺ أخذ الزكاة، ولم يكن سببها إلا انخداعهم بأنّ الأحكام المتعلقة بالنظام ليست قابلة للعمل بها دوما، بل كانت مخصوصة بالنبي ﷺ فقط. ولكني قد أثبت بطلان هذه الفكرة آنفا، إذ الحقّ أنّ أحكام الصلاة والصوم كما لم تُلْغَ بعد وفاة الرسول ﷺ، كذلك فإن الأحكام المتعلقة بإدارة أمور الأمة ونظام الحُكم لم تُلْغَ بوفاته، بل يجب العمل بها دومًا بين المسلمين بواسطة نواب الرسول ﷺ، كما يتم العمل بحكم الصلاة جماعةً والتي هي عبادة جماعية.

---

[15] التوبة ١٠٣

تفاصيل مسألة الخلافة

بعد هذا النقاش الأساسي أتوجه الآن إلى تفاصيل قضية الخلافة. ليكنْ معلوما أن النبي يكون له اتصال شديد بالله حتى ينخدع به البعض فيظنونه إلهًا، كما انخدع المسيحيون. ولكن الذين لم يصابوا بهذا العثار وعدّوا النبي بشرًا فإنهم لا يمكن أن يتصوروا أنه سيُتوفى، لما له من اتصال شديد بالله تعالى، ولأنهم يرون في شخصه آيات الله. وليس سبب ذلك أنهم لا يعدّونه نبيا، بل إن حبهم الشديد له يجعلهم يظنون أنهم سيتوفَون قبله، وأن الله تعالى سيمدّ في عمره أحقابا. ولم يأتِ نبي حتى اليوم ظنَّ أتباعُه في حياته أنه سيُتوفى وأنهم سيظلون أحياء، بل كل واحد منهم، ما عدا حديثي العهد أو ضعيفي الإيمان منهم، ظنّ أن النبي سيبقى حيا وهو سيموت قبله، ولذلك لم يكن أتباعُ أي نبيّ يناقشون الأمور التي سوف تواجه الأمةَ بعد وفاته. يفكر الناس عادة أنه لو توفي فلان فماذا يحدث بعده، ولكن أتباع النبي لا يفكرون في حياته فيما يحدث بعد وفاته، وليس سبب ذلك إلا ما قد ذكرتُ آنفا، وهو شدة حبهم له.

تجربة شخصية

وهذه تجربتنا الشخصية أيضا، فلم يكن يخطر ببال أحد منا أبدًا، إلا الذي فسد قلبه أو أصيب بعيب في إيمانه، أن المسيح الموعود ﷺ

سوف يتوفى، وأننا سنعيش بعده. كلا، بل كنا كلنا صغارا وكبارا، أطفالا وشيوخا، رجالا ونساء، نظنّ أننا سنتوفى قبله وأنه سيعيش بعدنا. فشدة حبّ الأتباع للنبيّ، ثم عظيم علاقة النبي بالله تعالى تجعلهم يظنون أن الله تعالى سوف يمدّ في عمره طويلا. يمكن ألا يكون أحد منهم قد فكر أن النبيّ سيظل خالدا ولن يموت، ولكنه كان يفكر حتمًا أنهم سيموتون قبل النبي وأن النبي سيعيش بعدهم في الدنيا. فقد رأينا أن بعض الشباب البالغين عشرين سنة فقط كانوا يحضرون المسيح الموعود عليه السلام ويتوسلون إليه بتواضع جم أن يصلي عليهم الجنازة بعد وفاتهم، وكنا نستغرب ونقول: إن هذا الفتى لا يزال في عنفوان شبابه، والمسيح الموعود عليه السلام قد تجاوز السبعين، ثم إنه يمرض كثيرا، ومع ذلك يتوسل إليه هذا أن يصلي عليه عندما يموت. فهذا يؤكد أنهم كانوا موقنين بأن حضرته عليه السلام سيعيش طويلا وأنهم سيموتون في حياته، ومن أجل ذلك لما توفي المسيح الموعود عليه السلام خطر ببال مئات من الأحمديين مرارا حتى بعد مرور أسبوعين على وفاته أنه لم يُتوَفَّ بعد، وكنت واحدًا منهم. ففي اليوم الثالث من وفاته عليه السلام خرجتُ مع أحد الإخوة للنزهة، وذهبنا إلى الجهة التي فيها حيّ "دار الأنوار" الآن، وكان هناك اعتراض صار حديث الناس في تلك الأيام، فكانوا يظنّون أنه اعتراض هام جدا، وبدأت في الطريق أفكر في الاعتراض في صمت تامّ، وفجأةً اهتديتُ إلى جواب رائع جدا، فلم

ألبث أن قلتُ بصوت عالٍ: ها قد وجدتُ الرد على هذا الاعتراض، وسوف أذكره للمسيح الموعود عليه السلام بعد العودة إلى البيت وسأقول له ها هو الرد على الطعن الذي يثيره الأعداء على وفاتكم، مع أنه عليه السلام كان قد توفي منذ ثلاثة أيام. فالذين قد ذاقوا طعم الحبّ البالغ درجة العشق يعلمون كيف كانت أفكارهم في حياة المسيح الموعود عليه السلام، وما هي المشاعر التي خالجت قلوبهم بعد وفاته! هكذا كانت حالة الصحابة الكرام رضي الله عنهم، فكانوا يحبون الرسول ﷺ حبًّا شديدا لا يضاهيه حبّ في صفحات التاريخ، ولذلك كان صعبًا عليهم جدا أن يتصوروا أنّ الرسول ﷺ سيتوفى وهم سيعيشون بعده. ليس لأنهم كانوا يؤلهونه، كلا، فقد كانوا يعُدّونه بشرًا، ولكنهم من فرط حبهم له يظنون أنه من المحال أن يتوفى في حياتهم. وما حدث عند وفاته ﷺ أوضح دليل على هذه الحقيقة.

حالة الصحابة عند وفاة النبيّ ﷺ

ورد في الحديث والتاريخ أنه لما شاع بين القوم خبر وفاة النبي ﷺ امتشق عمر رضي الله عنه حسامه وخرج وقال: هذه إشاعة أشاعها المنافقون، فإن الرسول ﷺ حي ولم يمت، وإنما صعد إلى السماء ليأتي ببعض الأحكام من عند الله تعالى ويرجع بعد قليل ويعاقب المنافقين. وقد أصرَّ على موقفه هذا إصرارًا حتى قال: مَن قال أمامي بأن رسول الله ﷺ قد توفي فسوف أضرب عنقه. ثم أخذ يمشي في المسجد ثائرًا وقد استلّ

حسامه. وأُعجب الناس بقوله هذا حتى لم ير أحد منهم حاجة لرفضه، مع أن القرآن الكريم كان قد قال عن النبي ﷺ صراحة: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[16].. ورغم وجود هذا النص الصريح في القرآن الكريم عن إمكانية وفاة الرسول ﷺ إلا أن الصحابة قد وقعوا في هذا العثار، حتى ظن بعضهم أنه ﷺ لم يُتوفَّ، وإنما هي كذبة أشاعها المنافقون. و لم يكن هذا إلا أهم لم يتصوروا من شدة حبهم إمكانية وفاة الرسول ﷺ وعيشهم بعده. ولكن بعض الصحابة ذوي الطبائع الهادئة لما رأوا ذلك خافوا تفاقم الأمر ووقوع ابتلاء، فسارعوا إلى أبي بكر وجاءوا به، ولما وصل إلى المسجد وجد كل شخص يهتف في ثورة حماس وفرحة إن المنافقين كاذبون، وأن رسول ﷺ لم يمت، بل هو حيّ. مما يعني أهم كانوا في حالة شبيهة بالجنون، وكما قلت آنفًا إنني أيضا كنتُ قلت في مثل هذه الحالة سوف أذهب إلى المسيح الموعود عليه السلام وأخبره بأنني قد وجدتُ الردّ على الاعتراض الذي يثيره الأعداء عن وفاته. لما رأى سيدنا أبو بكر رضي الله عنه الموقف دخل الحجرة التي فيها جثمان النبي ﷺ وسأل عائشة رضي الله عنها: كيف رسول الله ﷺ؟ قالت: قد توفي. فكشف عن وجهه ﷺ وقبّل جبينه وقال: لن يجمع الله عليك موتتين.. أي من المحال أن تموت وتموت أمتك أيضا منحرفة عن المعتقدات الحقة. ثم خرج وصعد المنبر ووعظ الناس، وأخبرهم أن

[16] آل عمران ١٤٥

رسول الله ﷺ قد توفي، وقرأ قول الله تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[١٧]، وقال بكل قوة: أيها الناس، مَن كان منكم يعبد محمدا فإن محمدا قد مـــات، ومَن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. كان عمر مستندًا إلى ســـيفه ينتظر نزول أبي بكر عن المنبر فيضرب عنقه بالسيف، لكنه لما سمع هذه الآية زالت الغشاوة عن عينيه وتخاذلت رجلاه وارتعشت يداه وســـرت في جسده رجفة وسقط على الأرض من شدة الضعف. ويقول بـــاقي الصحابة أيضا: كانت عيوننا في غطاء عن حقيقة الأمر، ولكننا لما سمعنا أبا بكر يقرأ هذه الآية زالت عنا الحُجُب، وأظلمت الدنيا في أعيننا. ثم خرج الصحابة إلى شوارع المدينة باكين ومرددين قول الله تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[١٨]. وإن شعر حسان رضي الله عنه في رثائه خير تعبير عن حالتهم:

كنتَ السواد لناظري فعَمِي عليك الناظرُ
مَن شاء بعدك فليمتْ فعليك كنتُ أحاذرُ [١٩]

---

[17] آل عمران ١٤٥

[18] سيرة ابن هشام، ج٦، تمريض رسول الله في بيت عائشة، شأن أبي بكر بعد وفاته ﷺ.

[19] ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، ص ٣٠٨، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٦

يستحيل التفكير في نيابة النبي في حياته

من السهل أن ندرك من حالة قلوب القوم وعقولهم في حياة النبيّ أن الله تعالى ورسوله لا يريدان إيذاءهم، فيذكُران هذا الموضوع الحساس، أعني ماذا سيحدث بالأمة بعد وفاة نبيها، بتلميحات وإشارات. كما أن الأمة أيضا لا تهتمّ بهذا الموضوع كثيرا، ولا تفكّر فيما يحدث بهم بعد النبيّ، فليس ثابتا أن أحدا من الصحابة سأل النبي ﷺ: يا رسول الله، ماذا يحدث بعد وفاتك؟ هل ستكون بعدك خلافة، أم برلمان أم مجلس لتولّي أمور المسلمين؟ ذلك أنها أمور لا يناقشها إلا قاسي القلب الذي يجهل تماما مدى ما في قلوب الأتباع من حبّ وتعظيم لنبيهم. إننا نجد في الأحاديث أن الصحابة كانوا يسألون النبي ﷺ عن مسائل أخرى كثيرة، بل كانوا ينقّبون عنها بإلحاح، ولكن ما كان لهم أن يسألوه عن أمر نيابته ﷺ، بل ما كان مثل هذا السؤال ليخطر ببالهم، إذ كانوا يظنون أنه سيعيش بعدهم خالدًا وأنهم سيموتون قبله. فقضية النيابة تظل وراء حُجُب الإخفاء إلى حدّ ما، ولا تنكشف في الحقيقة إلا عند وفاة النبيّ.

لقد توفي النبي ﷺ في مثل هذه الظروف، وكانت وفاته زلزلة عظيمة للصحابة، وبعد وفاته فكّروا أول مرة أنّ النبي يمكن أن يفارقهم، وتجلّت لعقولهم للمرة الأولى ضرورةُ نظام يكون موافقًا لسنة النبيّ ﷺ وطموحاته، فبدأوا التفكير في جزئياته. لا شك أن تفاصيل هذا النظام

كانت موجودة في القرآن الكريم ولكنها كانت خفية عن أعينهم، و لم ينقّبوا عنها قطّ، وكانوا يقرأون الآيات التي تتحدث عنه ولكنهم كانوا يفسرونها خلاف معناها الخاص، الذي يبين لهم ماذا عليهم فعلُه بعد وفاة نبيهم.

لكل نبي حياتانِ: شخصية وقومية

والحقّ أن وراءِ عاطفة الحبّ هذه حكمةً إلهية تعمل عملها، وبيانها أنّ لكل نبيّ حياتين: حياة شخصية وحياة قومية، ويبدأ الله تعالى كلتا الحياتين بالوحي. أما حياته الشخصية فتبدأ بالوحي من حيث إن الله تعالى يبدأ بإنزال وحيه عليه عند بلوغه ٣٠ أو ٤٠ سنة من عمره، ويقول له إنك مأمور، وأقيمك لإصلاح الناس وهدايتهم، فيرى النبي ببركة الوحي أفضالَ الله تنزل عليه نزولاً خارقا، فيجد في نفسه حياة جديدة وعظمة جديدة. وأما حياته القومية فتبدأ بالوحي من حيث إنه لا يقام بعد وفاته نظام أمته بحسب خطة مدروسة، إنما يحدث تغير مفاجئ ويوجه الله تعالى قلوب القوم بوحي خفيّ إلى هذا النظام.

حياته الشخصية هي القدرة الأولى، وحياته القومية هي القدرة الثانية

باختصار، كما أن حياة النبي الشخصية يبدؤها الله تعالى بالوحي كذلك فإن حياته القومية التي تبدأ بعد وفاته أيضا يبدؤها الله تعالى

بالوحي إتماما للمشابهة بينهما، ولذلك قد سماها المسيح الموعود عليه السلام بالقدرة الثانية. فكأن القدرة الأولى هي حياة النبي الشخصية، والقدرة الثانية هي حياته القومية. فلأن الله تعالى يبدأ حياته القومية بوحيه وقدرته، فإنه يخفي جزئياتها عن أعين أمته في حياته، وعندما يتوفى يوجه الله تعالى قلوب القوم بوحيه الخفيّ إلى تفاصيل حياته القومية. ويوجد في الإنجيل مثال لذلك، حيث ورد أن الحواريين اجتمعوا في مكان بعد وفاة المسيح الناصري عليه السلام، فنزل عليهم روح القدس، فبدأوا يتكلمون بلغات شتّى. ومع أنّ كَتبة الإنجيل قد قدَّموا هذه الواقعة بشكل مثير للضحك جدا، إلا أنها تدل حتما على أنه قد حصل بعد وفاة المسيح في الحواريين تغير مفاجئ لم يكونوا منتبهين له من قبل حتى اضطروا لأن ينسبوه إلى روح القدس.

باختصار، إن الله تعالى يبدأ حياة النبي القومية بوحيه وقدرته، كما يبدأ حياته الشخصية، لذلك تظلّ جزئيات حياته القومية خفية عن أعين القوم في حياته.

نظرة على قضية القرطاس

وأود هنا ذكر أمر طريف ألا وهو أنه يوجد بين الشيعة والسنة نزاع طويل الأمد، ويسمى "قضية القرطاس"، وبيانه أنه قد ورد في الحديث أن لما اشتد المرض برسول الله ﷺ قال لصحابته ائتوني بالقرطاس والقلم، لأكتب لكم ما لا تضلّون بعده أبدا. ويقول الشيعة أن الرسول ﷺ أراد

في الواقع أن يكتب أن عليًّا سيخلفه بعده، وأن على المسلمين أن يرضوا به إمامًا، ولكن عمر حال دون كتابة هذه الوصية، وقال للناس: دعوكم من هذا، فإن رسول الله في الوجع، ولا تزيدوا من كربه، فحسبُنا كتاب الله هدًى، وليس هنالك شيء أفضل منه. يقول الشيعة كان هذا كيدا من عمر، لأنه لم يرد أن يوصي الرسول ﷺ بأية وصية، وذلك لكي يحرم عليًّا الحُكمَ ويأخذه بيده. فلو أنه ترك النبي ﷺ يكتب هذه الوصية لكتبها بحق عليّ.

هناك عدة ردود على هذا الاعتراض أذكر منها اثنين فقط.

فأولاً: إذا كان رسول الله ﷺ يريد أن يوصي بخلافة عليّ رضي الله عنه، فلماذا لم يقل لعمر عند إنكاره: كلا، بل ائتوني بالقلم والدواة، لأني أريد أن أكتب لكم وصية هامة؟ كان من المفروض أن يعرف النبي ﷺ أن عمر يعادي عليًّا، ويسعى جاهدا لحرمانه أيَّ منفعة، وكان من المحتّم في هذه الحالة أن يقول الرسول ﷺ لعمر: ماذا تقول؟ لا شك أنني في كرب، ولكني لا أبالي به، فائتوني بالقلم والدواة بسرعة لكي أكتب لكم شيئا مهما. ولكن رسول الله ﷺ لم يأمر بإحضار القلم والدواة بعده، بل صمت عند قول عمر حسبُنا كتاب الله.[20] وهذا يوضح جليا أن رسول الله ﷺ كان في الحقيقة يريد أن يملي ما أشار إليه عمر، وحيث إنه قد عاهد أمام رسول الله ﷺ على العمل بكتاب الله دوما، فلم ير ﷺ حاجة

---

[20] مسلم، كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه.

إلى الإصرار على كتابة الوصية. فهذه الواقعة لا تبرئ عمر من أي تهمة فحسب، بل تدل على التوارد بين فكر الرسول ﷺ وفكر عمر رضي الله عنه.

والجواب الثاني الذي يمثل دليلا تاريخيا قويّا للردّ على مثل هذه الأفكار الشيعية التافهة، وهو أنه لا يصر على كتابة الوصية في مثل هذا الظرف إلا من يوقن بأن أجل المريض وشيك، وأنه إذا لم يجعله يكتب الوصية الآن فتفوت فرصة كتابتها للأبد، أما الذي يرى أن الله تعالى سوف يشفيه وأن مرضه مرض عادي وليس مرض الموت، فإنه لا يهتمّ بكتابة الوصية، ويرى ألا فائدة في إزعاج المريض وإيذائه في هذه الحالة. وعندما ننظر من هذا المنطلق إلى الأحداث التي واجهها الصحابة عند وفاة الرسول ﷺ نتوصل إلى أن عمر لم يفكر في أن الرسول ﷺ سيتوفى، دعك أن يفكّر في أخذ زمام الحكم في يده. وبالفعل نجد أن الرسول ﷺ لما توفي خلاف ما توقعه عمر، جعلته هذه الصدمة المفاجئة شبه مجنون، إذ لم يوقن قطّ بوفاته ﷺ. فالذي لم يوقن بوفاة الرسول ﷺ حتى بعد وقوعها فعلا وأحبه من أعماق قلبه حتى شهر حسامه، وأعلن بين الناس أنه سيضرب عنق من قال بوفاته ﷺ، فكيف يمكن أن يقال أنه أدرك أن موت رسول الله ﷺ وشيك، فخاف أن يكتب وصية بحقّ عليّ، فحال دون كتابتها متعمدا؟ بل يكشف التدبر أن روايات الشيعة هذه تمثل إساءة إلى عليّ رضي الله عنه، حيث كان يتوقع وفاة الرسول ﷺ، أما عمر رضي الله عنه فكان يرى من شدة حبه له أن مرضه عاديّ وسوف يعافى منه ولن

يتوفى الآن. فالفكرة الشيعية تعرّض عليا ﵁ للطعن، ولا تعرّض عمر لأي ملامة، بل تدلّ على صلاحه وتقواه وفضله.

يبدأ الله حياة نبيه القومية بالوحي

كنتُ بصدد بيان أن الله تعالى يبدأ بعد وفاة نبيه حياتَه القومية بالوحي والإلهام، ولذلك يستر في حياته الخلافةَ التي ستقوم بعد وفاته وتفاصيلها في حُجُب الخفاء. لقد توفي النبي ﷺ في ظروف مماثلة، حيث ظنّ بعض الصحابة أنه لم يتوفَّ حقيقة، لكنهم لما أدركوا أنه قد توفي فعلا، لم يدروا ماذا يفعلون بعده، وأيّ طريقة يتبعون لتكميل مهمة الرسول ﷺ، فبدأوا يمشون هنا وهناك قلقين مضطربين، وبعد قليل صاروا فئتين تحوّلتا إلى فئات ثلاث.

ثلاث فئات من الصحابة عند وفاة الرسول ﷺ

فكانت إحدى هذه الفئات ترى أنه لا بد من وجود شخص لإقامة نظام الإسلام، وحيث إن أهل الرسول ﷺ أدرى بمقاصده، فيجب أن يختار هذا الشخص منهم لا من أي عائلة أخرى. لقد فكّرتْ هذه الفئة أنه لو اختيرَ خليفة رسول الله ﷺ من عائلة أخرى فلن يطيعه الناس فيؤدي إلى فساد هذا النظام، ولكنهم معتادون على طاعة أهل بيته ﷺ لذا فسيرضون بخليفة من أهله عن طواعية، شأنه شأن ملك يعتاد الناس

طاعة أوامره، فإذا خلفه ابنه بعد وفاته رضوا بطاعته أيضا عـــن طيـــب خاطر.

أما الفئة الأخرى فكانت ترى أن شرط اختيار خليفة الرسول ﷺ من أهله ليس ضروريا، بل يجب أن يُختار من هو أكفـــأ النـــاس بخلافتـــه وأولاهم بهذه المهمة.

ثم هذه الفئة صارت فئتين، فمع اتفاقهما على ضرورة خليفة لرسول الله ﷺ، إلا أنهما اختلفتا في القوم الذين يُختار منهم. فكانت إحـــداهما ترى أن الذين قد تربّوا على يد الرسول ﷺ أطول فترة هم أحق بالأمر، أي المهاجرون، وبالأخص قريش منهم، إذ ستطيعهم العرب بـــسهولة. بينما رأت الفئة الأخرى أن الرسول ﷺ قد توفي في المدينة والأنـــصار هم ذوو قوة ونفوذ فيها، فهم أقدر الناس على إدارة الأمور.

الخلاف بين الأنصار والمهاجرين

فحصل خلاف بين الأنصار والمهاجرين، فكان الأنـــصار يـــرون أن الرسول ﷺ قد قضى بينهم حياته المتعلقة بالنظام، إذ لم يكن في مكة أي نظام إسلامي، فهم الأدرى بنظام الحكم، والأحق بالخلافة من غيرهم. وكانت حجتهم الأخرى أنّ هذه منطقتهم، ومن الطبيعي أن يطـــيعهم الناس أكثر من طاعتهم للمهاجرين، فيجب أن يكون خليفة رسول الله ﷺ منهم لا من المهاجرين. أما المهاجرون فقـــالوا لم يحـــظَ الأنـــصار بصحبة رسول الله ﷺ بقدر ما حظينا بها، فنحن الأكفأ بدراية الدين من

الأنصار. وبينما كان المهاجرون يفكرون كيف يزيلون هذا الخلاف و لم يتوصلوا إلى أي نتيجة، إذ اجتمع الأنصار في سـقيفة بـني سـاعدة للتشاور، ومالت قلوبهم إلى اختيار سعد بن عبادة، زعيم الخزرج وأحد النقباء، خليفةً، وقالوا إن البلد بلـدنا، والأرض أرضـنا، والعقـارات عقاراتنا، فالخير للإسلام أن يكون الخليفة منا، ورأوا أن لا أحـد أولى بهذا المنصب من سعد بن عبادة، فقال بعـضهم: مـاذا إن لم يـرض المهاجرون بهذا الرأي؟ فقال أحدهم: نقول لهم: "منـا أمـيرٌ ومـنكم أمير".[٢١] وكان سعد بن عبادة رجلا حكيما، فقال: هذا أول ضعفكم، لأن مقولة "منا أمير ومنكم أمير" تماثِل عدم فهم الخلافـة وإحـداث الفساد في الإسلام.

وبلغ المهاجرين خبرُ تشاور الأنصار، فسارعوا إلى مكان اجتماعهم، لإدراكهم أن العرب لن يطيعوا أي خليفة من غير المهاجرين، لا شـك أن الأنصار ذوو نفوذ وقوة في المدينة، ولكن سائر العـرب معترفـون بعظمة وشرف أهل مكة، فلو اختير الخليفة من بين الأنصار فـسوف يواجه العرب مشاكل كبيرة، وقد لا يتمكن معظمهم من تجاوز هـذا الابتلاء بخير. فحضر المهاجرون إلى سقيفة بني ساعدة، وكان من بينهم

[21] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مجلد١، حديث السقيفة وخلافة أبي بكر. والبخاري، كتاب المناقب، باب: قول النبي ﷺ: لو كنت متخذا خليلا.

أبو بكر وعمر وأبو عبيدة رضي الله عنهم. يقول عمر: كنتُ أعـــددت في نفسي لهذه المناسبة كلمة قوية جدا، وكنت أنوي أن ألقي بمجـــرد وصولي إلى المجلس خطابًا مؤثرا وسوف أقنع بقوة أدلتي جميع الأنـــصار باختيار خليفة من المهاجرين لا من الأنصار، ولكننا لما وصلنا إلى مكان الاجتماع قام أبو بكر خطيبا، فقلتُ في نفسي: ماذا عسى أن يقول هذا الرجل؟ ولكنه والله لم يترك شيئا مما أعددتُ، بل قدَّم من عنـــده أدلـــة إضافية قوية، فأدركتُ أني لن أستطيع أن أسبق أبا بكر.[٢٢]

باختصار، قال المهاجرون للأنصار: لا بد من أن يكون الأمير مـــن قريش الآن، واستدلّوا بحديث رسول الله ﷺ: "الأئمة مـــن قـــريش"[٢٣] وذكروا سبْقَهم في الدين وتضحياتهم في سبيل الإســـلام. فعارضـــهم حباب بن المنذر الخزرجي وقال: لن نرضى بخليفة من المهـــاجرين، وإذا كنتم مصرين على موقفكم فمنا أميرٌ ومنكم أمير.. أي يكون مـــنكم خليفة ومنا خليفة. فقال له عمر: على رِسْلك، يا رجل! ألا تعلـــم أن رسول الله ﷺ قال: لا يكون أميرانِ في وقت واحد؟[٢٤] فمطالبتكم بأمير منكم وأمير منا باطلة عقلا وشرعا.

---

[22] الكامل في التاريخ، والترمذي، ج٥، أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ

[23] مسند أحمد: ج٣، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه. والمستدرك: ج٤، تتمة كتاب: معرفة الصحابة، فمنها: ذكر فضائل قريش.

[24] كنـــز العمال: ج٥، الباب الأول في خلافة الخلفاء، خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، الحديث رقم ١٤٠٥٩

يتضح من هنا أنه كانت هناك أحاديث شرح فيها النبي ﷺ نظام الخلافة، ولكنها لم تتبادر إلى أذهان الصحابة في حياته ﷺ، لنفس الحكمة الإلهية التي أشرتُ إليها قبل ذلك.

انتخاب أبي بكر رضي الله عنه

بعد نقاش وجدال قام أبو عبيدة رضي الله عنه وقال: أيها الأنصار أنتم أوّل قوم آمنوا برسول الله ﷺ خارج مكة، فلا تكونوا أول قوم بعد وفاته ﷺ يبدلون مشيئة الدين. فتأثر القوم جدا من قوله حتى قام بشير بن سعد الخزرجي وقال لقومه: يا قوم، لقد صدق هؤلاء فيما قالوا، فإننا لم نخدم الرسول ﷺ و لم ننصره من أجل المكاسب المادية ولا من أجل الوصول إلى سدّة الحكم بعده، وإنما فعلناه لوجه الله، فليس النقاش عن حقّنا، وإنما النقاش عما يتطلب منا الإسلام، فيجب أن يكون الأمير من المهاجرين، فهم أطول صحبة برسول الله ﷺ. فعاد القوم إلى مداولة الرأي الذي استمرّ نصف ساعة أو ثلثيها، حتى مالت الآراء إلى اختيار خليفة من المهاجرين. فرشّح أبو بكر عمرَ وأبا عبيدة لهذا المنصب، وقال: يمكنكم أن تبايعوا أحدهما. ولكنهما رفضا ذلك وقالا: سنبايع مَن أمَره النبي ﷺ بأن يؤم الناس في الصلاة، والذي هو أفضل المهاجرين. فكان قصدهم أن أبا بكر هو أولى الناس بهذا المنصب. فبدأ الناس يبايعون أبا بكر، وكان أول مَن بايعه هو عمر ثم أبو عبيدة ثم بشير بن سعد الخزرجي، ثم بايعه قوم من الأوس ثم من الخزرج. وتحمس الناس

لبيعته حتى داسوا سعدًا الذي كان مريضا و لم يستطع أن يقف. فبـــايع الجميع في وقت قليل، إلا سعدًا وعليًّا، وبايع ابن سعد أيضا، ثم بـــايع عليّ بعد أيام، وفي بعض الروايات أنه بايع بعد ثلاثة أيام، وفي بعـــضها بعد ستة أشهر. وتذكر روايات الستة أشهر بأنه لم يتمكن من بيعة أبي بكر لانشغاله بتمريض فاطمة رضي الله عنها، وأنه لما جاء أبا بكر للبيعة اعتذر لتأخره، وقال: تأخرّت لمرض فاطمة.

انتخاب عمر رضي الله عنه

لما قرب أجل أبي بكر رضي الله عنه استشار الصحابة فيمن يعينه خليفةً، فمال أكثرهم إلى عمر، ولكن بعضهم اعترض وكانت حجتهم الوحيـــدة أنّ في طبعه قسوة، فيخاف أن يشدد على الناس. فقال أبو بكر: سببُ هذه القسوة أنه لم يُحمَّل أيةَ مسؤولية، وعندما تقع عليه هـــذه المـــسؤولية ستزول قسوته ويعتدل. فرضي الجميع بخلافة عمر.

وبيان ذلك أنّه لما تدهورت صحة أبي بكر رضي الله عنه خـــرج إلى المـــسجد مستندًا إلى زوجته أسماء، ورجلاه تتخاذلان ويداه ترتعشان، فخطب في الناس وقال: ظللتُ أفكّر أيامًا فيمن يكون الخليفة بينكم بعد وفـــاتي، وارتأيت بعد تفكير ودعاء كثيرين أن أعيّن عمرَ خليفةً، فهو الخليفـــة بينكم بعد وفاتي. فرضي الصحابة وغيرهم جميعا بإمارة عمر، وبـــايعوه بعد وفاة أبي بكر[٢٥].

---

[25] الكامل في التاريخ، ذكر استخلافه عمر بن الخطاب

انتخاب عثمان ﷺ

لما أصيبَ عمر ﷺ بالجراح وأدرك أن وقته قد حان، أوصى بستة أشخاص وأمَرهم باختيار أحد منهم خليفةً، وهؤلاء الستة هم: عثمان، علي، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبي وقاص، الزبير بن العوام وطلحة رضي الله عنهم. كما ضمّ إليهم عبد الله بن عمر للاستشارة فقط، وقال: إنه لن يُختار خليفةً. وأوصاهم عمر بأن عليهم جميعا أن يتخذوا القرار خلال ثلاثة أيام، وأن يصلي صهيب بالناس خلالها، وأمر المقدادَ ابن الأسود بالإشراف على تشاور هؤلاء الستة، وأمره أن يُكرههم على الاجتماع في مكان واتخاذ القرار، وأن يحرس المكان بنفسه حاملا سيفه. ومن اتفق عليه أكثرهم فليبايعه الناس، وأما من رفض فليُقتلْ. وإذا كان للطرفين ثلاثة أصوات فمن يصوِّت له عبد الله بن عمر فهو الخليفة. وإذا لم يرضوا بقراره فمَن صوّت له عبد الرحمن بن عوف فهو الخليفة. فاجتمع خمسةٌ منهم للاستشارة، إذ لم يكن طلحة في المدينة في ذلك الوقت، ولم يصلوا إلى نتيجة. وبعد نقاش طويل قال عبد الرحمن بن عوف: حسنًا، مَن الذي يريد منكم أن يسحب اسمه؟ فصمت الجميع. فقال عبد الرحمن بن عوف: أنا أسحب اسمي قبل الجميع. ثم قال عثمان: أنا أسحب اسمي. ثم سحب الاثنان الآخران، وظلّ عليٌّ صامتا. وفي الأخير أُخذ من عبد الرحمن بن عوف عهدًا بعدم الانحياز لأحد عند أخذ القرار، فأعطاهم موثقا، وصار الأمر كله في

يده. فظلَّ عبد الرحمن بن عوف يزور بيوت المدينة بيتًا بيتا ثلاثة أيام ويسأل الرجال والنساء عمّن يرضون بخلافته، فرضي الجميع بخلافة عثمان، فحكم لصالح عثمان فصار خليفةً.

انتخاب عليّ رضي الله عنه

ثم حين استشهد سيدنا عثمان رضي الله عنه، ورأى الصحابة الموجودون في المدينة أن الفتنة تتفاقم في المسلمين أصرّوا على عليّ رضي الله عنه أن يأخذ البيعة من الناس. ومن ناحية أخرى سارع بعض المفسدين إلى علي وقالوا له: هناك خطر كبير على انشقاق الدولة الإسلامية، فخذْ من الناس البيعة ليزول عنهم الخوف ويرسى الأمن والأمان، فظل يرفض تحمّل هذه المسؤولية، ولكنه لما رأى أن لا مناص له من أخذ البيعة أخذها منهم. كان بعض أكابر الصحابة خارج المدينة في ذلك الوقت، بينما أُخذت البيعة من بعضهم جبرًا، فقد ورد عن طلحة والزبير أنه أُرسل إليهما حكيم بن جبلة ومالك بن الأشتر مع نفر من الناس فاستلُّوا عليهما السيوف وقالوا: بايِعا عليًّا وإلا نقتلكما. وورد في بعض الروايات أنهم جاءوا بهما يجرّونهما على الأرض، فبايعا. والواضح أن مثل هذه البيعة ليست حقيقية. ولما بايعا عليًا قالا: نبايعك على أن تقتصّ من قَتَلةِ عثمان رضي الله عنه. ولكنهما لما رأوا أن عليًا لا يسارع في القصاص من قتلة عثمان، خلعا بيعته وذهبا إلى مكة.

إعلان عائشة رضي الله عنها الجهاد

بينما تمكّنتْ جماعةٌ من قَتلةِ عثمان، وبغيةَ الفتنة، مِن خداع عائـــشة وإقناعها بإعلان الجهاد ثأرًا له. فنادت رضي الله عنها بالجهاد ودعـــت الصحابة لنصرتها، فانضمّ إليها طلحة والزبير، وتقاتلَ جيش عليّ وجيش عائشة وطلحة والزبير، وتسمى هذه الحرب بحرب الجمل. ولكن قبـــل بداية المعركة انسحب الزبير وامتنع عن القتال بعد أن سمع مـــن علـــيّ نبوءة للنبي ﷺ تخصه، واعترف بخطئه في اجتهاده وحلف أنه لن يقاتـــل عليًّا. أما طلحة فاعترف ببيعته لعليّ قبل وفاته، إذ ورد في الروايات أنه بينما كان يضطرب من شدة الجراح، إذ مرّ به شخص، فسأله طلحـــةُ: من أي فئة أنت، قال: أنا من فئة عليّ، فوضع طلحةُ يده في يده وقال: أعتبر يدك يد عليّ، وأبايعه ثانيةً[٢٦].

فيما يتعلق بخلاف الصحابة مع عليّ فقد حُسم في حرب الجمل، إلا أن خلاف معاوية مع عليّ ظلّ على حاله إلى أن وقعت حرب صِفّين.

وقائع حرب صِفّين

احتال أصحاب معاوية في هذه الحرب حيث رفعوا المصاحف علـــى الرماح، وقالوا نرضى بقرار القرآن الكريم، فيجب تعيين حكَمَين لهـــذا الغرض. وعند سماع ذلك تقدَّم المتورطون في مؤامرة قتل عثمان وكانوا

[26] الكامل في التاريخ، ذكر مسير علي إلى البصرة والوقعة.

قد اندسّوا في صفوف عليٍّ ليفلتوا من عقاب جريمتهم، وألحّوا عليه بقبول هذا الاقتراح ويعيّن حَكمًا من عنده. فظلّ عليّ ﷺ يرفض اقتراحهم، ولكنهم، وكذلك بعض من ذوي الطبائع الضعيفة المنخدعين منهم، أجبروه على تعيين حَكمٍ من عنده. فاختيرَ أبو موسى الأشعري حَكمًا من طرف عليّ، وعمرو بن العاص من طرف معاوية. كان هذا التحكيم في الحقيقة في حادث قتل عثمان ﷺ، وكان مشروطا بأن يكون قرارهم متفقا مع القرآن الكريم، ولكن عمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري قرّرا بعد التشاور فيما بينهما أن يعزلا عليّا ومعاوية أولاً، لأنهما هما السبب وراء المصيبة التي حلت بالمسلمين جميعا، ثم يختار المسلمون بحرية خليفةً لهم، مع أنّ اتخاذ مثل هذا القرار لم يكن من مهمة الحَكمين. فعقدا اجتماعا عاما للإعلان عن قرارهما، فقال فيه عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري: أنت تعلن عن قرارك أولاً، ثم أعلنُ أنا. فأعلن أبو موسى الأشعري أنه يعزل عليًّا عن الخلافة. فقام عمرو بن العاص وقال: لقد عزل أبو موسى الأشعري عليًا، وأنا أتفق مع قراره وأعزل عليا، ولكني لا أعزل معاوية، بل أقرّ باستمرار إمارته (كان عمرو بن العاص رجلا صالحا في الحقيقة، ولكني لا أخوض في السبب وراء اتخاذه هذا القرار). وبعد إعلانهما عن هذا القرار بدأ أصحاب معاوية يقولون: لقد أصدر الحَكمان حكمهما لصالح معاوية وضد عليّ، وهو قرار سليم، ولكنّ عليا ﷺ رفض قبول هذا القرار، وقال: لم يعيَّن

الحَكمان لهذا الغرض أولاً، ثم إن قرارهما ليس مبنيًا على أي حُكم من القرآن الكريم. فأثارت الفئة المنافقة من أصحاب عليّ التي أصرت على تعيين حكم من عنده ضجةً وقالت: لماذا عيّنتَ الحَكم مع أن تعيين حَكَمٍ في أمور الدين لا يجوز؟ فردّ عليهم عليّ رضي الله عنه وقال: أولاً كان من شروط المعاهدة أن يكون قرارهما موافقًا للقرآن الكريم، ولكنهما لم يفيا بالشرط، وثانيًا: لم أعيّن الحَكم من طرفنا إلا بعد إصراركم، فلماذا تقولون الآن لماذا عينته؟ فقالوا: كان كلامنا هراءً، وكان تصرفنا خطأً، ولكن لماذا أنتَ رضيتَ بخطئنا؟ هذا يعني أننا صرنا من الآثمين وكذلك أنت، وأخطأنا وأخطأتَ أيضا، وقد تُبنا عن خطئنا، فالأفضل أن تتوب أيضا وتعترف بأن ما فعلتَ لم يكن جائزا. كان هدفهم من ذلك أن عليًّا رضي الله عنه لو رفض ما يقولون فسوف يخرجون من بيعته بحجة أنه قد قام بعمل خلاف الإسلام، فلا يجوز البقاء في بيعته بعد ذلك، أما إذا اعترف بخطئه وقال إني أتوب عما فعلتُ فسوف تبطُل خلافته تلقائيا، لأنّ من يرتكب هذا الإثم الكبير كيف يكون خليفةً؟ فرد عليهم عليّ رضي الله عنه قائلا لم أرتكب أي خطأ، لأن الأمر الذي عينتُ فيه حَكمًا يجوز تعيين حَكم فيه بحسب الشريعة، هذا أولا، وثانيا: كنتُ اشترطتُ عند تعيين الحَكم صراحة أنني سأرضى بقرارهما ما دام متفقا مع القرآن الكريم والحديث، وإلا لن أرضى به أبدا، فلأنهما خالفا هذا الشرط و لم يكن قرارهما في الأمر الذي تمّ تعيينهما فيه، فحكمهما ليس حجة عليٍّ. ولكن هؤلاء

القوم لم يقبلوا عذر عليٍّ ﷺ، وخرجوا من بيعته، فسُمّوا "الخـــوارج"، واخترعوا لهم مذهبًا جديدا بأنه ليس هناك أي خليفة تجب طاعته، وإنما يجب العمل بما يراه أكثرية المسلمين، لأنّ القول بأمير واجب الطاعة له يخالف مبدأ: "لا حكم إلا لله"[٢٧].

نظريةُ خلافة عليّ بلا فصل

كان هذا أول خلاف وقع حول الخلافة. أخذ أنصار عليّ ﷺ يردّون على هؤلاء الطاعنين، ومما قالوا في جوابهم أن هناك نبوءات أيضا للرسول ﷺ عن خلافة عليّ، ولما تناولوا هذه النبوءات بالتفصيل فكّر بعض الغلاة منهم أن لا داعي لمناقشة مسألة الخلافة بالذات، إنما علينا أن نقـــول إن خلافة عليّ ليست نتيجة أي انتخاب، وإنما هي نتيجة نبوءات تنبـــأ بهـــا الرسول ﷺ، فهو خليفةٌ عيّنه الرسول ﷺ بلا فصل بينهما. وقولهم هـــذا يماثل قولَ مَن قد يقول وهو يتحدث عن موضوع كوني أنـــا "المـــصلح الموعود": إننا نقول بخلافته لأن هناك نبوءات للمسيح الموعود ﷺ عن خلافته، وليس لأن أكثرية الجماعة انتخبته خليفةً. ومن قال بذلك فقـــد توجه نحو الهلاك، لأن هذه الفكرة ترسّخ في الأذهان بالتدريج فكرة إمامة شخصٍ واحد، وتزيل أهميةَ نظام الخلافة من القلوب.

على أية حال، استنتج بعض الغلاة من أصحاب عليّ ﷺ من نبوءات الرسول ﷺ بشأنه أن خلافته هي نتيجة لتلك النبوءات فقط، وليـــست

---

[27] الكامل في التاريخ، ذكر خبر الخوارج عند توجيه الحكمين وخبر يوم النهر

نتيجة أي انتخاب، ثم مالوا بالتدريج إلى القول بأن عليًّا إمام في الحقيقة.. أي مأمور، وأن الخلافة ليست بالمعنى الذي ظلّ المسلمون يفهمونه حتى اليوم، بل إن الإمام يقام بأمرٍ خاص من الله تعالى لهداية الناس وإرشادهم.

ثلاث فئات في المسلمين حول الخلافة

ونتيجة هذه الأفكار المتباينة صارت في المسلمين ثلاث فئات حول الخلافة؛ فرأت الفئة الأولى أن الخلافة تعني النيابة، ويجب أن يكون نائب لرسول الله ﷺ بعده، وأنّ الخليفة هو مَن يُختار بقرار أكثرية المسلمين، أو مَن ترضى به الأمة بتعيين من أحد الخلفاء، وأنه تجب طاعته. وأصحاب هذه النظرية يُسمون السنة.

وثاني هذه الفئات ترى أن الحكم لله، وأن اعتبار شخص واحد واجب الطاعة له هو بمثابة الإشراك بالله، لذا فيجب أن يتخذ القرار برأي الأكثرية، وأن المسلمين أحرار في أن يُقرُّوا لأنفسهم ما يشاءون. وأصحاب هذه النظرية يسمّون الخوارج.

ثالث الفئات ترى أن الأمير لا يعينه الناس، بل تعيين الأمير هو مهمة الله تعالى، وهو الذي أقام عليًّا إمامًا، وأقام بعده أحد عشر إمامًا آخرين، وأن الإمام الأخير حي حتى الآن ولكنه مختبئ. وأصحاب هذه النظرية يسمون الشيعة.

ثم خرجت من هذه الأخيرة فئة قالت: لا بد من وجود إمامٍ حيّ في الدنيا كل حين، وهكذا كان فعلًا. وأصحاب هذه الفكـــرة يـــسمون الشيعة الإسماعيلية.

ذكرُ الخلافة الإسلامية الأحمدية

هذا تاريخ الخلافة التي كانت بعد الرسول ﷺ مباشرة، وأتحدث الآن عن الخلافة التي قامت بعد المسيح الموعود عليه السلام.

كانت حالة عقول الجماعة في وقت المسيح الموعود عليه السلام تشبه حالة عقول الصحابة في زمن النبي ﷺ، فكنا نظنّ أن المسيح الموعود عليه السلام لن يتوفى الآن، ولذلك ما كانت قلوبنا لتفكر لحظة واحدة فيما ســيحدث بعد وفاة المسيح الموعود عليه السلام. ما كنتُ عند وفاته عليه السلام ولدا صــغيرا، بل كنت شابا، وأكتب المقالات والمواضيع، وأحرّر مجلةً، وأقسم بــالله تعالى بأنه لم يخطر ببالي ولا لحظة واحــدة أن المــسيح الموعــود عليه السلام سيتوفى، مع أنه كان قد تلقى في أواخر سنوات حياته إلهامات متــواترة تخبر بقرب وفاته، وقد كثرت هذه الإلهامات في أواخر أيامه. ورغــم هذه الإلهامات التي تلقاها عليه السلام، ورغم أن بعضها كان يعيّن سنة وفاته وتاريخها أيضا، ورغم أننا كنا نقرأ كتيب "الوصية" أيضا، إلا أننا كنــا نظن أن هذه الأمور قد تقع بعد قرنين من الزمان، ومن أجل ذلــك لم يخطر ببالنا قطّ كيف يكون الأمر بعد وفاته المسيح الموعود عليه السلام. ولأننا كنا نفكر أن المسيح الموعود عليه السلام لن يتوفى في حياتنا، لــذلك عنــدما

توفي كان صعبًا علينا أن نصدق ذلك. وأتذكر جيدا أنه بعد أن قـــاموا بغسل جثمان المسيح الموعود عليه السلام وتكفينه، كلما هبّت الريح وتحـــرك كفنه أو شواربه عليه السلام، كان البعض يأتي جريًا ويقول: إنه عليه السلام لا يزال حيا، فقد رأينا ثوبه يتحرك، وشواربه تتحرك.

ثم بعد أن نقلوا جثمانه إلى قاديان ووضعوه في غرفة في بستانه، وصل خواجه كمال الدين في حوالي الساعة الثامنة أو التاسعة، وأخذني جانبًا وقال: ميان[28]، هل فكّرتَ كيف يكون الأمر بعد وفاة المسيح الموعـــود عليه السلام؟ قلتُ: يجب أن يكون هناك شيء ما، ولكن لا أستطيع أن أقول ماذا يجب أن يكون. قال: أرى أنّ علينا جميعًا بيعة حضرة المولوي (نور الدين). فقلتُ له بسبب صغر سني نسبيًا وبسبب قلة مطالعتي: لم يكتب المسيح الموعود عليه السلام في أي مكان أن نبايع أحدا بعد وفاته، فلماذا نبايع حضرة المولوي؟ (مع أنّ حضرته عليه السلام كان قد ذكر أمر بيعة أحـــد في كتيب "الوصية"، ولكنه لم يخطر ببالي في ذلك الوقت)، فبدأ يناقشني في هذا الموضوع وقال: إذا لم نبايع على يد شخص الآن فـــسوف تُـــدمَّر جماعتنا. ثم قال: وهذا ما حصل بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أيضا، إذ بايع القوم أبا بكر رضي الله عنه، فعلينا أن نبايع الآن أحدا، وعندي ليس في جماعتنا أحـــدٌ أولى بهذا المنصب من المولوي، وهذا هو رأي المولوي محمد علي المحترم أيضا، إذ يقول إن على الجماعة كلها أن تبايع حـــضرة المولـــوي. وفي

[28] هي كلمة احترام وحب. (المترجم)

الأخير التمست الجماعةُ بالاتفاق من حضرة الخليفة الأول ﷺ بأن يأخذ البيعة من الناس. فاجتمع الناس كلهم في البستان، فألقى حضرة الخليفة الأول ﷺ في هذا الاجتماع خطابا قال فيه: إنني لا أرغب في الإمامة، وأريد أن تبايعوا أحدا غيري. وذكر بهذا الخصوص اسمي، ثم اسم جدي لأمي مير ناصر نواب المحترم، ثم زوج أختي نواب محمد علي خان، وبعض الإخوة الآخرين. ولكننا جميعا التمسنا منه وقلنا: إنك أنت الأولى بمنصب الخلافة. فبايعَه القوم جميعا.

صلاحيات الخليفة

لم تمضِ على بيعته أسبوعان أو ثلاثة حتى قابلني المولوي محمد علي المحترم ذات يوم وقال: حضرة ميان، هل فكرتَ مرةً كيف يدار نظام جماعتنا؟ قلتُ: أي حاجة للتفكير في ذلك الآن وقد بايعنا حضرةَ المولوي؟ قال: تلك البيعة هي بيعة المريدين للمرشد، إنما سؤالي كيف يدار نظام جماعتنا. قلت: أرى هذا الأمر لم يعد يستحق التفكير فيه، لأننا ما دمنا قد بايعنا شخصا فهو الأدرى الآن بكيفية إدارة نظام هذه الجماعة، ولا حاجة بنا للتدخل فيه. فسكت، ولكنه قال: هذا الأمر جدير بالتفكير فيه.

أسئلة رفعها مير محمد إسحاق إلى الخليفة الأول

بعد بضعة أيام أخذتْ تتناقل على ألسنة أبناء الجماعة أسئلة من قبيل:

ما هي صلاحيات الخليفة؟ أهو تابع لمؤسسة "صدر أنجمن[٢٩] أحمدية"، أم هي التابعة له؟ فكتب مير محمد إسحاق المحترم بعض الأسئلة بهذا الخصوص ورفعها إلى حضرة الخليفة الأول راجيا منه توضيح الأمر. فبعث حضرة الخليفة الأول ﷛ بالأسئلة إلى شتى فروع الجماعة خارج قاديان، وحدّد يومًا ليحضر فيه ممثلو هذه الفروع لاتخاذ القرار بعد التشاور. ولكنني لم أعلم بكل هذه الأمور إلى أن رأيتُ رؤيا.

رؤياي

رأيت فيما يرى النائم أن هناك بناية كبيرة جدا أحد شقّيها مكتمل والآخر غير مكتمل، والأخشاب موضوعة على جدران الجزء غير المكتمل، ليوضع عليها اللبن والطين وغيرها، ونحن أربعة أو خمسة أشخاص واقفون على هذا الجزء من البناية، وأحدنا مير محمد إسحاق. وفجأةً نرى على هذه الأخشاب حشيشًا جافا، فأخرج مير محمد إسحاق من فوره علبة أعواد ثقاب وأخذ منها عودا بنية حرق الحشيش. فمنعتُه، ولكنه لا يمتنع، فقلتُ له بشدة: هذا الحشيش سوف يحرق في يوم من الأيام حتما، ولكن لم يحن وقته بعد. وبعد ذلك انصرفت لأمر آخر، ولكن سمعتُ بعد قليل صوتًا شبيها بالضجة، فلما التفتُّ وجدتُ مير

[29] كلمة "الأنجمن" تعني في اللغة الأردية: لجنة أو هيئة أو مؤسسة. وربما أصلها "أَنــجُمٌ" جمعُ نجم، وكُتبت باللغة الأردية بصورة مفكَّكة، واستُخدمت بمعنى كوكبة من الناس. (المترجم)

محمد إسحاق قد أخرج من العلبة أعواد ثقاب ويحاول حكّها بسرعة، ولكنها لا تشتعل، وكان يخرج عودا بعد عود ويحكّه ليشتعل فيحرق به هذا الحشيش. فسارعتُ إليه، ولكن عودًا اشتعل قبل وصولي إليه، فأشعل به الحشيش. فقفزتُ في النار وأطفأتها بسرعة، ولكن احترقت رؤوس بعض الأخشاب خلال ذلك. كتبتُ هذه الرؤيا وعرضتها على الخليفة الأول ﷺ، فنظر إليَّ وقال: لقد تحققت هذه الرؤيا. قلت: كيف؟ قال: لقد بعث إليّ مير محمد إسحاق ببعض الأسئلة مكتوبةً، وقد أرسلتُها إلى فروع الجماعة خارج قاديان، وأرى أن هذا سيسفر عن فتنة كبيرة. لم أكن أعرف حتى ذلك الوقت ما هي الأسئلة التي أثارها مير محمد إسحاق، ولما سألت بعض الإخوة أخبروني بمفهومها فعرفتُ أنها ذات صلة بالخلافة. ووقعت في الجماعة ضجة بأسئلة مير محمد إسحاق المحترم، فبدأت الردود عليها تأتي من كل طرف وصوب.

ومما يدل على خداع هؤلاء القوم الجماعةَ في ذلك الوقت أنهم أكدوا مرارا لمختلف فروع الجماعة بأن أفكارهم التي يقدمونها للناس عن الخلافة تتفق مع أفكار الخليفة الأول، ونحمد الله تعالى أن هذا السؤال قد أُثيرَ في عهد إنسان زاهد، ولو أُثير فيما بعد فلا ندري حجم الكارثة! وقال بعض منهم: نِعْمَ ما حصل، إذ سيقرَّر اليوم، ولا يزال معظم صحابة المسيح الموعود عليه السلام أحياء، بأنّ الأنجمن هي الخليفة للمسيح الموعود عليه السلام في الحقيقة.

باختصار، لقد حاول هؤلاء القوم التأثير على أبناء الجماعة بكل السبل، ليوحوا لهم أن أفكارهم تتفق مع أفكار الخليفة الأول والعياذ بالله! كان في الجماعة هياج غير عادي، وبدا كأنّ تمرّدًا خطيرا سيقع ضد الخليفة.

اجتماع ممثلي فروع الجماعة الخارجية في قاديان

وأخيرا جاء ذلك اليوم الذي كان الخليفة الأول ﷺ قد حدده لهذا الغرض والذي دعا فيه ممثلي الجماعة الخارجية للاجتماع في قاديان. وبينما كنتُ أتمشى في فناء بيتي في صباح ذلك اليوم انتظارا لصلاة الفجر، وكان الناس ينتظرون قدوم حضرة الخليفة الأول، إذ تناهى إلى مسامعي صوتُ شيخ رحمت الله المحترم الذي كان يقول في المسجد في حماس شديد: معاذ الله! إنهم يدمّرون الجماعة من أجل صبيّ! ظننتُ لأول وهلة أنه يشير بالصبي إلى مير محمد إسحاق، ولكني سمعت صوته مرة أخرى وهو يقول: كيف يمكن أن تخضع الجماعة لعبودية صبي؟ فاشتدَّت حيرتي، وبدأت أقول في نفسي: لم يسأل مير محمد إسحاق إلا بضعة أسئلة، فما علاقة ذلك بعبودية الجماعة له؟ ورغم التدبر في الأمر لم أفهم من هذا الصبي. ذكرتُ بعد صلاة الفجر هذا الحادث للخليفة الأول ﷺ، وقلتُ: كان خصام يجري اليوم في المسجد ولا أدري سببه، حيث كان شيخ رحمت الله يقول بصوتٍ مرتفع: كيف نبايع صبيًّا؟ فليس هذا الفساد كله إلا من أجل هذا الصبي. ولم أفهم من هذا الصبي الذي يتحدثون عنه. فنظر إليَّ الخليفة الأول ﷺ متبسما وقال: ألا تدري! أنت ذلك الصبي.

لعل شيخ رحمت الله المحترم كان يظنّ أنني أنا الذي أمليتُ كل هذه الأسئلة وأنا السبب وراء هذه الضجة التي وقعت في الجماعة.

خطاب حضرة الخليفة الأول حول مسألة الخلافة

ثم بعد ذلك جاء حضرة الخليفة الأول ﵁ لإلقاء الخطاب، وكنت قد رأيتُ رؤيا عن خطابه هذا قبل أن يلقيه. رأيت في المنام أن هناك اجتماعا يخطب فيه حضرة الخليفة الأول ﵁ حول موضوع الخلافة قائما، ويخيَّل إليّ أنّ جيشًا يريد شن الهجوم عليه. فجئت إلى مكان الاجتماع، ووقفت على يمينه وقلت: سيدي، لا تحزن، إننا خدامك، وإننا مستعدون للتضحية بأرواحنا دفاعًا عنك، ولن يخلص إليك العدو إلا على جثثنا، أما في حياتنا فلن يقدر أحد على إصابتك بأذى. وكنتُ قد حكيت هذه الرؤيا للخليفة الأول ﵁ قبل الخطاب، ولما حضرتُ هذا الاجتماع نسيتُ رؤياي هذه وجلست على يسار حضرة الخليفة الأول ﵁، فقال لي: ميان، قُمْ من هنا وتعالَ إلى يميني. ثم قال بنفسه: أتدري لماذا أجلستك على يميني؟ قلتُ: لا. فذكَّرني برؤياي، وقال: بسببها أجلستك على يميني.

ثم لما قام حضرته ﵁ لإلقاء الخطاب لم يقُم في المكان الذي أعدُّوه له في المسجد، بل قام في ذلك الجزء من المسجد الذي بناه حضرة المسيح الموعود ؏. ثم قال وهو يبدي سخطه على الناس: لقد آذيتموني بعملكم هذا أذى شديدا حتى إنني لم أقُم في ذلك الجزء من المسجد

الذي بنيتموه، بل قمت في جزئه الذي بناه مرشدي. ثم وضَّح حضرته مسألة الخلافة على ضوء القرآن الكريم والحديث، وقال: يقول الناس بأن عمل الخليفة ينحصر في الصلاة بالناس والصلاة على الموتى وعقد القران، ولا علاقة له بإدارة النظام. إن أصحاب هذا القول قد ارتكبوا وقاحة شديدة، فإن هذه الأعمال يمكن أن يقوم بها أحد الشيوخ البسطاء، فما الحاجة بذلك إلى خليفة؟

والذين قد سمعوا هذا الخطاب يعلمون أنه كان قويًا ومؤلمًا حتى لم يتمالك الناس أنفسهم من البكاء.

تجديد خواجه كمال الدين والمولوي محمد علي للبيعة

وبعد الخطاب أمر حضرة الخليفة الأول رضي الله عنه، خواجه كمال الدين والمولوي محمد علي وشيخ يعقوب علي العرفاني بإعادة البيعة على يده، فبايعوه. لم يتبادر إلى ذهني حتى ذلك الوقت أنهم قد طولبوا بإعادة البيعة بسبب جريمتهم، ولذلك مددتُ يدي أيضا للبيعة، ولكنّ حضرة الخليفة الأول رضي الله عنه أبعدَ يدي بيده، وقال: لا علاقة لك بهذه البيعة، أما هؤلاء فقد ارتكبوا جريمة، ولذلك تؤخذ منهم البيعة مرة أخرى، ولكنك لم ترتكب أية جريمة.

لقد أُخذت البيعة من الشيخ يعقوب علي العرفاني بهذه المناسبة لأنه كان قد أقام من عنده اجتماعًا أُلقيت فيه الخطب ضد هؤلاء الذين احتقروا نظام الخلافة. ومع أنه عمل حسن، ولكن الخليفة الأول رضي

الله قال: ما دمتُ لم آمره بهذا فكيف يحقّ له أن يعقد هذا الاجتماع من عند نفسه؟

باختصار، لقد أُخذت البيعة من هؤلاء الثلاثة مرة أخرى، وتابوا أمام الجميع، ولكن لما انفضّ الاجتماع وذهب الناس إلى بيوتهم بدأ هؤلاء القوم بنسج مؤامرات أخطر ضد الخليفة الأول ﷺ، وأخذ المولوي محمد علي يقول: لقد أُهنتُ إهانةً لا أستطيع بعدها الإقامة في قاديان. وكانت للدكتور المرحوم خليفة رشيد الدين صلات طيبة جدا مع المولوي محمد علي في تلك الأيام، فحضر ذات يوم إلى حضرة الخليفة الأول فزعًا، وكنتُ موجودا هناك صدفةً وقال: سيدي، هناك أمر خطير يجب أن تعالجه فورا. فقال ﷺ: ماذا حصل؟ قال: يقول المولوي محمد علي بأنه قد أهينَ إهانة كبيرة، ويستحيل بعدها أن يمكث في قاديان، فأَسْرِعْ وحاولْ استرضاءَ المولوي محمد علي قبل أن يذهب. فقال حضرته ﷺ: أيها الدكتور، اذهبْ وقلْ للمولوي محمد علي: إذا كان يريد أن يذهب من قاديان غدًا فليذهب اليوم، فإن الغد بعيد. والدكتور الذي كان يظن أن ذهاب المولوي محمد علي من قاديان سيحدث في الجماعة زلزالا عنيفا، لما سمع هذا الجواب فقَد صوابه وقال: سيدي، إذن، سيقع فساد كبير. فقال حضرته ﷺ: أنا لا أبالي بذلك. إنني خليفة أقامه الله تعالى، ولست لأخاف هذه التهديدات.

فلما سمع المولوي محمد علي هذا الجواب لزم الصمت و لم ينبس ببنت شفة في حياة الخليفة الأول عن رغبته في مغادرة قاديان، غير أنه ظلّ يتآمر في الخفاء لإثارة الفتنة في الجماعة بشتى الخطط. وهذه واقعات طويلة جدا لا داعي للخوض في تفاصيلها هنا.

اقتراح نشر إعلان عند المرض الأخير للخليفة الأول

عندما مرض الخليفة الأول ﷺ مرض الموت أصاب القلق قلوبَنا جميعا بطبيعة الحال، وبدأنا ننتظر الساعة القادمة بمنتهى الأسف والحزن. لم يكن هناك إشراف على الناس عمومًا بسبب مرضه، فأخذ الجدال حول المسائل المختلف فيها يحتدّ بينهم، فأعدَدْنا إعلانًا بأنّ خليفة المسيح مريض مرضًا شديدا فلا يليق بنا في هذه الحالة أن نناقش فيما بيننا المسائل المختلف فيها، بل الأحرى أن نوقف هذه النقاشات وننتظر أن يشفي الله خليفة المسيح ويعافيه، فيحكم في هذه المسائل بنفسه. كتبتُ هذا الإعلان وناولتُ "ميرزا خدا بخش" إياه طالبًا منه أن يأخذه إلى المولوي محمد علي ليوقع عليه أيضا، فهذا يمنع مَن يؤيد موقفه وموقفي من الخوض في هذه النقاشات، وبالتالي تتفادى الجماعة أي فتنة. فعلتُ هذا قبل وفاة الخليفة الأول بيوم أو يومين، ولكن المولوي محمد علي لم يوقع على هذا الإعلان وإنما ردَّ عليَّ قائلا: إن عامة الأحمديين ليسوا مطّلعين على الخلاف الموجود في فئة من أبناء الجماعة، لذا فنشرُ هذا الإعلان ليس بالرأي السديد، إذ يسبب في شماتة الأعداء من دون داعٍ،

والأفضل عندي مِن نشره أن نعقد اجتماعا يخطب فيه كل واحد منـــا ناصحًا الناس باجتناب هذه النقاشات. فعُقد الاجتمـــاع في مـــسجد "نور"، وطلب مني المولوي محمد علي أن أخطب قبلـــه. فـــذكرتُ في خطابي ما ذكرتُه في الإعلان، وركزتُ على الاتفاق والاتحـــاد. أمـــا المولوي محمد علي فإنه بدلاً من أن يعظ الناس في خطابه أخذ يقرّعهم قائلا: يا عديمي الجدوى، تعترضون عليَّ وعلى السيد خواجه من دون داعٍ. إنه تصرف مذموم، وعليكم اجتنابه. باختصار، لقد زجر النـــاس ووبّخهم، مما زاد الفُرقة والاختلاف بدلاً من الاتفاق والاتحاد، فكرهتْه قلوبُ الناس وأصحابَه.

محاولةُ حماية الجماعة من الخلاف

كانت صحة الخليفة الأول رضي الله عنه قد تدهورت جدا، فانتاب قلبَ كل واحد منا السؤال عمّا سيحدث بعد وفاته. أما أنا فكنتُ أفكر فقط في وحدة الجماعة وكانت هذه هي غايتي، وليس أن يكون الخليفة منـــا أم من تلك الفئة الأخرى. ومع أنّ عامة مَن يؤمنون بنبوة المسيح الموعـــود عليه السلام كانوا يفكرون أنه من المحال أن يبايعوا شخصًا يختلفون معه في العقائد، لأنّ هذا قد يقضي على الأحمدية نفسها، ولكـــنني بـــدأتُ أشرح لأصحابي خاصةً أنه إذا كان هناك خطر فتنة عند وفاة حـــضرة خليفة المسيح فعلينا أن نبايع شخصًا منهم، تفاديًا للخِلاف والفرقـــة في

الجماعة. فأقنعتُ أكثر أصحابي أنه لو كان الاختلاف منحصرًا فيما هل يكون الخليفة منا أم منهم، فيجب أن نكون مستعدين لمبايعة أحد منهم.

وفاة الخليفة الأول رضي الله عنه

توفي الخليفة الأول رضي الله عنه في ١٩١٤/٣/١٣. وبلغني نعيه وأنا راجع في سيارة نواب محمد علي خان بعد أن صليتُ الجمعة بالناس، وهكذا تحققت رؤيا أخرى كنتُ رأيتها في تلك الأيام، وهي: رأيتُ فيما يرى النائم أني أركب سيارة متجهة إلى بيتنا، إذ أبلغني أحد نعي الخليفة الأول. وكنت أظنّ بناءً على رؤياي هذه أن الخليفة الأول رضي الله عنه سيتوفى على الأغلب وأنا في السفر، ولكن الله تعالى حققها على هذا النحو.. أعني أني كنتُ راجعا بعد أداء صلاة الجمعة بالناس إلى البيت، فجاء أحد خدم نواب محمد علي خان برسالة منه بأنه ينتظرني في سيارته في الخارج، فركبتُ معه السيارة متوجها إلى المكان، فبلغني في الطريق نعي الخليفة الأول رضي الله عنه.

دعوة الناس إلى الدعاء

أُرسلت برقيات لكل فروع الجماعة عند وفاة الخليفة الأول رضي الله عنه، وطلبتُ من الإخوة أن يعكف كلٌّ منهم على الدعاء قائما أو قاعدا، وماشيا أو واقفا، ويقوم الليل، ويصوم الغد إن استطاع، لكي يلهم الله

الجماعةَ الصواب في هذا الوقت العصيب، فلا تنحرف قدمها عن سواء السبيل.

قرار أجمعت عليه عائلة المسيح الموعود عليه السلام

وفي اليوم نفسه جمعتُ أقاربي لاستشارتهم في هذا الخلاف، فأصرّوا على أنه يجب أن يكون الخليفة مَن يتفق معنا في العقائد، ولكنني نصحتُهم وقلتُ: إن الأمر الأساس الذي نحن بأمس الحاجة إليه الآن هو الاتفاق والاتحاد. لا شك أن وجود الخليفة ضروري عندنا شرعًا، ولكن لا يليق بجماعتنا أن يقع فيها الخلاف، ولذلك إذا كان هؤلاء متفقين معنا على انتخاب خليفة، فالأفضل أن يؤخذ الرأي العام، أما إذا كانوا مختلفين في ذلك فيجب الاتفاق على خلافة شخص لا علاقة له بالفريقين، وإذا لم يرضوا بذلك أيضا فعلينا أن نبايع أحدا منهم، ولو كان هو المولوي محمد علي. كان إقناعهم بهذا الأمر صعبا جدا، إلا أن كل أفراد عائلتنا رضوا بقولي هذا بعد إلحاح مني.

لقائي بالمولوي محمد علي

ثم بعد ذلك قابلت المولوي محمد علي وقلت له: أريد أن أكلّمك في بعض الأمور، فخرجنا إلى البرية سويةً من أجل الحديث. قال المولوي محمد علي: يجب ألا نتخذ أي قرار مستعجلين بعد وفاة خليفة المسيح، لأن الجماعة مختلفة وهناك خطر الفتنة، وإنما يجب أن نتفق بعد مناقشة

الأمر من كل النواحي. قلتُ: هناك أمل أن الناس سيجتمعون غدًا بعدد لا بأس به، وسوف نستشيرهم. قال المولوي محمد علي: ما الداعي لهذه العجلة؟ أرى أن تفكر الجماعة في الأمر لأربعة أشهر أو خمسة، ثم تعمل بما يتقرر. قلتُ: لو وقع في الجماعة الفساد خلال هذه الفترة فمن يكون المسؤول؟ الجماعة ستكون بلا زعيم ومرشد وقائد، فمن يفصل في خصوماتها إذا لم يوجد لها إمام؟ وإلى مَن يحتكم أبناؤها؟ والفساد ليس له موعد محدد، فقد يقع هذا المساء، فدَعْك من قولك أن لا نقرر اليوم مَن يكون الخليفة، ونؤجل ذلك لخمسة أشهر. كلا، بل أرى أنه لا بد من أن نناقش من يكون الخليفة. وقلت للمولوي محمد علي إنني أؤكد لك بأنني وكلّ من يوافقني الرأي مستعدون لأن نبايع شخصًا منكم. فقال المولوي محمد علي: هذا الأمر صعب جدا، فيجب أن تفكر جيدا، وسوف نستأنف الحديث غدا. ثم انفصلنا.

منشور نشره المولوي محمد علي

عندما استيقظتُ بالليل لصلاة التهجد أراني السيد بهاي عبد الرحمن القادياني منشورا وقال: لقد وُزِّع هذا المنشور على الأحمديين القادمين من خارج قاديان في الطريق. فنظرتُ فيه فإذا هو مكتوب من قِبل المولوي محمد علي، وقد قال فيه لأبناء الجماعة بكل قوة بأنّ الخلافة يجب ألا تستمر الآن، وأنه كان قد بايع الخليفةَ الأول على أنه مرشد وليس خليفة. وكتب أيضا: يمكن أن يكون للجماعة أمير، ولكن يجب ألا يكون واجب

الطاعة له، ولا يكفِّر غير الأحمديين، ولا يكون عمره أقل من أربعين سنة. كأنه أراد أن يقول: إذا كان لا بد من خليفة، فيجب أن يُختار هـو؛ إذ كان فوق الأربعين، وكان لا يكفّر غير الأحمديين.

إجماع ٩٠٪ من الأحمديين على انتخاب الخليفة

تصورتُ بقراءة هذا المنشور فداحة الفتنة الآتية، وبدأت في الدعاء، وأيقظتُ الإخوة النائمين في الغرفة، وأعلمتهم بمحتوى المنشور، وأكدتُ عليهم بضرورة الدعاء. فدعونا جميعًا، وصُمنا ذلك اليوم، وكذلك قام أكثر الأحمديين في قاديان بالدعاء وصاموا.

عندما أدرك الإخوة أن المولوي محمد علي قد خدعهم، بل احتقر وصايا المسيح الموعود عليه السلام والخليفة الأول ؓ، أعدّوا في الصباح استطلاعا وذهبوا به إلى كل الإخوة القادمين من الخارج مستطلعين ميولهم، فاستفسروهم بتقديم هذا الاستطلاع لهم ما إذا كانوا يرون بعد الخليفة الأول ؓ ضرورة وجود خليفة مثله أم لا، وما إذا كانوا قد بايعوا حضرتَه على أنه خليفة أم مجرد مرشد وصوفي. تمكّنّا بأخذ توقيعات أبناء الجماعة على هذه الورقة من معرفة أفكارهم، وعلمنا أن ٩٠% منهم يرون ضرورة وجود خليفة، وأن يكون متمتعًا بما كان يتمتع به الخليفة الأول من صلاحيات.

نقاش آخر مع المولوي محمد علي

في حوالي العاشرة صباحًا أتتني رسالة من المولوي محمد علي بأنه يريد استئناف الحديث معي حول الموضوع الذي تناولناه أمس. دعوتُه إلى داخل البيت وبدأنا الحديث. ركزتُ على عدم النقاش حول استمرار الخلافة أم عدمه، إذ سبق أن سلّم بمبدأ استمرار الخلافة في الجماعة بعد المسيح الموعود عليه السلام حين بايع الخليفة الأول، وإنما عليه أن يناقشني فيمن يكون الخليفة. ولكنه ظل يقول مرة بعد أخرى أن لا حاجة للاستعجال في هذا الأمر، بل على الجماعة أن تفكّر في هذا الأمر بتأنٍّ لأربعة أشهر أو خمسة. فلم يكن جوابي إلا ما قلت له من قبل، بل قلت أيضا لو استمر الاختلاف بعد خمسة أشهر أيضا، فماذا نعمل؟ وإذا كنتم ستأخذون القرار برأي الأكثرية عندها، فلماذا لا نقرر الآن برأي أكثرية الجماعة مَن يكون الخليفة. ولما رأيتُ أن الجدال لا ينتهي بأي طريق، قلتُ للمولوي محمد علي: الناس موجودون في الخارج فلنستشرهم. فقال بصورة عفوية: ميان المحترم، أنت تعلم مَن سيختارونه خليفةً. قلتُ: دَعْ عنك مَن يختاره الناس، فإنني قد قررت أنني سأبايع أحدا منكم، وإن أصحابي أيضا مستعدون لذلك. فأعاد قوله: أنت تعلم من سينتخبونه. فقمتُ يائسا منه، لأن أبناء الجماعة في الخارج كانوا متحمسين جدا وكادوا يكسرون الباب، وكانوا يقولون بأننا لن نصبر أكثر من ذلك، إن الجماعة بدون رئيس، وأنتما لا تستطيعان حسم

الأمر حتى الآن. وفي الأخير قلتُ للمولوي محمد علي: أما نحن فنرى أنه لا بد من خليفة، وأما أنتم فافعلوا ما شئتم. سوف نبـــايع علـــى يـــد شخص بعد استشارة الناس. قلتُ هذا وخرجتُ، فانفضَّ هذا المجلس.

انتخاب الخليفة الثاني

بعد صلاة العصر قرأ نواب محمد علي خان وصيةَ حــضرة الخليفـــة الأول ﷺ، والتمس من الناس ترشيح اسم أحد خليفةً بعـــده، فـــذكَر الجميعُ اسمي، وهكذا تم انتخاب الخليفة الثاني.

بلغني أن المولوي محمد علي كان قد هَمَّ ليقول شيئا في ذلك الوقت، ولكن أحد الناس أخذه من معطفه بشدة وقال له: اجلسْ. علـــى أيـــة حال، ما حدث إنما حصل بمشيئة الله تعالى، وجعل الله خليفةً مَـــن أراد أن يجعله.

حقيقة بعض أقوال الخليفة الأول

كان هؤلاء القوم يحاولون دائما أن يعطوا الخليفة الأول ﷺ انطباعـــا خاطئا عنهم، ومن أجل ذلك نجد في بعض محاضرات حضرته كلمـــات مثل: يجب على الإخوة ألا يسيئوا الظن بالإخوة من لاهور، فإن الظـــنّ بأهم يعارضون الخلافة ظنّ باطل. ولم يكن سبب قول الخليفـــة الأول هذا إلا أن هؤلاء كانوا يؤكدون له مرة بعد أخرى بأنّ ما يقال عنـــهم كذب، وأهم يؤيدون الخلافة من صميم قلوبهم. ولكن انظروا كيـــف

انكشف كذبهم فيما بعد، وكيف إنهم ينكرون بشدة الآن ما كانوا يقرّون به حالفين بالله عندئذ!

باختصار، لقد رضي هؤلاء القوم بخلافة حضرة الخليفة الأول بادئ الأمر، ثم أخذوا يردّدون كالخوارج: "الحُكم لله، والأمر شورى بيننا". ولكن الله تعالى كتب لهم الخيبة، واجتمعت الجماعة على يدي. وهناك آخرون انسحبوا من البيعة بعدهم طمعًا في بعض المكاسب، وظلوا يثيرون نفس الضجة التي أثارها الخوارج، ولكن الله تعالى جعلهم من الخائبين الخاسرين حتى اليوم، وأسأل الله تعالى أن يحمي الجماعة من فتنهم في المستقبل أيضا.

أحكام قرآنية حول الخلافة

هذا هو تاريخ الخلافة، أما الآن فنرى كيف يلقي القرآن الكريم والحديث الضوء على هذا الموضوع، وما إذا كان الإسلام يقترح أي نظام بعد رسول الله ﷺ أم لا، وما هو ذلك النظام.

يكشف لنا التدبر في الموضوع أن أول حكم أساسي يذكره القرآن الكريم بهذا الشأن هو قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا * أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلا * إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا﴾[30]

يبين الله تعالى هنا أن أهل الكتاب يعملون بالكذب والخداع والشرك ويعرضون عن الحقّ، وكلما قارنوا بين المؤمنين وغيرهم قالوا إن المؤمنين سيئون جدا، وأن الكافرين أفضل منهم كثيرا.

وهذا ما يفعله غير المبايعين معنا، حيث يقولون عداءً لنا إن المسلمين الآخرين أفضل من الأحمديين، كما يصلّون أيضا وراءهم، وكلما دار النقاش عنا وعن المسلمين الآخرين قالوا: إن هؤلاء أفضل من الأحمديين.

[30] النساء: ٥٢-٦٠

فيردّ الله على أهل الكتاب ويقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾.. أي أيها الكتابيون، تُبعِدون عنكم المؤمنين وتقرّبون إليكم غيرهم، فلذلك نقول لكم اليوم ابتعِدوا عنا ولا تقربونا. عندما يلعن الناس أحدًا يلعنونه باللسان فقط، ولكن الله تعالى إذا لعن أحدًا فلا يكون له نصير لا معين.

انظروا كيف ساء حال اليهود حين لعنهم الله؛ فمع أنهم يملكون أموالا طائلة وثروات كثيرة، إلا أنّ شتى الأمم تقف ضدهم من حين لآخر وتذلّهم وتهينهم. وهذا هو حال غير المبايعين أيضا، فعندما بويعتُ كان في قاديان قرابة ألفي شخص، وكلهم بايعوني إلا خمسين أو ستين منهم، ولكن جريدة غير المبايعين "بيغام صلح" كتبت: "لم يبايعه قرابة نصف الجماعة الحاضرة، وخرجوا من المسجد متأسفين."[31]

وأعلنت الجريدة نفسها في مناسبة أخرى: "لم يرضَ بخلافته حتى الآن إلا واحد من عشرين."[32]

هذا يعني أنّ ٥% كانوا معنا، و٩٥% كانوا معهم حسب زعمهم، ولكن ما هو الحال الآن؟ إنهم بأنفسهم يقرّون مرة بعد أخرى أن أكثرية الجماعة متمسكة بالخلافة. بل الحقّ أن غير المبايعين قد غيّروا أسلوب استدلالهم تماما، فكانوا يستدلون على صدقهم من قبل بقولهم إن أكثرية

---

31 "بيغام صلح"، ٢٢ مارس/آذار ١٩١٤

32 "بيغام صلح"، ٥ مايو/أيار ١٩١٤

الجماعة معهم، وحين جعل الله الأكثرية معنا أخذوا يقولون إن اتفاق الأكثرية على شيء ليس دليلا على كونه حقا، فقد ورد في القرآن الكريم صراحة ﴿أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾[33]. هذا يعني أنهم لما كانوا الأكثرية فكان دليلهم أن أكثرية أتباع النبيّ لا يضلّون، وعندما صرنا نحن الأكثرية طبقوا علينا قول الله تعالى ﴿أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾. ومهما يكن فقد اعترفوا بما لا يدع مجالا للشك بأنّ أنصارهم يقلّون، وهذا ما يبينه الله تعالى في هذه الآية القرآنية.

ثم يقول الله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾، أي أنهم يقولون هذا حسدًا على ما آتيناكم من حُكم وقوة، ولو كانوا يملكون المُلك لما أعطوا الناس نقيرا. والنقير هو الشقّ في نواة التمر، والمراد أنهم بخلاء جدا. وهذا هو حال غير المبايعين أيضا، إذ قالوا: كيف حاز صبيٌّ الخلافةَ؟

ثم يقول الله تعالى ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾، أي أنهم يقولون من شدة بخلهم: كيف نال هؤلاء الحُكم والخلافة؟ ألا يفكرون من هذا الذي حاز الحكم والسلطان الآن؟ أليس هو من آل إبراهيم؟ فإذا كان منهم فماذا يضره حسدهم؟ فقد أعطى الله آل إبراهيم الحكم والسلطان من قبل، وسيعطيهم إياه الآن أيضا.

---

33 التوبة ٨

ثم يقول الله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آَمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾. أي: لقد سبق أن آتينا آل إبراهيم الحُكم من قبل، فالذين رضوا بحكمهم نالوا العز، أما الذين رفضوه فنالوا العقاب. والحكم الذي سيُعطاه آل إبراهيم الآن سيكون مدعاة رحمة وبركة عظيمتين للناس؛ فطالما يعيشون تحت هذه الرحمة ولا يحاولون الهروب من هذا المُلك فسينعمون بالراحة والسكينة، ولكنهم إذا رفضوها فسيلقيهم الله تعالى في عذاب لا مناص لهم منه وسيعيشون في الآلام دائما.

ثم يقول الله تعالى ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. مِن فطرة الإنسان أنه يعتاد العذاب بعد فترة، ولا يتألم منه كما يتألم به في البداية. مهما كان المِلك ظالما فلا يشعر الناس بظلمه بعد مدة من الزمن كما كانوا يشعرون به من قبل، وهو الآخر يميل إلى اللين بعد مرور الأيام، ولكن لو جاء مكانه ملِكٌ ظالم آخر فيشعرون بظلمه كثيرا، ولذلك يقول الله تعالى لهؤلاء القوم: إذا رفضتم هذه النعمة فسوف يحكمكم ملوك مستبدّون، وسوف تتعاقب الحكومات بسرعة لتذوقوا وبال أمركم.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾. أي أن الذين يؤمنون ويعملون الصالحات

سنعطيهم مُلكًا عظيما وندخلهم جناتٍ ترافقهم فيها زوجاهم وينعمون فيها براحة وسكينة دهرًا طويلا.

الحق أن في هذه الآيات نبأً عن قيام الحكم الإسلامي، حيث أخبر الله تعالى بأن اليهود الذين يعارضون هذا الحُكم سيخسرون جدا ويقعون في عذاب دائم، لكن المؤمنين الذين يرضون بفضل الله هذا سـيمنحهم الله حياة الجنة وترافقهم فيها زوجاهم أيضا.

اعتراض بشعٌ من أعداء الإسلام على قوله تعالى ﴿أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾

إن كثيرا من أعداء الإسلام يعترضون على كلمات ﴿أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ قائلين: لقد جعل الإسلام الجنة دارًا للمومسات، حيث يذكر مع الجنة النساء، ويقول إهن يَكُنّ مع الرجال في الجنة.

الحق أن خبث باطن هؤلاء الجهلة هو الذي يجعلهم يعُدّون الجنة دارا للمومسات، وإلا فإن الإسلام يبين هنا أن الجنة تستحقها النساء كما يستحقها الرجال، وأن الجنة تُصنع بالتعاون بين الرجل والمرأة، وأن الرجل وحده لا يمكن أن يصنع جنة. ترون أن الله تعالى يتحدث هنا عن الحُكم الدنيوي، ويذكر في هذا السياق أنه لا بد من مشاركة النساء في بناء هذه الجنة، إذ لن تسمى جنة مكتملة من دون اشتراكهن. إن الرجل والمرأة كلاهما يصنعان الجنة معا، وإذا لم يبذلا جهودا موحدة فلن تُصنع أية جنة، لا جنة الدنيا ولا جنة الآخرة. لا بد لبناء جنة الدنيا

من أن يعمل الرجل والمرأة معًا، كما لا بد من اشتراكهما لبناء جنة الآخرة أيضا، أما إذا لم يصنعا هذه الجنة معًا فلن يتمتعا بالنعمة التي جاء وصفها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

لا جنة دنيوية ولا أخروية بدون تعاون الرجل والمرأة

لو أن الناس أستوعبوا هذا الأمر وأدركوا أهمية إشراك المرأة في حياة الأمة وأشركوها بالفعل لما آلت حالة الإسلام إلى ما هي عليه اليوم، وما كان حال العالم كما هو عليه اليوم، بل لكانت هذه الدنيا جنة ونال فيها الناس الجنة. والذين يحاولون الفوز بالجنة من دون إشراك المرأة فلا تكون جنتهم حقيقية، لأنّ من صفة الجنة أنها جنة عدْن.. ولا تتيسر جنة عدن من دون المرأة، بل لا يلبث الرجل أن يصنع جنةً إلا وتُخرِج المرأة أولاده منها، ذلك أن الأمة لا تتمتع بالجنة الخالدة من دون تربية الأولاد، وتربية الأولاد تتوقف على المرأة إلى حد كبير، لذلك يظل الإنسان دائما بحاجة إلى تعاون المرأة وشراكتها لتكميل الجنة. إذا كانت المرأة مثقفة وتقية ومحبة للدين وكان في قلبها وَلَه والتياع للعمل بأحكام الله ورسوله، فمن المحال ألا تحاول خلقَ هذه المشاعر في أولادها أيضا. إن الرجال عملهم صنع جنة اليوم، وأما النساء فعملهن إعداد جنة الغد. إن عمل الرجال صنع الجنة، وعمل النساء إعداد بُسْتانيّين جدد لهذه الجنة. أما إذا كان الرجل يبذل جهده لبناء هذه الجنة، كما كانت المرأة أيضا تبذل جهدها لبنائها، وكان الرجل يحافظ على تلك الجنة، وكانت

المرأة أيضا تنتج بُسْتانيين جددا للاعتناء بها، فمن ذا الذي يقدر على تدمير تلك الجنة؟ ومن الذي يستطيع أن يضر بوحدة الأمة وعظمتها وعلوّ شأنها؟ أما إذا مُنعت المرأة من الشراكة في بناء هذه الجنة فسرعان ما يتوقف إنتاج بستانيين جدد، وبالتالي لن تجدي تربية القدامى نفعًا، وإذا أصبحت تربية القدامى غير مجدية وتوقف إعداد الجدد أيضا فلن تخلد هذه الجنة أبدا، بل لا بد أن يدمرها الشيطان تدميرا.

حكمة عظيمة

فهذه حكمة عظيمة علّمَناها القرآن الكريم، ويقول الله تعالى للرجال إن عليكم بذل الجهد مع النساء من أجل حياة الأمة، أما إذا لم تشركوا النساء معكم في هذه المساعي فاعلموا يقينا أنكم لن تقدروا على بناء الجنة. لو جعلتم بجهودكم كل العالم مصلّين مرةً فما الفائدة من ذلك ما دامت أمهات أولاد هؤلاء المصلين سيجعلنهم غير مصلين؟ هذا يعني أنكم ستظلون تبنون الجنة، ونساؤكم سيظللن يسعين لتدميرها.

كان لنا قريب وكان يكره الدين جدا، ويضحك على أوامر الله ورسوله ويسخر منها دوما. فمرض ذات مرة وجاء إلى الخليفة الأول رضي الله عنه للعلاج، فقال له حضرته خلال الحديث: يحضر الناس إلى المسجد في جوارك لأداء الصلاة خمس مرات، ألم تغبطهم قط؟ أو لم يخطر ببالك بأن عليك أن تصلي أيضا؟ فضحك عاليًا وقال: أيها المولوي المحترم، إنني سليم الفطرة منذ الصغر، فمنذ طفولتي عندما أرى الناس ساجدين

وقد خفضوا رؤوسهم ورفع كلٌّ عجيزته، أضحك عليهم وأقول: ما أشدّ هؤلاء غباءً!

إذًا فحين تلد الأمهات أولادا سليمي الفطرة كهذا! فهل تدوم الجنة التي يبنيها الوعاظ بوعظهم ليوم واحد؟

إذا لم تشركوا المرأة معكم في كل القضايا، سواء أكانت علمية أو دينية أو سياسية أو اقتصادية، فإنها سوف تجعل أولادكم جاهلين بهذه القضايا جهلا تاما، وسوف يموت علمكم مع موتكم.

باختصار، لقد بين الله تعالى في هذه الآيات أن الرجل لا ينال الجنة الخالدة من دون المرأة، وهذه حقيقةٌ ثابتة. فالذين قد سمّوا الجنة الإسلامية دارًا للمومسات إنما أخرجوا ما في باطنهم من خبث وقذارة.

لقد أشار الله تعالى إلى هذه الجنة نفسها بقوله ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[٣٤]، وقوله ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾[٣٥].. أي ستكون لهؤلاء جنتان في الدنيا وجنتان في الآخرة، لأن الرجل يزرع جنةً، والمرأة تزرع جنة أخرى، وإليهما قد أُشير في كلمة ﴿جَنَّتَانِ﴾، وقد سُمِّيتا جنةً أيضا. وكأن هذا البستان بستانان من جهة، وبستان واحد من جهة أخرى، إنهما بستانان اثنان من حيث إن أحدهما نتيجة جهود الرجل، والآخر

[34] الرحمن ٤٧

[35] الرحمن ٦٣

نتيجة جهود المرأة، وهي جنة واحدة من حيث إن جنة الرجل والمرأة جنة مشتركة.

ثم يخبر الله تعالى أنه لا تكون جنتان في الآخرة فحسب، بل ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، أي هناك جنتان في الدنيا أيضا، والرجل مسؤول عن بناء إحداهما، والمرأة مسؤولة عن بناء الأخرى، وهكذا فإن المؤمنين ينالون جنتين في هذه الدنيا وجنتين في الآخرة.. أي أنهم يحققون النجاحات بنوعيهما، المادية والروحانية، والتي ستترك أثرها الدائم. وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا﴾[٣٦].. أي أن الذين يريدون أن ينالوا فوائد مادية من خلال الأموال والأسباب سينالون فائدة مؤقتة، ولكن الذين يقومون بالأعمال ابتغاء مرضاة الله تعالى فإن أعمالهم تصبح أبدية، فلا يثابون عليها ثوابا عاجلا فقط، بل ينالون عليها ثوابا دائما أيضا.

شرح حديث: "الجنة تحت أقدام الأمهات"

وإن حديث "الجنة تحت أقدام الأمهات" ينبّه إلى أنّ الأم إذا ربت أولادها تربية جيدة أنتجت جيلا صالحا، وأصبحت النعم التي ينالها الأب أبدية من خلال هذا الجيل، ولكن إذا أساءت الأم تربية أولادها، فإن ما أحرزه الأب سوف يموت بموته ولن تتمتع الدنيا بجنات عدن. وهذا هو مفهوم الحديث المروي عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ السَّلَمِيِّ، أَنَّ

[36] الكهف ٤٧

جَاهِمَةَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَدْتُ أَنْ أَغْزُوَ، وَقَدْ جِئْتُ أَسْتَشِيرُكَ. فَقَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَالْزَمْهَا فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ رِجْلَيْهَا."[٣٧]

يبدو أن هذا الرجل كان مصابا بعيوب، فرأى النبي ﷺ أنه لو بقي في صحبة أمه فإنه سيتخلص من عيوبه بحسن تربيتها. لعله كان حادّ الطبع، ففكّر رسول الله ﷺ أنه لو ذهب إلى الجهاد ازداد حدّة وغضبا، ولكن لو بقي عند أمه فإنّ طبعه الثائر سوف يلين بطول طاعته لها. مهما يكن فقد كان فيه عيب ما، ورأى الرسول ﷺ أنّ تربية أمه له أفضل من الذهاب إلى ساحة القتال، فأمره بخدمتها. وهذا الحديث أيضا يبين أن الجنة لا تُنال من دون تعاون المرأة.

باختصار، لا بد من وجود المرأة في الجنة، ليس في الجنة الأخروية فحسب، بل في الجنة الدنيوية أيضا، لأن نجاح الأمة من دون ذلك مستحيل.

الأمر بأداء الأمانة إلى أهلها

ثم يخبر الله تعالى في الآيات قيد التفسير أن هذا الفضل والرحمة اللتين ستنعمون بهما بحاجة إلى نظام، إذ يستحيل أن تنال الأمة هذه النعمة بالتمرد والفوضى، ولذلك ندلّكم على ما لا بد لكم منه من إجل إنشاء هذه الجنة، وهو ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾.. أي

[37] النسائي، كتاب الجهاد، باب الرخصة في التخلف لمن له والدة

أن الحُكم الدنيوي والأموال والأملاك التي في قبضتكم إنما هي أمانـــات الله في أيديكم، ونأمركم أولاً أن تؤدوا هذه الأمانات إلى أهلها، أي أن تختاروا لكم رؤساء هم أهلٌ لحمل هذه الأمانة، ونأمركم ثانيًـــا ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوْا بِالْعَدْلِ﴾.. أي نأمر الذين تُسلَّم إلـــيهم هذه الأمانة أن يعملوا بالعدل والإنصاف. مما يعني أن الله تعالى أصـــدر أوامره هنا للطرفين؛ فمن ناحية قال: أيها الناس، إننا نأمركم أن تضعوا زمام الحُكم دائما في أيدي من هم أحقّ الناس وأجدرهم بالحفاظ عليه وإدارته، ثم قال للفئة الأخرى: يا أهل الحُكم، إننا نأمركم أن تعـــاملوا الرعايا بالعدل والإنصاف، ولا تحيدوا عن القسط أبدا.

ثم يقول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّـــهَ كَـــانَ سَـــمِيْعًا بَصِيْرًا﴾.. أي أن حُكم الله هذا ينطوي على حِكم عظيمة، فهو يأمركم دائما بما هو خير لكم، وإنه سميع بصير.

ثم إذا قام النظام فإن الله تعالى يأمر ويقول: علـــيكم أن تتوجهـــوا إلى تحقيق الهدف من إقامة النظام وهو تمكين الدين، فتهتمّوا بالعمل بالأحكام المتعلقة بالعبادات القومية والأعمال القومية. علمًا أن العبادات والواجبات تكون فردية وتكون قومية أيضا، والفردية منها لا تكون بحاجة إلى النظام، ولا علاقة لها بانتخاب الأمراء، وعليه فقوله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُـــوا الرَّسُولَ﴾ بعد انتخاب الأمراء إنما يعني أن الهدف من إقامة النظام هو أداء العبادات القومية والواجبات القومية على أحسن وجه، لذا فمن واجبكم

بعد إقامة النظام السعي لتحقيق الغرض من إقامته، وليس أن تقيموا النظام ثم تجلسوا عاطلين في بيوتكم، وتحمّلوا الأمراء أعباء الأعمال كلـــها. إن الأمراء ليسوا لأن يعملوا فحسب، وإنما ليجعلوا الناس يعملون أيضا، فإذا اختير الأمراء فمن واجبكم أن تؤدوا واجباتكم تجاه الأمة، ولذلك قـــال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْـــرِ مِنْكُمْ﴾.. أي قد قامت عليكم بعد انتخابكم أمراءَكم ثلاث حكومات: حكومة الله، وحكومة الرسول، وحكومة أولي الأمر. غير أن الله تعـــالى يوضح ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ﴾.. أي سوف يقدم الأمراء شتى الخطط والمشاريع لأداء هذه المهام، فواجبكم أن تطيعوهم في تنفيذ هذه المـــشاريع، ولكـــن إذا اختلفتم معهم في شيء فرُدُّوه إلى الله ورسوله، أي أزيلوا هذا الاختلاف على ضوء المبادئ التي أقرّها الله ورسوله، ولا تتبعوا أهـــواء أنفـــسكم، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا﴾.

لقد بين الله تعالى هنا صراحة أنكم إذا سلّمتم صـــلاحيات الحُكـــم للأكفاء منكم، فعليكم بطاعة أحكامهم إضافةً إلى طاعـــة أحكـــام الله ورسوله. لقد قال الله هذا لأنه قد بين من قبل نوعية الحُكومة وقال إنه لا بد لكم من أجل الرقيّ أنْ تضعوا زمام أمركم في يد شخص، وانتخبـــوه بناء على كفاءته وجدارته، لا نظرًا إلى قرابته وصداقته معكم منةً عليـــه. ذلك أن هذا ما يحدث عادةً في الدنيا، إذ يصوّتون لقريب أو صديق بغض

النظر عن كفاءته بالقيام بالمنصب، ولكن الله تعالى يعلن أن الانتخاب في الإسلام يجب ألا يكون على هذا النحو أبدا، فلا تنتخبوا أحدًا لمجرد أنه والدكم أو ابنكم أو أخوكم، بل سلّموا هذه المسؤولية لمن هو أهل لها، بغض النظر عما إذا كانت بينكم وبينه أية قرابة أو صداقة أم لا.

ثم يقول الله تعالى إذا انتخبتم الأمراء فسوف يقدمون أمامكم بعض المشاريع والخطط لرقي الإسلام حتمًا، فلذا نأمركم أن تطيعوا أحكامهم سواء استوعبتموها أم لا، وإذا اختلفتم معهم في شيء فرُدُّوه إلى الله والرسول.. أي رُدُّوه إلى أحكام الله ورسوله.

إن منكري الخلافة يطيرون فرحًا بقراءة قول الله هذا، ويقولون: الآن حُلَّت المشكلة، وعلمْنا أن طاعة الخلفاء ليست ضرورية، بل إذا كان أمرهم حسب الشريعة نطيعهم فيه، وإذا كان خلافها نرفضه.

سوف أرد على هذا الاعتراض بعد قليل إن شاء الله.

أسس النظام الإسلامي في القرآن

أودّ أن أبيّن هنا أن القرآن الكريم قد ذكر الأحكام عن النظام الإسلامي، وهي تحتوي على الأسس التالية:

١: نظام الأمة أمانةٌ، لأنه لا يؤثر على شخص واحد، بل يؤثر على الأمة كلها، لذا فعند أخذ القرار بشأنه يجب ألا تفكروا في مصالح شخصية، بل ضعوا في الاعتبار احتياجات الأمة ومصالحها.

٢: أداء هذه الأمانة بحاجة إلى نظام لا يمكن أن تؤدَّى من دونه، بمعنى أن الأفراد لا يستطيعون أداء هذه الأمانة فردًا فردا، بل لا بد من مشرف على أدائها.

٣: وهؤلاء المشرفون يجب أن تنتخبهم الأمة.

٤: يجب أن يُنتخب مَن هم أهل لأداء هذه الأمانات، ويجب ألا يوضع في الاعتبار أي أمر آخر عند الانتخاب.

٥: والذين تُسلَّم إليهم هذه الأمانة فإنهم لن يملكوا أمر القوم، بل يكونون مجرد مدراء له فقط، حيث قال الله تعالى ﴿إِلَى أَهْلِهَا﴾، أي أن هذا الأمر لا يوضع في أيديهم لأنهم ملكوه وورثوه عن الآباء، وإنما لأنهم كانوا أهلاً للقيام به. هذه الأحكام لا تخصّ النظام الديني فقط، بل كما هو واضح من هذه الكلمات فهي عامة تشمل النظام الديني والدنيوي أيضا. ويتضح منها أيضا أن الإسلام لا يعتبر الحُكم الملكي جزءًا من نظامه، بل يسلّم بالنظام الانتخابي فقط، ثم يأمر أبناءَ الأمة بطاعة مَن يُسلَّم إليهم زمام هذا النظام.

هل يجيز الإسلام حكومة دنيوية بحتة

لو قيل: هل يسلّم الإسلام بحكومة دنيوية بحتة أم لا، فالجواب: إذا كانت الأسباب مواتيةً ومؤيدة للإسلام، وكان الإسلام حرًا، فإنه لا يسلِّم بإقامة نظام دنيوي بحت في هذا الوضع، غير أنه لا يغضّ الطرف أيضا عن تغيّر الأوضاع، إذ قد تصبح إقامةُ ذلك النظام الراقي الذي

يطمح إليه الإسلام محالاً في وقت من الأوقات، فتمسّ الحاجة إلى نظام دنيوي. فمثلا يمكن في وقت من الأوقات أن يصبح عدد لا بأس به من المسلمين تحت ربقة حكومة الكفار، وتُسلب حريتهم، وتتشتت قوتهم، فيتعذر على البلاد التي يكون فيها الإسلام غالبًا إقامةُ النظام الديني والدنيوي معًا للمسلمين جميعا، لأن أكثريتهم المشتتة في بلاد الكفار لا تستطيع اتّباعه، فيجوز في هذه الحالة الاضطرارية إقامة نظام دنيوي بحت في البلاد الإسلامية على الأسس التي قدَّمها الإسلام، والمذكورة آنفا.

مفهوم النظام الدنيوي البحت

علمًا أنه ليس المراد من إقامة النظام الدنيوي البحت في البلاد الإسلامية أن هذا النظام لن يطبق أحكام الإسلام المتعلقة بالحكومة، بل المراد أن أوامر هذا النظام لا تكون واجبة العمل بها لباقي العالم الإسلامي دينيا، وذلك لأن أكثرية المسلمين لا يمكن أن تلتزم بأوامره كونهم مقيمين في بلاد الكفار، كما لا تكون لأكثريتهم يدٌ في إقامته.

وفي مثل هذه الأوضاع، يجوز، بل الواجب، إقامة نظام ديني صرف منفصلاً عن النظام الدنيوي البحت، يقوم بتنظيم جميع المسلمين روحانيا، ولا تكون له أية علاقة بأية حكومة، ذلك لكي لا تتدخل فيه الحكومات الأخرى. فلأنه يكون نظاما روحانيا بحتًا لا يتدخل في أمور الدول، فيستطيع توحيدَ المسلمين القاطنين في شتى الدول، الإسلامية منها وغير

الإسلامية، وهكذا ينجو الإسلام من التشتُّت. ولو أن المسلمين عملوا بمفهوم هذه الآية لما رأوا الانحطاط الذي رأوه في آخر الزمان.

خطأ للمسلمين يبعث على الأسف

لقد وقع المسلمون زمن انحطاطهم في خطأ فادح، إذ ظنوا أنهم إذا كانوا لا يستطيعون إقامة نظام ديني ودنيوي معًا في العالم فيستحيل عليهم أن يقيموا نظاما دينيا بحتا أيضا. لقد ظنوا أن هذين النظامين لا يمكن أن ينفصل أحدهما عن الآخر في أية حالة، فإذا استحال عليهم إقامة أحدهما لم يهتموا بإقامة الآخر أيضا. مع أنه كان من واجبهم أنهم لما فقدوا الخلافة أن يقولوا فيما بينهم هلمّوا نجعل لنا مركزا من أجل قضايا الأمة وننشر الإسلام في العالم كله. فكان عليهم تحت توجيهات هذا المركز أن ينشروا شبكات التبليغ في العالم ويسعوا لإصلاح أخلاق الناس وتعليمهم القرآن وإدخال غير المسلمين في الإسلام وبذل جهود موحدة من أجل قضايا الأمة المشتركة. ولكنهم ظنوا أنه لم يبق أمامهم الآن سبيل لإقامة نظام ديني بحت، فظلوا يتردَّون إلى الحضيض باستمرار. ولو أنهم بعد فشلهم في إقامة نظام يشمل الدين والدنيا معًا أقاموا نظاما دينيا خالصا لنجوا من دمار عظيم، ولكان الإسلام غالبًا اليوم بحيث لم يوجد للمسيحية أثر في العالم. ولكنهم ظنوا خطأً أنهم إذا كانوا لا يقدرون على إقامة نظام جامع لأمور الدنيا والدين فلا سبيل

لهم لإقامة نظام ديني بحت، وهكذا حين فشلوا في إقامة نظام لم يفكروا في إقامة نظام آخر أيضا.

خطأ آخر

والخطأ الآخر الذي ارتكبوه أنهم ظنوا أن الانتخاب يتم فقط من أجل نظام جامع لأمور الدنيا والدين للمسلمين كلهم، مع أن الله تعالى قد قال في هذه الآيات صراحة أن الانتخاب ضروري من أجل نظام دنيوي بحت، كما أنه ضروري من أجل نظام جامع لأمور الدنيا والدين. ليتهم إذا أرادوا اختيار مِلك اختاروه بعد انتخاب على الأقل، ولو فعلوا ذلك لنجوا من الدمار إلى حد كبير. ولكنهم تركوا طريقة الانتخاب كليةً، مع أنهم لو أدركوا أهمية هذا الأمر لما سادت الملوكية التي شاعت في الإسلام ودمرت اليوم الدولة الإسلامية، ولاستمرت جهود المسلمين لإقامة نظام الحكم الإسلامي، ولكانوا رُوّادًا في رقيّ الديمقراطية على أسس صحيحة وكانوا أفضل حملة لوائها.

الدليل على أهمية إقامة نظام دينيّ خالص عند تفرُّق المسلمين دولا شتّى

أما الدليل على ضرورة إقامة نظام دينيّ خالص في حالة الخلافات بين المسلمين، فهو أن الله تعالى يخاطب في هذه الآية المسلمين كافةً، ويأمرهم بطاعة أولي الأمر منهم دوما، وليس هناك أي تخصيص لعصر

دون عصر فيما يتعلق بطاعة أولي الأمر، بل أُمرنا بطاعتـــهم في كـــل ظرف وزمان. لو قال أحد بأن الأمر بطاعة أولي الأمر كان أمرًا مؤقتا، فلا بد له من الإقرار بأن الأمر بطاعة الله ورسوله كان أمرا مؤقتا أيضا، لأن الله تعالى قد قال ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ قبل أن يأمر بطاعة ﴿أُولِي الأَمْرِ﴾، فإذا كان العمل بأحكام الله ورسوله ضروريًا في كـــل ظرف وزمان فثبت أن العمل بحكم إطاعة أولي الأمر أيضا ضروري في كل ظرف وزمان. والحق أن الله تعالى قد نبّه المسلمين هنا أن لا بد لهم من الالتزام بنظام ما في كل وقت. فكما أنه إذا استحال العمل بجزء من حكم فلا يعفى المرء من العمل ببقية الحكم، فمثلا إذا لم يقدر المرء على الجهاد فلا يعفى من الصلاة، وإذا لم يستطع الوضوء فلا يعفـــى مـــن الركوع والسجود، وإذا لم يستطع الصلاة قائما فلا يعفى من الـــصلاة قاعدا أو بالإشارة، كذلك إذا لم يمكن إقامة نظـــام سياســـي للعـــالم الإسلامي كله فإن المسلمين لا يُعْفَون من طاعـــة أولي الأمـــر فيمـــا يستطيعون طاعتَهم فيه. فمثلا إذا لم يستطع الحاجّ السعيَ بين الـــصفا والمروة فلا يعفى منه، بل لا بد له من أداء هذا الواجب ولو راكبًا على ظهر شخص آخر.

إذن، لقد وقع المسلمون في خطأ فادح بظنهم أنه ما دام قد استحال عليهم إقامة نظامٍ معين فهم معفَون من إقامة نظام آخر، مع أن إقامـــة نظام ديني خالص ليس مستحيلا رغم تفرُّق المسلمين دولاً مختلفة، كما

نرى اليوم على أرض الواقع أن الله تعالى قد أقامه بظهور المسيح الموعود عليه السلام. عندما يقول لنا الناس: لماذا لا تقطعون يد السارق؟ نقول: هذا ليس باستطاعتنا، ولكن الأمور التي نتمتع بالحرية للعمل بها، فنرى أن السعي لإقامة النظام الإسلامي بشأنها في جماعتنا هو مِن أوّل وأهمّ واجباتنا. ولو أن المسلمين أدركوا أن طاعة أولي الأمر واجبة عليهم في كل وقت وعصر، ولو أنهم أقاموا النظام الإسلامي في الأمور التي كانوا قادرين على إقامته فيها، عدا ما لم يستطيعوا طاعة أولي الأمر منهم فيه، لعُدّوا من العاملين بهذا الحكم القرآني ولما آل الإسلام إلى ما آل إليه اليوم من زوال وإدبار. ولعل المشيئة الإلهية اقتضت أن يتمّ العمل بهذه الجزئية من حكم الإسلام هذا بواسطة جماعة المسيح الموعود عليه السلام، وأن تحظى جماعة ﴿آخَرِينَ مِنْهُمْ﴾[38] بهذا الفضل والشرف، إذ لا بد أن يكون لنا أيضا نوع من الفضل. لقد نال صحابة رسول الله ﷺ فضل إقامة النظام الديني والدنيوي معًا على أسس الإسلام، بينما نبَّهَنا الله ﷻ نحن المسلمين الأحمديين إلى إقامة النظام الديني الخالص، بتعبير آخر لقد عمل الصحابة بجزئيةٍ من هذه الآية، وعملنا نحن بجزئيتها الأخرى، وهكذا التحقنا بالصحابة.

قصارى القول: إن هذه الآية من سورة النساء تبيّن مبادئ إقامة النظام الإسلامي؛ حيث أمرنا الله تعالى فيها:

---

[38] الجمعة ٤

١: أن يكون النظام الإسلامي مبنيًا على الانتخاب.

٢: أن يكون المسلمون تابعين لأولي الأمر منهم في كل زمان.

ولكن المؤسف أن المسلمين نسوا هذين المبدأين زمن انحطاطهم، فما التزموا بمبدأ انتخاب حكامهم مع قدرتهم على ذلك في بعض الأماكن، كما لم يقيموا النظام القائم على طاعة أولي الأمر منهم فيما كان بوسعهم من أمور أخرى، وهكذا لم يحافظوا على وحدة الأمة. لقد خاضوا نقاشات عقيمة بأنّ عليهم أن يطيعوا أولي الأمر منهم فقط، مما جعلهم يهملون الغاية الأساسية من هذا الحكم، مع أنهم لو عملوا بهذا الحكم في الأمور التي كانت في قدرتهم لما قامت عليهم الحجة فيما لم يكن بوسعهم.

الرد على اعتراض يثار بخصوص ﴿أُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾

لعل أحدًا يعترض هنا بأن من تعاليم الجماعة الإسلامية الأحمدية أنّ قول الله ﴿أُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يشمل طاعة أولي الأمر من غير المسلمين أيضا، وبالتالي فإن طاعة الحكام غير المسلمين فرضٌ عليهم بحسب هذه الآية، ولكن المعنى الذي ذكرتَ للآية الآن لا يشمل الحكّام غير المسلمين.

والجواب: هذا قول سليم، ولكن المعنى الذي ذكرتُه آنفًا إنما هو معنى كلمات: ﴿أُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ فقط، أعني أننا عندما نقول بأن الحكام غير المسلمين داخلون في ﴿أُولِي الأَمْرِ﴾، فلا نقول به نظرًا إلى كل هذه

الآيات معًا، وإنما نقول به نظرًا لـــهذه الجزئية من الآية أعني ﴿أُولِـــي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ فحسب، غير أننا لا يمكننا إهمال مفهوم هـــذه الفقـــرة مرتبطةً بالآيات كلها.

لا شك أنه تجب علينا طاعة كل واحد من ﴿أُولِي الأَمْرِ﴾ في شؤون الدنيا، إلا أننا لا نستطيع أن نغض الطرف عن الأمر الرباني بأن علـــى المسلمين طاعة أولي الأمر المسلمين المنتخبين من بينهم في أي عصر.

معنى ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ عند الاختلاف مع أولي الأمر

أتناول الآن الموضوع الذي وعدتُ أني سأجيب عليه لاحقًا، أعني أن البعض يعترض هنا قائلا: لقد أمرنا الله تعالى هنا أنكم إذا اختلفتم مـــع أولي الأمر في شيء ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، مما يعني أن طاعة أولي الأمر ليست واجبة علينا في كل حال، بل من واجبنا عند الاخـــتلاف معهم أن نرى ماذا يحكم به الله ورسوله في تلك القضية.

والرد على ذلك أننا لو فسّرنا هذه الآية بهذا المفهوم لصارت الآيـــة كلها بلا جدوى، ذلك أن كل شخص يظنّ أنه مصيب في رأيه، فلـــو فسّرنا الآية بهذا المفهوم فلا يمكن طاعة أولي الأمر أبدا. فما هو الأمـــر الذي سيتفق عليه الناس كلهم جميعا بأنه حُكم الله ورسوله؟ كلا، بل لا بد أن يختلف فيه البعض. ولو خُيِّر كل واحد منهم، والحال هذه، لقال بمجرد سماع حكم من أحكام الخليفة بأن هـــذا خـــلاف تعـــاليم الله

ورسوله، وبالتالي فلن يستطيع الخليفة أن يحكم غيرَه بل سيحكم نفسَه فحسب، ولا سيما في هذا العصر، إذ المطيعون فيه قلة والمجتهدون كثرة، ويرى كل شخص أنه صاحب الرأي السديد. في هذه الحالة سيصرخ الخليفة في مكانه أنْ اعملوا كذا وكذا، فيردّ عليه القوم: أَثبِتْ لنا أولاً أنّ حكمك متفق مع القرآن والحديث، وإلا لن نطيعك. وواضح أنه ليس هناك أيّ أمر دينيّ يتفق عليه الناس كلهم جميعا مئة بالمئة، بل يبقى في كل قضية شيءٌ من الاختلاف.

هناك طريفة بأن أحدا كان يحبّ الجلوس في مجالس المشايخ، ولكنه كان شديد الجهل بالدين، فكان يُخرَج من كل مجلس ذليلاً مهانا. فذكر لبعض أصدقائه مرةً أنه يحب حضور مجلس العلماء، ولكن الناس لا يسمحون له بذلك. فقال له صديقه: عليك أن تلبس عباءة كبيرة وعمامة ضخمة، فيظن الناس برؤية مظهرك أنك عالم كبير، فلن يمنعوك من حضور مجالسهم، وإذا جلست بينهم وسُئلت عن مسألة فقُلْ: هذا أمرٌ مختلف فيه، وقد قال البعض بجوازه وقال البعض بخلافه، ولأنّ هناك اختلافا كبيرا في المسائل فلن ينتبه أحد إلى جهالتك. فلبس عباءة كبيرة وعمامة ضخمة وأخذ العصا بيده، وبدأ يتردد إلى مجالس العلماء، وكلما جلس في مجلس ظلّ مطأطئ الرأس كل الوقت، وإذا قال له الناس: حضرة الشيخ، تفضلْ برأيك أيضا، حرّك عنقه وقال: لا جدوى من الخوض في هذه المسألة، فقد اختلف العلماء فيها كثيرا، فقال

بعضهم كما قال هذا الشيخ، وقال آخرون خلافه. فكان الناس يظنون أنّه علامة كثير المطالعة، ويقولون: نعم، الأمر هكذا، فاتركوا النقاش في هذه المسألة وتوجهوا إلى مسألة أخرى. ومضت الأيام على هذا المنوال، وظلّ هذا الجاهل يلقى الحفاوة والتكريم في مجالس العلماء، وذات يوم جرى الحديث بأنّ هذا الزمان قد فسد جدا حتى بدأ المثقفون ينكرون وجود الله تعالى، ويقولون: إذا كان الله موجودا فما الدليل على ذلك؟ فقال أهل المجلس كعادتهم لهذا الجاهل: حضرة الشيخ، ماذا تقول في ذلك؟ فأجاب: لا فائدة من الخوض في هذه المسألة، فقد قال بعض العلماء أن الله موجود وقال غيرهم أنه غير موجود. ففُضح وأخرجوه من مجلسهم يدعّونه دعًّا.

فثبت من هنا أنه يوجد في الدنيا اختلاف كثير، لذا فلو فُسّر قوله تعالى ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ على أنه كلما اختلف أحد مع الخليفة في شيء فعليه أن يعترض على الخليفة بشدة قائلا إنك تأمرني بخلاف ما قال الله ورسوله! وبالتالي سيتعرض الخليفة للإساءة والإهانة حتى يصعب عليه القيام بمهام الخلافة يوما واحدا. فهذا المفهوم مخالف للعقل تماما، وقد تعثَّر البعض من جماعتنا أيضا بسبب فشلهم في إدراك المفهوم الصحيح لهذه الآية، ولو عرفوا معناها الصحيح لما وقعوا في هذا العثار.

قوله تعالى ﴿وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يشمل الحكام الدنيويين والخلفاء الراشدين

إذن، ما هو المفهوم الصحيح لهذه الآية؟

لمعرفة ذلك المفهوم يجب الانتباه إلى أنّ هذه الآية عامة؛ فهي تشمل الحكام الدنيويين وكذلك الخلفاء الراشدين. إنها لا تتحدث عن خلفاء الإسلام فقط، بل تتحدث عن الحكام الماديين أيضا.

بعد الأخذ في الحسبان بأن هذه الآية عامة وشاملة للحكام الدنيويين والخلفاء الراشدين، اعلموا أن القرآن الكريم قد أعطى عن كل واحد من نوعيْ هؤلاء الحكام أحكاما منفصلة؛ ففي الشريعة الإسلامية أحكام تخص الحكّام الماديين، وفيها أحكام أخرى تخص الخلفاء الراشدين، لذا فقول الله تعالى ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ لا يعني أنكم إذا اختلفتم مع أولي الأمر فعليكم أن تروا كيف تفهمون أنتم حكم الله ورسوله، وإنما المراد أن عليكم أن تنظروا عند الاختلاف إلى نوعية ولي الأمر الذي اختلفتم معه، لأنّ الحكم الوارد في هذه الآية عام يشمل الخلفاء الراشدين والحكام الدنيويين أيضا، فإن كانوا خلفاء راشدين فعليكم العمل بما أمركم الله ورسوله عند الاختلاف مع الخلفاء الراشدين، وإن كانوا حكاما دنيويين فعليكم العمل بما أمركم الله ورسوله عند الاختلاف معهم.

أحكام منفصلة عن أولي الأمر بنوعيهم

ولننظر الآن، هل آتانا الله تعالى ورسوله أحكامًا منفصلة عن أولي الأمر بنوعيهم أم لا؟ وما هي؟

نجد أن رسول الله ﷺ قد آتى أحكاما منفصلة عن أولي الأمر بنوعيهم.

فعن عُبَادَةَ بْنِ الصامت، قَالَ: بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ.[٣٩]

وفي رواية البخاري: "وَأَنْ لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِن اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ."[٤٠]

أي أننا بايعْنا رسول الله ﷺ، وكان من شروط البيعة أننا سوف نطيع حكامنا دائما، سواء في العسر أو اليسر، وإن شئنا أو كرهنا أحكامهم، وحتى وإن بخسونا حقنا، وكان من هذه الشروط أيضا أننا إذا سلَّمنا زمام الحكم في يد أحد باعتباره أهلاً له فلا نخاصمه، ولا نقول له لماذا تأمرنا بهذا وذاك. إلا أنه من الممكن أن يأمرنا بعض

---

[39] مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية

[40] البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم ستـرون بعدي أمورا تنكرونها

حكامنا بما يخالف الدين، وفي هذه الحالة أُمرنا بأن نقول الحقّ ونخبره بالحقيقة غير خائفين في دين الله لومة لائم. وفي رواية أن رسول الله ﷺ أمرنا ألا نخاصم أهل الحكم الذين سلّمنا زمامه في أيديهم، إلا أن نرى منهم كفرًا واضحا عندنا فيه نصّ قرآني صريح. وقال: من واجبكم عندها أن ترفضوا طاعته في هذا الأمر المخالف للدين، وأن تعملوا بما يأمركم به الله.

كذلك ورد في حديث آخر عن عَوْف بْن مَالك الْأَشْجَعيّ، قال: سَمعْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ يَقُولُ: "خيَارُ أَئمَّتكُمْ الَّذينَ تُحبُّونَهُمْ وَيُحبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشرَارُ أَئمَّتكُمْ الَّذينَ تُبْغضُونَهُمْ وَيُبْغضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ." قَالُوْا، قُلْنَا: يَا رَسُوْلَ اللَّه، أَفَلا نُنَابِذُهُمْ عنْدَ ذَلكَ؟ قَالَ "لا، مَا أَقَامُوا فيكُمْ الصَّلاةَ، لا، مَا أَقَامُوا فيكُمْ الصَّلاةَ. أَلا مَنْ وَليَ عَلَيْه وَالٍ، فَرَآهُ يَأْتي شَيْئًا منْ مَعْصيَة اللَّه، فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتي منْ مَعْصيَة اللَّه، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا منْ طَاعَة."[41]

أي أنّ أفضل حكامكم الذين يحبونكم وتحبونهم وتُصلُّون عليهم، أي تدْعون لخيرهم ورقيهم وهم يدعون لخيركم ورقيكم، وأن شرَّ حكامكم الذين تكرهونهم ويكرهونكم وتلعنونهم وهم يلعنونكم، ويقول الراوي: قلنا يا رسول الله، إذا تسلّطَ علينا مثل هؤلاء الحكام أفلا نحاربهم وننزع منهم الحكم؟ فقال رسول الله ﷺ مرتين: كلا، ثم كلا، لا

[41] مسلم، كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم

تخرجوا عن طاعتهم ما داموا لا يمنعونكم من عبادة الله ومن الصوم والصلاة. ألا فاسمعوا، إذا وُلّي عليكم حاكم ورأيتم أنه يعصي الله في بعض الأمور فعليكم أن تكرهوا أفعاله هذه، ولكن لا تتمردوا عليه.

وفي حديث آخر نجد حكمًا إضافيا، وهو أنكم إذا رأيتم منه كفرا بواحا فيمكن أن تبغوا عليه.

الأمر باتباع سنة الخلفاء الراشدين دائما

وعلى النقيض نجد في الحديث ما رواه العرباض بن سارية، قال: صَلَّى بنَا رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ الصُّبْحَ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، فَوَعَظَنَا مَوْعظَةً بَليغَةً ذَرَفَتْ منْهَا الْعُيُونُ وَوَجلَتْ منْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائلٌ: يَا رَسُولَ اللَّه، كَأَنَّ هَذه مَوْعظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: "أُوصيكُمْ بتَقْوَى اللَّه وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَة وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعشْ منْكُمْ بَعْدي فَسَيَرَى اخْتلافًا كَثيرًا، فَعَلَيْكُمْ بسُنَّتي وَسُنَّة الْخُلَفَاء الرَّاشدينَ الْمَهْديِّينَ، فَتَمَسَّكُوا بهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّوَاجذ. وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَات الأُمُور، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بدْعَةٌ، وَكُلَّ بدْعَة ضَلالَةٌ."[٤٢]

لقد ثبت من هذه الأحاديث بنوعيها أن رسول الله ﷺ قد جعل أولي الأمر نوعين؛ حكاما دنيويين، وحكاما دينيين وإسلاميين. أما الحكام الدنيويون فأمرَنا بطاعتهم شريطة ألا يكون أمرهم كفرًا بواحا ثابتا بالبرهان لا بالقياس، ولم يسمح بعدم طاعتهم في هذه الأمور الكفرية

[42] مسند أحمد

فقط، بل أمر بذلك، وإن كان بعض علماء الإسلام مثل الشيخ "محيي الدين بن عربي" قد توخّى الحيطة الشديدة في هذا الأمر، حيث قال يمكنكم في هذه الحالة أن تعلنوا الانفصال عنهم في هذه الأمور وليس أن تتمردوا عليهم.

أما أولو الأمر الدينيون والإسلاميون فلم يجعلنا رسول الله ﷺ حكَمًا عليهم، بل جعلهم حكَما على الأمة وقال: إن ما يفعلونه هو حجة عليكم، ولا بد لكم من اتّباع طريقتهم كما تتبعون أوامري.

فالحكام نوعان؛ حكام دنيويون قد يرتكبون كفرا وقد أُمرنا بطاعتهم باستمرار، إلا أنْ يصدر منهم كفر بواح، وفي هذه الحالة علينا أن ننفصل عنهم. وحكام آخرون لا يمكن أن يرتكبوا خطأً، وقد أُمرنا أن نتّبع سنتهم وطريقتهم دوما، ولا ننحرف عن صراطهم، بل قيل: إذا ساورتكم شبهة فيما إذا كانت عقائدكم صحيحة أم لا، فعليكم أن تقيسوها على عقائد هؤلاء الخلفاء الراشدين، فإن انسجمت معها فاعلموا أن قدمكم على الصراط المستقيم، أما إن لم تنسجم معها فاعلموا أنكم قد انحرفتم عن الصراط المستقيم.

الخلفاء الراشدون ميزان للأمة

هذا يعني أن الخلفاء الراشدين ميزان يقيس به الناس ما إذا كانت خطواهم سائرة على جادة الصواب أم أهما قد حادت عنها. إذا كان المعيار ٢ كيلو غرام في كفّةٍ مثلا، وكانت الخضار كالجزر واللفت

وغيرهما في كفّة أخرى، فكلٌّ إنسان سوف يزن الخضار بحسب المعيار، وليس أنه لو كانت بضع حبات من الخضار أقل من وزن المعيار فيأخذ المعيار ويرميه بعيدا ويقول إنه ليس صحيحا. كذلك فإن رسول الله ﷺ لم يقل لنا بأن عليكم أن تقيسوا أعمال الخلفاء وتروا هل تقبلها عقولكم أم لا، وهل هي تتفق مع أحكام الله ورسوله حسب أفهامكم أم لا؟ بل قال: إذا انتابت قلوبكم شبهة فيما إذا كانت أعمالكم تتفق مع رضى الله ورسوله أم لا، فعليكم أن تقيسوها بما قاله وفعله الخلفاء الراشدون بشأنها، إذا انسجمت مع طريقة الخلفاء الراشدين فهي صحيحة، وإذا خالفت طريقتهم فهي باطلة.

فعندما يأمرُنا الله تعالى بردّ الأمر المختلف فيه إلى الله ورسوله فهو يشير إلى هذه الأحكام التي ذكرتها آنفا، أي عليكم أن تروا ما هي نوعية الحاكم الذي تختلفون معه، هل هو من الحكام الدنيويين أم من الخلفاء الراشدين؟ إذا كان من الحكام الدنيويين فأطيعوه ما استطعتم، ولكن إذا أمركم بما يخالف نصًّا صريحا فيحقّ لكم أن تنبّهوه إلى خطئه وترشدوه إلى الصواب، وتخبروه بأنه يسلك مسلكًا خطأ، وإن لم ينته ووقع في كفر بواح كأنْ يمنعكم من الصلاة أو الصوم، فلكم الحقّ ألا تطيعوه في مثل هذه الأحكام وتقولوا له: سوف نصلي وسوف نصوم رغم أنفك.

أما إن كان صاحب الأمر من الخلفاء الراشدين فاعلموا أنه لا يمكن أن يخطئ، بل كل ما يفعله يكون بحسب مشيئة الله تعالى وسيسيّرهم

على الطريق المستقيم عنده تعالى، فبدلاً من أن تحاولوا أن تكونوا حكمًا عليه اجعلوه حكَمًا عليكم ولا تختلفوا معه لكي لا تكونوا من المختلفين مع الله تعالى.

مناقشة آية الاستخلاف

وبعد هذا الحكم العام أتناول الأحكام التي تتعلــق بالنظــام الــديني الإسلامي البحت.

يقول الله تعالى في سورة النور: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَــا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ * وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِــنْكُمْ وَعَمِلُــوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِــنْ قَــبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًــا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْــدَ ذَلِــكَ فَأُولَئِــكَ هُــمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُــوا الرَّسُــولَ لَعَلَّكُــمْ تُرْحَمُونَ﴾.[٤٣]

في هذه الآيات قد أمرنا الله تعالى أولاً بطاعته ورســوله، ثم وعــد المسلمين أهم إذا كانوا كاملين في الطاعة فإن الله تعالى يجعلــهم هــم المطاعين، ويجعلهم خلفاء في الأرض كالأمم الــسابقة، ويكــون مــن واجبهم عندها أن يقيموا الصلاة ويؤدوا الزكــاة، وهكــذا يطيعــون

[43] النور ٥٥-٥٧

الرسول.. أي أنهم بتمكين الدين مع الخلفاء سيُعدُّون ممن يطيعون الرسول. وكأن الله تعالى قد بين هنا ما ذُكر في حديث: "من أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني".. أي إنما تطيعون الرسول إذا أطعتم الخلفاء في نشر الدين وتمكينه.

إقامة الصلاة كما ينبغي محال من دون الخلافة

فالله تعالى قد وعد المسلمين في هذه الآيات أولاً بالخلافة، ثم قال: إن من واجبهم أن يقيموا الصلاة ويؤدوا الزكاة. وهكذا قد نبه الله تعالى المسلمين إلى أن إقامة الصلاة وكذلك إيتاء الزكاة حقًّا مستحيل بدون الخلافة. تعلمون أنه كان هناك في عهد النبي ﷺ نظام لجمع الزكاة، ولما توفي ﷺ وصار أبو بكر خليفة، وامتنع معظم العرب عن أداء الزكاة بحجة أن حكم أدائها كان خاصًا بالنبي ﷺ وليس بخلفائه من بعده. رفض أبو بكر رضي الله عنه دعواهم هذه وقال: والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدّونه لرسول الله ﷺ لقاتلتُهم على منعه، ولن أبرح حتى يؤدوا لي الزكاة كما كانوا يؤدونها في زمن الرسول ﷺ. ونجح أبو بكر في هذه المهمة، واستتبّ نظام الزكاة من جديد، وظل قائمًا في زمن الخلفاء الراشدين الآخرين بعده. ولكن لما انتهت الخلافة الراشدة بين المسلمين لم يعُدْ هناك نظام لجمع الزكاة. وهذا ما يبينه الله تعالى هنا، ويخبر أن المسلمين لا يمكنهم العمل بحكم أداء الزكاة بدون نظام الخلافة. ذلك لأن الزكاة بحسب تعاليم الإسلام تؤخذ من أغنيائهم، وتُوزَّع على

فقرائهم بواسطة هذا النظام؛ ولا يمكن أن يتم ذلك إلا إذا كان هناك نظام، لأن الشخص الواحد لو أنفق مال زكاته على بعض الفقراء فلن يأتي إنفاقه بنتائج عظيمة كالتي تظهر إذا جُمعت أموال الزكاة من المسلمين كلهم ثم أُنفقت للنهوض بفقرائهم ولرقيهم. فنظام الزكاة يقتضي نظام الخلافة طبعا.

كذلك فإن إقامة الصلاة حقًّا محال بدون نظام الخلافة، لأن أهمّ الصلوات هي صلاة الجمعة التي تكون فيها الخطبة التي يُذكَّر فيها الناس بمصالح الأمة وضروراتها. فلولا نظام الخلافة الآن فكيف يطّلع أهل القرى الصغيرة النائية على ما يجري في الصين واليابان، وكيف يعرفون ما هي التضحيات التي يطالبهم الإسلام بها؟ إذا كان للمسلمين جميعا مركز وخليفة واجب الطاعة، فإنه سيتلقى التقارير من شتى أنحاء العالم حول ما يتم هناك من أعمال ونشاطات لنشر الإسلام، فيُخبر الناسَ بأن الإسلام اليوم بحاجة إلى كذا وكذا من التضحيات والخدمات، ولذلك فقد أفتى الأحناف أن الجمعة لا تجوز بدون سلطان مسلم[44]، والحكمة في هذه الفتوى هي ما قد بينته آنفًا. والحال نفسه في صلاة العيدين. الثابت من سنّة الرسول ﷺ أنه كان يلقي الخطب حول حاجات الأمة دومًا، ولكن إذا لم يكن نظام الخلافة قائما، فكيف يعرف الفرد الواحد ما هي ضرورات الأمة، وكيف يذكرُها في الخطب؟ كلا، بل من

---

[44] المختصر للقدوري: باب صلاة الجمعة

الممكن تماما أن يظل بنفسه منخدعًا لجهله بالظروف المتجددة، فيترك الآخرين أيضا في الخداع. لقد قرأت مرة أنه قبل ٤٠ أو ٥٠ سنة خرج أحد المسلمين سائحًا في منطقة "بيكانير" بالهند، ودخل مسجدًا للصلاة في يوم جمعة، فوجد أن الإمام بعد أن قرأ في البداية شيئًا من الخُطب الجاهزة المتداولة باللغة الفارسية قال للمصلين: تعالوا الآن نرفع الأيدي للدعاء من أجل ملِكنا أميرِ المؤمنين "جهانكير". فكان هذا الإمام المسكين لا يعرف أن الملِك "جهانكير" قد توفي قبل مئات السنين، وأن الإنجليز يحكمون الهند الآن!

فالجمعة التي هي أهمّ الصلوات لا يتمّ أداؤها على أحسن وجه إلا بإقامة نظام الخلافة بين المسلمين. ولما كانت جماعتنا تتمتع بنظام الخلافة فتجدون أن خطبي كلها تكون بفضل الله تعالى بحسب مقتضيات الظروف والمستجدّات دائمًا، وهناك غير الأحمديين الذين يتأثرون من خطبي بفضل الله تعالى لدرجة أنهم يقولون إن خطبك تبدو لنا إلهامية. كان أحد زعماء المسلمين المشاهير يقرأ خطبي بالتزام، فقال لي مرةً: إن خطبك لا ترشد المسلمين في دينهم فقط، بل ترشدهم في سياستهم أيضا.

الواقع أن من واجب القائد توجيه الناس، ولكن لا يتمكن من ذلك إلا من يتلقى الأخبار من معظم أقطار العالم، ويدرك مجريات الأحداث، ومثل هذه المعلومات لا تتيسر بالجرائد فقط، لأنها تنشر أخبارًا كاذبة

أحيانًا، كما أن الصحفيين لا يلتزمون ببيان الأحداث كاملة. ولكن دُعاتنا منتشرون في معظم أنحاء العالم، كما أن أفراد جماعتنا موجودون في شتى بقاع الأرض؛ فأتلقى منهم أخبارًا مؤكدة دائما، فأستفيد منها وأقوم بتوجيه الجماعة بطريق سليم بفضل الله تعالى.

طاعة الرسول لا تتم بحق من دون الخلافة

فالحق كما أن إقامة الصلاة أيضًا لا تتم على ما يرام بدون الخليفة، كذلك فإن طاعة الرسول ﷺ المذكورة في قوله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أمرٌ مستحيل بدون الخلافة، لأن الغرض الحقيقي من طاعة الرسول ﷺ أن ينخرط الجميع في سلك الوحدة. لقد كان الصحابة- رضوان الله عليهم أجمعين- يصلّون، ومسلمو اليوم أيضا يصلّون، وكان الصحابة يحجّون ومسلمو اليوم أيضا يحجّون، فما الفرق بين الصحابة وهؤلاء يا ترى؟ إنما الفرق أن الصحابة كانوا يصلّون إذا قال لهم الرسول ﷺ هذا وقت الصلاة، وكانوا يصومون إذا قال لهم الرسول ﷺ هذا وقت الصيام، وكانوا يحجون إذا قال لهم الرسول ﷺ هذا أوان الحجّ. لا شك أنهم كانوا يعملون بأحكام الله تعالى إذا قاموا بالصلاة والصوم والحج وغيرها من العبادات، إلا أن روح طاعتهم للرسول ﷺ أيضا كانت تتجلى في كل عمل من أعمالهم، وكانت فائدة ذلك أنه كلما أمرهم النبي ﷺ بشيء هبّوا للعمل به فورا. ولكن روح الطاعة هذه مفقودة في المسلمين اليوم، فإنهم يصلّون ويصومون

ويحجّون، ولكن لا توجد فيهم روح الطاعة، لأنها لا تتيسر بدون نظام الخلافة. فثبت أنه كلما كانت هناك خلافة تمّتْ طاعة الرسول أيضًا؛ لأن طاعة الرسول لا تعني أن نصلّي ونصوم ونحجّ فقط، إذ تدخل هذه الأحكام في طاعة الله تعالى، إنما المراد من طاعة الرسول ﷺ أنه إذا أعلن أن هذا أوان التركيز على الصلوات فعلى الجميع أن يركّزوا على الصلوات خاصة، وإذا قال إننا بحاجة الآن إلى التركيز على أداء الزكاة والتبرعات فعلى الجميع أن يركّزوا عليها، وإذا قال إن الوقت وقت التضحية بالنفس وبهجرة الوطن فعلى الجميع أن يهبّوا للتضحية بنفوسهم وأوطانهم.

إذًا، فهذه الأمور الثلاثة هي جزء لا يتجزأ عن الخلافة، ويخبرنا الله تعالى هنا أنه بدون نظام الخلافة ستضيع صلاتكم، وتضيع زكاتكم، وتخلو قلوبكم من طاعة الرسول. وبما أن جماعتنا معتادة على العيش تحت النظام، وأبناؤها يتمتعون بروح الطاعة بفضل الله تعالى، فلو نُقلوا اليوم إلى عهد محمد رسول الله ﷺ لوجدتَهم يطيعون كما كان الصحابة يطيعون، ولكنك لو نقلتَ -في عالم تصورك وخيالك- أحدًا من المسلمين غير الأحمديين إلى العهد النبوي لوجدتَه يتعثر عند كل خطوة، ويقول: مهلاً، فأنا لم أفهم هذا الأمر، بل سيقول كما قال أحد الأفغان: "انظروا، لقد فسدت صلاة محمد (ﷺ)، لأنه قد ورد في كتاب "القدوري" أن الحركة الكبيرة تفسد الصلاة"، وهكذا فستجده يرفض

الطاعة في بعض الأمور. ولكنك لو أخذتَ أحدًا من المسلمين الأحمديين إلى العهد النبوي فلن يجد نفسه غريبًا عن الناس، بل سينسجم مع المحيط فورًا كما تنسجم القطعة من الماكينة مع غيرها حين توضع في مكانها، وسيصبح بمجرد وصوله هناك كواحد من صحابة الرسول ﷺ.

خلاصة مضامين آية الاستخلاف

إذن، فهذه الآية من سورة النور التي تسمى "آية الاستخلاف" تبين الأمور التالية:

الأول: إن النعمة المذكورة فيها إنما هي وعدٌ.

والثاني: إن هذا الوعد مقطوع للأمة ما دامت مؤمنةً تعمل الصالحات.

علمًا أن غير المبايعين يركّزون دائما على أن وعد الخلافة في هذه الآية ليس للأفراد بل هو للأمة. وقد قبلتُ قولهم هذا وأقول أيضا إن هذا الوعد للأمة حيث يقول الله لأبنائها أنه سينجز لهم وعده هذا طالما يؤمنون ويعملون الصالحات.

والثالث: إن غاية هذا الوعد هي كالآتي:

(١) أن يتلقى المسلمون نفس النعم التي تلقتها الأمم السابقة لقوله تعالى ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

(٢) وأن يمكّن الله تعالى لهم دينهم.

(٣) وأن يبدّل الله تعالى خوفهم أمنًا.

(٤) وأن يقضى على الشرك وتقام عبادة الله تعالى.

وقد قال الله تعالى في آخر هذه الآية ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ مؤكدا على أن هذه النعمة وعد، ومنبهًا إلى وعيده الذي قال فيه: ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[45]، بمعنى أنكم إن لم تقدروا هذه النعمة التي ستنـــزل عليكم فسوف نعاقبكم عقابا شديدا. إن الخلافة نعمة عظيمة، فالذين يجحدونها يُعَدُّون من الفاسقين.

هذه الآية شهادة عظيمة على صدق الخلافة الراشدة، حيث بيّن الله تعالى فيها أنه سيقيم نظام الخلافة في المسلمين منّةً عليهم، وسيكون هؤلاء الخلفاء مؤيَّدين من الله تعالى، كما يتضح ذلك من قوله تعالى ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾، فينال المسلمون حظا وفيرا من النعم التي نالتها الأمم السابقة.

علامات الخلفاء الصادقين

لقد ذكرت هذه الآية علامات تميّز الخلفاء الصادقين من الكاذبين، وهي كالآتي:

العلامة الأولى: إن الله تعالى هو الذي يختار الخليفة، أي لا يكون في اختيار ذلك الخليفة دخل من مكايد البشر، فلا هو يتمنى الخلافة، ولا هو يُختار بحسب مخطط سابق، بل أحيانًا يتم اختياره في ظروف يبدو

---

[45] إبراهيم ٨

اختياره فيها مستحيلا. فكلمات ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ نفسها تدلّ على أن الله تعالى هو الذي يختار الخليفة، لأن الذي يعد هو الذي يُنجز وعده، لا غيرُه.

يقول البعض خطأً بأن هذا الوعد يعني أن للناس أن يختاروا من يشاءونه خليفةً، فيعدّ الله تعالى اختيارهم اختيارًا منه. ولكن قولهم هذا يماثل ما كان يفعله أحد معلّمينا في المدرسة؛ فكان إذا رضي عن طالب قال له: خُذْ ما في جيبك من نقود جائزةً مني. فهذا الوعد بحسب تفسيرهم يصبح مثل وعد هذا المعلم، إذ يقولون أن الله يقول لنا: اختاروا من تشاءونه خليفةً ثم احسبوا أنني أنا مَن جعله خليفة. إذا كان الأمر هكذا فأين الإنعام، وأين معاملة حب الله المميزة للذين يؤمنون ويعملون الصالحات؟ كلا، إنما يفي بالوعد من يعِد به، وليس أن يعد الله وعدًا ثم يفي به غيرُه.

إذًا، فأوّل ما بيّن الله تعالى في هذه الآية أن الخلفاء الصادقين إنما يأتون من عند الله تعالى. وهذا هو الثابت من ظاهر الأمر إذ يستحيل أن يصبح أحد خليفةً بحسب أمنيته أو بحسب مخطط، إنما يكون خليفةً من أراد الله تعالى أن يجعله خليفة، بل أحيانا سيقع الخيار الرباني على شخص لا تتصور الدنيا أنه سيصبح خليفة.

والعلامة الثانية التي ذكرها الله تعالى للخليفة الصادق أن الله سينصره كنصرته للأنبياء، لقوله تعالى ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.. أي أن هؤلاء الخلفاء سيستحقّون نصرتنا كما استحقها الخلفاء في الماضي.

علمًا أننا حين ننظر إلى الخلافة في الذين خلوا من قبل نجدها نوعين، هما:

النوع الأول من الخلافة هو "خلافةُ نبوة" كخلافة آدم عليه السلام الذي قال الله تعالى فيه ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[46]. وواضح أنه لم يتم انتخاب آدم، كما لم يكن ملِكًا، إنما وعدَ الله الملائكة وعدا، فأقام آدم عليه السلام في الأرض بحسب هذا الوعد، وعاقبَ الذين كفروا به.

وكذلك قال الله تعالى عن داود عليه السلام ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[47].. ولما كان داود عليه السلام نبيًا فثبت أن المراد من الخلافة هو خلافة نبوة.

والحق أن هذه الآية تماثل معنى قولَ الله تعالى ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾[48].

[46] البقرة٣١

[47] ص٢٧

[48] آل عمران ١٦٠

علمًا أن البعض يفسّر قوله تعالى ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ بأن يا داود لا تتّبع أهواء الناس. لكن ليس هذا هو المراد، بل قد نبّه الله تعالى هنا داود عليه السلام أنه إذا أشارتْ عليك أغلبية الناس بشيءٍ، فلا تنظر إلى أنهم الأغلبية فقط، بل عليك أن ترى فيما إذا كان اقتراحهم مفيدًا أم لا، فإذا كان مفيدًا فاعملْ به، وإلا فارفضْه خاصة إذا كان فيه إثم، دون الاكتراث بأنه اقتراح الأغلبية.

الخلافة في الأولين، كانت خلافةَ نبوة أو خلافةَ مُلك

فالخلافة في الأولين إما كانت خلافةَ نبوة مثل خلافة آدم وداود عليهما السلام، أو خلافةَ مُلك، كما قال الله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[49]، فالخلافة المذكورة في هذه الآية هي خلافة ملك فحسب، فالمراد من النعمة هنا نعمة الـمُلك والحكم، حيث أوصاهم الله تعالى بالعدل في كل شيء، وإلا يُهلكُهم.

وقد ذُكرتْ هذه النعمة بالنسبة إلى اليهود كالآتي ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[50]. أي جعلناكم يا أمة

---

[49] الأعراف ٧٠

[50] المائدة ٢١

اليهود خلفاء بطريقتين، أولاً: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾.. أي أعطاهم خلافة النبوة، وثانيا: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾، أي أعطاهم خلافة الملوكية.

باختصار، كانت الخلافة في الأولين نوعين، نبوة أو ملوكية. وحيث إن الله تعالى قد وعد المسلمين ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فهذا يعني أنه تعالى سيمنحهم بركات الخلافة التي أُعطيَها الأولون، وسيعامل خلفاء هذه الأمة كما عامل الأنبياء السابقين.

سبب تشبيه خلافة المسلمين بخلافة النبوة دون خلافة المُلك

ولو قيل: لقد ذكر الله تعالى في الآيات المذكورة آنفًا أن الأولين قد مُنحوا "خلافة المُلك" أيضًا، فلماذا شُبّهت الخلافة الإسلامية بخلافة النبوة بشكل خاص دون خلافة المُلك؟

والجواب: لا جرم أن الله تعالى قد وعد المسلمين بالمُلك المادي أيضا، ولكن الله تعالى لا يتحدث في هذه الآية عن المُلك الماديّ بل يتحدث عن النعم الدينية فقط. وفيما يلي الأدلة على هذا:

الدليل الأول هو قول الله تعالى ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾.. أي أن الله تعالى لا بد أن يقيم دين خلفائه الذين أقامهم. وهذا الأمر لا ينطبق على الملوك الماديين، إذ لا يقيم الله تعالى دينهم؛ بل هذا خاص بالخلفاء الروحانيين فقط. فثبت أن الخلافة الإسلامية تشبه "خلافةَ النبوة" لا "خلافة الملوكية".

والدليل الثاني هو قول الله تعالى ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.. ولا تتوافر هذه الميزة في الملوك الدنيويين أبدا، حيث تجدهم اليوم جالسين على عروشهم لابسين تيجانهم، وتجدهم غدًا مخلوعين يتسوّلون الناس في الشوارع. كما ليس لهم أي وعد من الله تعالى بأنه سيبدّل خوفهم أمنًا، بل تنهار هممهم في كثير من الأحيان إذا داهمهم خطر كبير.

والدليل الثالث هو قول الله تعالى ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.. أي أن هؤلاء الخلفاء سيكونون موحِّدين خالصين وأكبرَ أعداء للشرك. بينما يقع ملوك الدنيا في الشرك أيضا، حتى قال الرسول ﷺ إنهم قد يقعون في الكفر البواح المكشوف. فلا يمكن، والحال هذه، أن يكون هؤلاء الملوك مصداقا لآية الاستخلاف.

والدليل الرابع على أن المراد من الخلفاء المذكورين هنا ليسوا ملوكا دنيويين هو قول الله تعالى ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.. أي الذين يكفرون بهؤلاء الخلفاء سيصبحون فاسقين. فمتى يصير الإنسان فاسقا إذا رفض طاعةَ ملِكٍ يمكن أن يقع في الكفر البَوَاح؟ كلا، لا يمكن أبدًا أن يصبح المرء فاسقًا لإنكاره طاعة الملوك الماديين كهؤلاء، إنما تصدر فتوى الفسوق ضد الإنسان إذا ما رفض الطاعة للخلفاء الروحانيين.

فهذه الأدلة الأربعة المذكورة في آية الاستخلاف تؤكد أن الخلافة المذكورة هنا ليست "خلافة الملوكية". فقول الله تعالى ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي

الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني أننا سنُنعم على هؤلاء الخلفاء كما أنعمنا على الخلفاء من قبل، وإنما المراد من ذلك أنهم سيؤيَّدون من عند الله تعالى كما أُيِّد الخلفاء من قبل. وهذا يؤكد أن الخلافة الموعودة في هذه الآية تشبه "خلافة النبوة" لا "خلافة الـمُلك".

وعد الخلافة مشروط بالإيمان والعمل الصالح

والعلامة الثالثة لهذه الخلافة بحسب آية الاستخلاف هي أن هذا الوعد سيظل يتحقق للأمة ما دامت مؤمنة تعمل الصالحات، وإذا لم تعُدْ مؤمنة تعمل الصالحات سيلغي الله وعده هذا. وهذا يعني أن من أكبر ما يميّز النبوة عن الخلافة أن النبوة تقام حين تمتلئ الدنيا سوءًا وفسادًا كما قال الله تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[51].. أي أنّ مِن سنة الله تعالى عند انتشار الفساد في البر والبحر ونسيان الناس ربهم وإعراضهم عن أحكامه وتماديهم في الغي والضلال، وإحاطة الظلمة بكل شبر من الأرض، أن يبعث نبيًا ليصلح الناس، ويعود بنور الإيمان من السماء إلى الأرض، ويهديهم إلى الدين الحق. أما الخلافة فتقام حين تكون أغلبية الأمة مؤمنين يعملون الصالحات. وبتعبير آخر: إن النبوة تظهر عند فقدان الإيمان والعمل الصالح، أما الخلافة فتظهر عندما يكون كل الناس تقريبا مؤمنين يعملون الصالحات، ومن أجل ذلك لا تقوم الخلافة إلا عند انتهاء النبوة. وذلك لأن الإيمان والعمل الصالح حينها يكونان قد

---

[51] الروم ٤٢

أُرسيا على يد النبوة، ولأن أغلبية الناس لا يزالون مؤمنين يعملون الصالحات، فيهبهم الله نعمة الخلافة. أما الفترة الواقعة بين هاتين الفترتين والتي لا تخلو فيها الدنيا من الصالحين تماما ولا تكون مليئة بالسوء تماما، فلا تكون فيها النبوة ولا الخلافة، إذ لا يكون مرض الناس شديدا لِيُبعث النبيّ لتداركهم، ولا تكون صحتهم كاملة ليأتي الخليفة للاستعانة بهم.

زوال الخلافة ليس راجعًا إلى عيب في الخليفة بل إلى عيب في الجماعة

فثبت من هنا أن الخلافة لا تنتهي نتيجة عيب في الخليفة، إنما تنتهي نتيجة عيب في الجماعة، وأن انتهاء الخلافة ليس دليلا على كون الخليفة آثما، بل هو دليل على كون الأمة آثمة، لأن الله تعالى قد وعد صراحة أنه سيختار الخلفاء طالما كانت أغلبية الجماعة مؤمنين يعملون الصالحات، أما إذا ساءت الجماعة ولم تعُدْ أغلبيتها مؤمنين يعملون الصالحات، فيقول الله تعالى لهم: لقد تغيّرتم، فأنا أيضا أنــزع منكم نعمتي. ومع ذلك فقد يقيم الله تعالى في مثل هذه الجماعة أيضًا خلفاء لفترة من الزمن إن شاء إحسانًا ومنّة. فالذي يقول بأن الخليفة قد صار فاسدًا فكأنما يعلن أن أغلبية الجماعة قد حُرمت الإيمان والعمل الصالح؛ ذلك أن الله تعالى قد وعد الأمة بإقامة الخلفاء فيها ما دامت متمسكة بالإيمان والعمل الصالح، أما إذا فقدت الإيمان والعمل الصالح فسينقطع

مجيء الخلفاء فيها. إذًا، فلا إمكانية لفساد الخليفة الراشد، لكن هناك إمكانية في كل وقت أن تفقد أكثرية الجماعة الإيمان والعمل الصالح.

ولأن الخليفة لا يفسد، بل الجماعة هي التي تفسد، فمن ادعى أنّ خليفة الجماعة الإسلامية الأحمدية قد فسد، فلا مناص له من الإقرار بأن الشيطان قد هاجم هذه الجماعة مع أن كثيرا من صحابة المسيح الموعود عليه السلام لا يزالون أحياء، ولا تزال الفتن الدجالية هائجة مائجة في الدنيا، ولا تزال هذه الشجرة التي كانت ستنتشر في العالم كله نبتةً صغيرة ناعمة، فسلَبَ الشيطان هذه الجماعة ثروةَ الإيمان وقوةَ صالح الأعمال، وداس تحت أقدامه هذه الشجرة الصغيرة التي يقال أنها ستصبح دوحة مثمرة كبيرة تنفع العالم كله بظلالها الوارفة، لأن خليفتها قد فسد. بينما يقول القرآن الكريم أن الخلفاء الصادقين سيظهرون في الجماعة طالما تكون أكثرية الجماعة مؤمنة تعمل الصالحات. فثبت أن إنكار الخلافة ليس إنكارا لها فقط، وإنما هو إعلان بأنّ الجماعة قد حُرمت الإيمان وصالح الأعمال.

علامة تمكين الدين

والعلامة الرابعة التي ذكرها الله تعالى للخلفاء الصادقين أنه سينشر في الدنيا ما يأتون به من أحكامٍ وأفكارٍ دينية، لقوله تعالى ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾.. أي أنه تعالى سيمكّن دينهم في الأرض رغم

الظروف غير المواتية. وهذا برهان عظيم على صدق الخلافة الحقّة، ومن تدبّر فيه وجده آية ربانية عظيمة على صدق الخلفاء الراشدين.

الغريب أن أبا بكر وعمر – رضي الله عنهما – كانا من عائلات لم تكن تتمتع بنفوذ وقوة بين العرب، بينما كان عثمان وعلي – رضي الله عنهما – من عائلات ذات نفوذ وقوة بين العرب، وكان بنو أمية موالين لعثمان رضي الله عنه، وكان بنو العباس موالين لعلي رضي الله عنه؛ وكلتا القبيلتين كانت تتمتع بقوة ونفوذ كبير بين العرب كما قلت. ولما أصيبت الخلافة الإسلامية بالنكسة و لم تعد أغلبية المسلمين مؤمنين يعملون الصالحات، فرَض بنو أمية حُكمَهم على المسلمين بعد استشهاد عثمان وعلي رضي الله عنهما، وكان هؤلاء موالين لعثمان، فظلّوا خلال حكمهم يُثنون عليه خيرًا ويذمّون عليًّا، وقلّما تجد في عهدهم من يُثني على أبي بكر وعمر ويذكر محاسنهما رضي الله عنهم جميعًا.[٥٢] ثم تغيرت الظروف وانتزع بنو العباس الحكمَ من بني أمية، فبذل العباسيون جهدهم في مدح عليّ رضي الله عنه وبيان مناقبه لانتمائهم إلى أهل البيت وفي ذمّ عثمان رضي الله عنه[٥٣]. وهكذا ظلت فئة من المسلمين تذكر مناقب عثمان رضي الله عنه لمئات السنين، بينما ظلت فئة أخرى تذكر مناقب علي رضي الله عنه في فترة أخرى، وبرغم أن الدولة الإسلامية مرّت بعد عصر الخلفاء الأربعة بهاتين الفترتين اللتين لم

[52] البداية والنهاية، المجلد التاسع: ثم دخلت سنة ست ومائة

[53] تاريخ الطبري: المجلد الثامن، خلافة أبي العباس، ذكر الخبر عن سبب خلافته

يوجد فيهما أقرباء كثيرون لأبي بكر وعمر إلا أن الله تعالى كتب لأحكامهما وفتاواهما من العزة والقبول ما لم يكتب لفتاوى عثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين. وهذا دليل ساطع على صدق قول الله تعالى ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾، حيث أقام الله تعالى دينهما وكتب لهما العزة والقبول في قلوب الناس؛ فلو سألت أي مسلم اليوم مَن هو أعز الخلفاء عنده لقال: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ رضي الله عنهم. فبرغم أنه قد كانت هناك فترة عدة قرون لم يكن هناك من يذكر أبا بكر وعمر، وبرغم أن الناس ينسون كبار مشاهيرهم في مثل تلك الحقبة الطويلة، إلا أن الله تعالى كتب لهما الخلود وكتب لفتاواهم وأقوالهم عزًّا وشهرة أكثرَ مما كتبه لفتاوى وأقوال عثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين.

ثم إن بني أمية حاولوا في زمن حُكمهم جاهدين تشويه سمعة علي رضي الله عنه، ثم في عهد العباسيين تعرّض عثمان رضي الله عنه لحملة من المطاعن الكثيرة، ومع أنّ هذه الجهود كانت من قِبل الحكومات التي بذلت جهدها في تشويه اسم كل منهما ومحو ذكرهما، إلا أن الله تعالى قد أخرجهما نقيّين طاهرين وكتب لهما العزة والشرف في العالم الإسلامي كله.

نبوءة تبديل خوفهم أمنًا

والعلامة الخامسة التي بيّنها الله تعالى للخلفاء الصادقين هي قوله ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾..

يفسر البعض هذه الآية أهم يكونون في مأمن من أي خوف، وحيث إنّ الخوف كان سائدًا في خلافة عمر وعثمان وعليّ، إذ اغتالهم الأعداء، فليس هناك أحد خليفةً راشدًا إلا أبو بكر. لقد ركز الشيخ عبد الرحمن المصري على هذا الرأي كثيرا وقال: إن أبا بكر هو الخليفة الراشد الحقيقي، أما عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم فخلافتهم ليست مصداقًا لآية الاستخلاف.

واعلموا أن أصحاب هذا الرأي قد وقعوا في هذا الخطأ لعدم تدبرهم في ألفاظ القرآن الكريم. لا شك أن تبديل الخوف أمنًا نعمةٌ عظيمة، ولكن الله تعالى لم يقل هنا "وليبدّلنّهم من بعد الخوف أمنًا"، بل قال ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.. أي أنه تعالى يزيل الخوف الذي تستشعر به قلوبهم ويبدّله أمنًا. إذًا، فليس هناك وعد من الله تعالى أن الخلفاء لا يتعرّضون لما يُعَدُّ في نظر غيرهم خوفًا، وإنما يعِد بإزالة ما يسبّب الخوف للخلفاء. فالثعبان مثلاً شيء مخيف عادة، ولكنه لا يسبب أدنى خوف لكثير من الناس الذين يأخذونه بأيديهم ويلعبون به. كذلك فإن الفقر شيء مخيف، ولكن الرسول ﷺ لم يحفل به. فلو كان أحد يرى أن عدم تيسُّر وجبة من وجبات الطعام أمرٌ مُخــزٍ للمرء، فهل نقول أن هذا الأمر كان - حاشا لله - خزيًا وعارًا للنبي ﷺ أيضًا؟ كلا، بل إن الذي يعتبر الفقر مفخرة ويفضّل الأسمال البالية على الثياب الفاخرة، ويعدّ أموال الدنيا ومتاعها حقيرة كالنجاسة، فلا يمكن أن

يسبب له الفقر أي خوف. كذلك فإن الله تعالى لم يقل هنا "وليبدّلنهم من بعد الخوف أمنا"، بل قال ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.. أي لن يبقى هناك ما يخيف الخلفاء.

ولو وضعنا هذا الأمر في الحسبان لتبيّن لنا أنه لم تأت على الخلفاء أي مصيبة خافوها، وإذا حلّت بهم بالفعل مصيبة كهذه كشفها الله تعالى.

لم يكن عمر يخاف الشهادة

لا شكّ أن سيدنا عمر رضي الله عنه قد استُشهد، ولكن واقع الأمر يكشف لنا أنه رضي الله عنه لم يكن يخاف الشهادة، بل كان يدعو الله تعالى باستمرار أن يكتب له الشهادة في سبيل الله تعالى وفي المدينة المنورة نفسها، حيث كان يدعو: "اللهم إني أسألك الشهادة في سبيلك، وموتًا في بلد رسولك"[٥٤]. فمَن كان يدعو الله تعالى طوال عمره بأن يكتب له الشهادة في المدينة المنورة، فكيف يقال بسبب استشهاده أنه جاء عليه وقت من الخوف ولم يبدّل الله خوفه أمنًا؟ لو كان عمر رضي الله عنه خائفا من الشهادة ثم استُشهد، لجاز لأحد القول إن الله لم يبدل خوفه أمنًا، ولكنه ما دام يدعو الله تعالى أن يكتب له الشهادة في المدينة المنورة، فكيف يصح القول أنه كان يخاف الشهادة؟ وما دام عمر رضي الله عنه غير خائف من الشهادة، بل كان يدعو لها حتى استجاب الله له دعاءه، فثبت أنه لم يأت عليه خوف يستشعره في قلبه ثم لم يدفعه الله عنه. إنما تقول هذه

[54] البداية والنهاية، ج٧: خبر سلمة

الآية إن ما يخافه الخلفاء لن يقع أبدًا، ووعدهم الله تعالى بتبديل خوفهم أمنًا. فإذا كانوا لا يخافون أمرًا، بل رأوا فيه عزّهم ورفع درجاتهم، فلا يصحّ أن يعتبره أحد خوفًا لهم، ثم يقول: لماذا لم يبدّل الله تعالى خوفهم أمنًا؟

عندما قرأتُ دعاء عمر ﵁ هذا قلت في نفسي إن هذا الدعاء كان يعني في ظاهره أن يشنّ الأعداء على المدينة هجوما شديدا يقضي على جميع المسلمين حتى يصل الأعداء إلى عمر ويقتلوه. ولكن الله تعالى قد استجاب دعاءه من جهة، ومن جهة أخرى قد هيأ من الأسباب ما جعل أحد الخبثاء من داخل المدينة يغتال سيدنا عمر ﵁ بالخنجر، بدلاً من أن يهاجم المدينةَ عدو بجيشه من الخارج.[٥٥]

لم يستشعر عثمان ﵁ أي خوف

ثم إن الأحداث التي وقعت مع عثمان ﵁ تؤكد أنه لم يكن خائفا منها، إذ الثابت تاريخيا أن المتمردين لما استولوا على المدينة كانوا ينتشرون قبل الصلاة في المسجد ليفصلوا أهل المدينة بعضهم عن بعض، حتى لا يجتمعوا ولا يهبّوا للمقاومة. وبرغم هذا الجو المشحون بالفتنة والفساد، كان عثمان ﵁ يحضر المسجد للصلاة وحده دون خوف، وظل يحضرها إلى أن حال الناس دون ذلك. ولما تفاقمت الفتنة وهاجم

[55] المرجع السابق

المتمردون بيت عثمان ﷺ ناشد الصحابةَ ألا يعرّضوا أرواحهم للخطر من أجله، بل عليهم أن يرجعوا إلى بيوتهم بدلاً من حراسة بيته[٥٦].

فهل يتصرف الخائف من الشهادة هكذا؟ وهل يقول للناس: لا تحرسوني بل ارجعوا إلى بيوتكم؟

ومن الأدلة الدامغة على أن عثمان ﷺ لم يكن خائفا من هذه الأحداث أن معاوية ﷺ جاء من الشام للحج أيام تلك الفتنة، وعندما أراد العودة ذهب إلى المدينة لزيارة عثمان ﷺ، وعرض عليه أن يخرج معه إلى الشام ليكون في مأمن من الفتن. فقال له عثمان ﷺ: "لا أختار بجوار رسول الله ﷺ سواه". فقال معاوية: إذا كنت لا ترضى بذلك فإني أبعث لك من الشام جنودًا يحمونك من الثوّار. فقال ﷺ: لا أريد أن أُقتّر على المسلمين أرزاقَهم بالاحتفاظ بجند لحمايتي. قال معاوية ﷺ: يا أمير المؤمنين، إن هؤلاء سيقتلونك غدرًا أو يخرجون لمحاربتك. قال: "حسبي الله ونعم الوكيل". فقال: إذا كنت لا ترضى بأي شيء فإني أخبرك أن هؤلاء الأشرار مغترّون أن بعض كبار الصحابة سيديرون الأمور بعدك على ما يرام، وإن هؤلاء الأشرار يخدعون الناس بذكر أسماء هؤلاء الصحابة الكبار، فأرجوك أن تقصي هؤلاء الصحابة من المدينة وتنشرهم في مختلف الأمصار، فهذا سيثبط من همم المتمردين إذ سيقولون في أنفسهم: ما الفائدة من التعرّض لعثمان ما دام لا يوجد في

56 المرجع السابق: ثم دخلت سنة خمس وثلاثين

المدينة من يستطيع إدارة الأمور بعده؟ ولكن عثمان ﵁ رفض اقتراحه وقال: كيف يمكن أن أنفي من المدينة قومًا جمعهم الرسول ﷺ هنا؟ فبكى معاوية وقال: إذا كنت لا تريد أن تفعل أي شيء فأعلِنْ بين الناس أن معاوية سيأخذ بثأرك لو قُتلتَ. فقال عثمان ﵁: لن أقوم بهذا الإعلان لأن في طبعك حِدّة وأخاف أن تقسو على المسلمين.

يزعم البعض أن عثمان ﵁ كان ضعيف القلب، ولكن كم من الناس يمكن أن يُبدوا الشجاعة كالتي تحلى بها عثمان ﵁؟ وكيف يمكن أن يقال، والحال هذه، أنه كان يخاف؟ لو كان خائفًا لقال لمعاوية ﵁: نعم ابعثْ إليَّ بكتيبة من جيشك لحراستي وأنا سأنفق عليهم. لو كان ﵁ خائفا لأعلن بين الناس أن معاوية سيأخذ بثأري ممن يتعرّض لي بسوء. ولكنه لم يجب معاوية ﵁ إلا بقوله: إن فيك حدة وأخاف أن تقسو على المسلمين إذا أعطيتك هذا الخيار.

ثم لما تسوّر الأعداء بيت عثمانَ ﵁ لاغتياله، لم يخفهم أبدًا، بل ظل يقرأ القرآن بسكينة. فتقدم ابن لأبي بكر ﵁ – سامحه الله– وأخذ بلحية عثمان ﵁ وهزّها بشدة، فرفع عثمان ﵁ بصره وقال: يا ابن أخي، لو كان أبوك هنا لما فعلت ما فعلت. فارتعدت فرائصه ورجع نادمًا. فتقدم شخص آخر وضرب رأس عثمان ﵁ بقضيب من حديد، ثم ركل برجله المصحف الموجود أمامه ﵁ ورماه بعيدا. ثم جاء شخص ثالث وضرب عثمان بسيفه وقطع يده، فاستُشهد.

من ذا الذي يمكنه بعد رؤية هذه الأحداث أن يقول أن عثمان رضي الله عنه كان خائفًا مما وقع به؟ وما دام غير خائف منها، فكيف يقال إن ما وقع كان خلافا لقوله تعالى ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾. إذا كان هؤلاء الخلفاء خائفين من شيء فإنما هو أن يتضاءل نور الإسلام، فتحقَّق ما أرادوا تحقيقه في نهاية المطاف، وبدّل الله خوفهم أمنًا.

استشهاد عليّ رضي الله عنه

والحال نفسه بالنسبة لعلي رضي الله عنه، فكان يخاف توقُّف انتشار الصدق والروحانية، فبدَّل الله خوفه أمنًا. ولكنه رضي الله عنه ما خاف معاملة الناس له. كان جيش معاوية رضي الله عنه في بعض الأحيان يزيد على جيش علي رضي الله عنه أضعافا، ولكنه لم يكترث لذلك أبدا، وظل يقول لن أرضى إلا بما يقوله القرآن الكريم.

ولو ظننا أن هؤلاء الخلفاء الراشدين كانوا يخافون المعارضة لوجب التسليم بأن كل أنبياء الله - والعياذ بالله - أيضًا كانوا يخافون الناس دائمًا، إذ لا يلقى أحد المعارضة الشديدة كما يلقاها الأنبياء. فثبت أن معارضة أهل الدنيا ليست بشيء في أعين الخلفاء الراشدين حتى يخافوها، كما أن الله تعالى لم يقل هنا "وليبدلنهم من بعد الخوف أمنا"، بل قال ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.. أي أنه تعالى سيكشف عنهم ما يخافونه. وكما بينتُ من قبل أنهم ما كانوا يخافون إلا أن تقع الأمة في الغيِّ والضلال، ولكن ببركة اهتمامهم ودعائهم حفظ الله تعالى معظم الأمة الإسلامية من

الضلال، فظل مذهب أهل السنة والجماعة هو المذهب الغالب على سائر المذاهب الأخرى في كثير من بقاع الأرض دائما.

يحفظ الله خلفاءه من الخوف المعروف أيضا

وعندما أقول إن الخوف هنا لا يعني الخوف المعروف، بل المراد منه ذلك الخوف الذي تستشعره قلوب هؤلاء الخلفاء، فهذا لا يعني أنهم يستشعرون الخوف المعروف بالضرورة، بل إن الله تعالى يحميهم من هذا النوع من الخوف أيضا، إلا أن تكون هناك مصلحة ربانية؛ ومثاله الخوف الذي ساد في عهد علي رضي الله عنه، وكان سببه أن عامة المسلمين كانوا قد تردّوا لدرجة أنهم لم يعودوا مستحقين لنعمة الخلافة. فأنا لا أقصد من قولي هذا أن الله تعالى لا يحفظهم من الخوف العادي، إنما أركز هنا على أن الوعد الإلهي المذكور في هذه الآية إنما يخص ذلك الخوف الذي يعتبره الخلفاء خوفًا، والواضح أنهم ما كانوا يخافون إلا أن تقع الأمة الإسلامية في الغي والضلال، فبدَّل الله تعالى خوفهم هذا أمنًا حيث حفظ الأمة من الضلال فضلا منه، وظلّت الهداية الإلهية ميسرة للمسلمين بعد وفاة الخلفاء أيضًا رغم الفتن الهائلة. والحق أن المعجزة الحقيقية إنما هي أن تظل أعمال المرء وطموحاته تتحقق بعد وفاته أيضًا، إذ لو تحقق له في حياته ما أراد فقد يرجع الناس نجاحه إلى التدابير المادية، أما إذا تحققت أهدافه بعد وفاته أيضا فلا يمكن لأحد أن يعزو

نجاحه إلى التدابير المادية، بل كان هذا دليلا على كونه محبوبًا ومقربًا عند الله تعالى قربا شديدا.

كشفٌ لرسول الله ﷺ تحقّقَ بعد وفاته

وعلى سبيل المثال لقد رأى النبي ﷺ في الكشف أسورة كسرى فارس في يد شخص، فمعجزة النبي ﷺ لا تكمن في رؤيته أسورة كسرى في يد هذا الشخص، وإنما المعجزة أن النبي ﷺ كان قد توفي، ومع ذلك ألقى الله في قلب سيدنا عمر رضي الله عنه أن يحقق نبوءته ﷺ. والمعجزة الأخرى هي أن خبر هذا الكشف النبوي كان قد بلغ عمرَ رضي الله عنه فحقّقه. لم يكن عمر يسمع كل ما كان النبي ﷺ يقوله في مختلف المناسبات، وكان من الممكن أن يسمع قوله ﷺ هذا شخص آخر، فينسى أن يرويه لغيره، ولكن المعجزة هنا أيضا أن عمر الذي وصلته هذه الأسورة كان قد بلغه خبر كشف النبي ﷺ هذا. ومن المعجزة أيضا أن الله تعالى ألقى في قلب عمر أن يُلبس هذا الصحابي هذه الأسورة الذهبية، مع أنّ الشريعة تحرم الذهب على الرجال. لقد أراد الله تعالى تحقيق هذه النبوءة، فجعل قلبه يفتي بأنه مما لا شك فيه أن في تحريم لبس الذهب للرجال حِكَمًا نافعة، إلا أنّه لا بأس في أن يُلبس هذه الأسورة هذا الصحابي لبعض الوقت تحقيقًا لأمنية الرسول ﷺ. وبالفعل ألبسه إياها أمامه.[٥٧]

[57] أسد الغابة، سراقة بن مالك، والبداية والنهاية، ثم دخلت سنة ست عشرة، ذكر فتح المدائن.

خوف الخلفاء ظلّ يتبدّل أمنًا بعد موتهم أيضا

ثم إننا نرى أن الله تعالى ظل يبدّل خوف الخلفاء الراشدين أمنًا بعد وفاقم أيضًا، حينًا بعد قرن، وحينًا بعد قرنين، وحينًا بعد ثلاثة قرون، وحينًا بعد أربعة قرون، وحينا بعد خمسة قرون، وذلك ليكشف الله تعالى للعالم أنه يحبهم ولا يريد أن يخيّب آمالهم.

بيد أنه لو اعتُبر الخطاب موجهًا إلى الأمة كلها، فلا بأس به أيضًا، لأن الخوف الذي تشعر به الأمة إنما هو خوف غلبة الكافرين على الإسلام. الفرد الواحد إنما يخاف موت ابنه أو كساد تجارته مثلاً، ولكن خوف الأمة يحمل طابعًا عامًا، وما هو إلا خوف غلبة الكافرين على الإسلام. وقد بدّل الله تعالى هذا الخوف العام للمسلمين أيضًا حيث كتب للإسلام غلبة لم يسبق لها نظير في أي مكان.

هيبة الخلفاء الراشدين على ملوك غير المسلمين

عندما اشتدّ النزاع بين المسلمين في عهد عليّ ﷺ فكّر ملك الروم في استغلال نزاعهم وتحارُبِهم وضعفِ قوقم بسبب الحرب الداخلية، وأنه لو هاجمهم الآن فسوف يلحق بهم الهزيمة. وبلغ ذلك معاويةَ فكتب لملك الروم: "اعلم أنك لو هاجمت المسلمين فأكون أوّلَ قائد يحاربك دفاعًا عن عليّ." فانثنى ملك الروم عن مهاجمة المسلمين. هذا الحادث يؤكد أنه كان للخلفاء هيبة ورعب كبير، لأنّ ملك الروم لما علم أن معاوية

على استعداد لمحاربته تحت قيادة عليّ، سُقط في يده وأدرك أنّ محاربتهم لن تنفعه.

الخلفاء الصادقون يكونون حَمَلةَ التوحيد الحقيقي

والعلامة السادسة التي بيّنها الله تعالى للخلفاء الصادقين هي ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.. أي هؤلاء الخلفاء سيقومون بعبادتي دون أن يشركوا بي شيئًا.. بمعنى أن الله تعالى سيشحن قلوبهم بشجاعة خارقة فلا يخافون في الله تعالى لومة لائم. إنهم لن يقوموا بأي شيء خوفًا من المخلوق، بل يتوكلون على الله تعالى ويعملون كل ما يعملون ابتغاء وجه الله تعالى. وليس المراد من قوله تعالى ﴿لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ أنهم لن يعبدوا الأصنام، ذلك أن المسلم العادي أيضًا لا يعبدها، ناهيك أن يعبدها الخلفاء! إنما المراد من قوله تعالى ﴿لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ أنهم لن يتنازلوا عن أي موقف خوفًا من المخلوق، بل سيقومون بكل عمل تحقيقًا لمشيئة الله وابتغاء مرضاته تعالى، غير مكترثين بالمحن والمصائب التي قد تواجههم في هذه السبيل. نرى أن أكبر الشجعان في الدنيا أيضا يغيّر موقفه خوفًا من الناس أحيانا. إنه لا يريد أن يحيد عن الحق، إلا أنه يتمنى في قلبه أن يقوم بعمله بحيث لا يعترض عليه أحد، محاولةً لإرضاء الجميع.

كان الشيخ غلام علي من الوهابيين المتشددين، وكان الوهابيون قد أفتوا بجواز أداء صلاة الجمعة في الهند زمن حكم الإنجليز، بينما كان

الأحناف يرون أداء صلاة الجمعة غير جائز إذ يقولون إنما تجوز صلاة الجمعة إذا كان السلطان مسلمًا، وكان الإمام قاضيًا، وتقام الجمعة في مدينة من المدن[٥٨]. وكان الإنجليز مستولين على الهند آنذاك، فلم يكن هناك سلطان مسلم ولا قاض، فكان الشيخ غلام علي الوهابي لا يرى جواز أداء صلاة الجمعة في الهند من جهة، ومن جهة أخرى كان يقرأ في القرآن الكريم قول الله تعالى ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾[٥٩]، فكان لا يشعر براحة البال، إذ كان يودّ أن يصلي الجمعة، ولكنه كان يخاف من أن يفتي الأحناف ضده؛ فلكي يحلّ هذه المعضلة كان يصلي الجمعة في قريته أوّلاً، ثم يصلي الظهر أيضًا، ظنًّا منه أنه إذا كانت فتوى أداء الجمعة صحيحة فلا يخسر، وإذا كانت فتوى أداء صلاة الظهر مكان الجمعة صحيحة فأيضًا يفوز، وصلاة الظهر التي كان يصلّيها كان يسمّيها "الصلاة الاحتياطية"، وكان يقول: إذا رفض الله تعالى صلاة الجمعة نقدِّم له صلاة الظهر، وإذا رفض الظهر نضع أمامه صلاة الجمعة. والذي كان لا يصلّي هذه "الصلاة الاحتياطية" كان يُعتبر من الوهابيين.

---

[58] إمداد الفتاوى – مختصر سوانح حيات أشرف علي التهانوي – المجلد الأول، باب صلاة الجمعة والعيدين. وفتاوى نذيرية: المجلد الأول، كتاب الجمعة

[59] الجمعة ١٠

واقعة الشيخ غلام علي

وكان المسيح الموعود عليه السلام يحكي لنا أنه سافر ذات مرة مع الشيخ غلام علي إلى مدينة غورداسبور، وحانت صلاة الجمعة في الطريق، فذهب الجميع بمن فيهم الشيخ غلام علي إلى مسجدٍ لأداء الجمعة. علمًا أن مذهب المسيح الموعود عليه السلام كان مشابهًا لمذهب الوهابيين الذين يرون أن النجاة تستوجب العمل بأحاديث الرسول ﷺ واتّباع أسوته. يقول المسيح الموعود عليه السلام: بعدما فرغ الجميع من الجمعة، صلّى الشيخ غلام علي أربع ركعات كصلاة الظهر، فسألته ما هذه الركعات الأربع التي صليتها بعد صلاة الجمعة؟ قال: إنها "الصلاة الاحتياطية". قلت: إنك من الوهابيين، ومذهبك مخالف لذلك، فلِمَ صليت "الصلاة الاحتياطية"؟ قال: أصلي "الصلاة الاحتياطية" كي لا يعترض عليَّ أحد، وليس لأني لا أعرف ما إذا كان الله تعالى سيتقبل مني صلاة الظهر أم صلاة الجمعة.

فترى أن كثيرا من الناس يلجأون إلى الحيل كما فعل الشيخ غلام علي، حيث كان مطمئنًا بأدائه صلاة الجمعة، ومع ذلك كان يصلّي الظهر أيضًا إرضاءً للناس.

طريفة رجل صالح من أهل السنة

وهناك طريفة شهيرة أن أحد الصالحين من أهل السنة كان يعيش في بلد للشيعة، وذات مرة ضاقت يده من شدة الفقر، وألجأه فقره للذهاب

إلى الملِك طلبًا للمعونة. وكان الملِك من الشيعة، فلما رأى وزيرُه الرجلَ الصالح قال له: يبدو من مظهر هذا الشخص أنه من أهل السنة. فقال الملك: كيف عرفت ذلك؟ قال: هكذا يبدو لي من هيئته. قال الملك: هذا ليس دليلاً، عليك أن تختبره أمامي. فأثنى الوزير على علي رضي الله عنه خيرًا، فأخذ الرجل أيضًا يثني على علي رضي الله عنه. فقال الملك للوزير: لقد خاب ظنك، فإنه شيعي وإلا لما مدح عليًّا هكذا؟ قال الوزير: أبيتَ اللعن، إني أراه سنيا. قال الملك: حسنًا، فاختبرْه بطريقة أخرى. فأمر الوزيرُ الرجلَ بأن يلعَن الثلاثةَ- وكان يعني أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم- فقال الرجل: لعَن الله الثلاثةَ. فقال الملك: ألم تعلم حتى الآن أن الرجل ليس سنيًا؟ قال الوزير: هكذا يبدو ظاهر أمره، ومع ذلك إن قلبي يفتي أنه ليس من الشيعة. ثم أخذ الرجلَ ناحيةً وقال له: أخبرْني بصدق، ما هو مذهبك؟ قال: أنا من أهل السنة. قال: فلمَ لعنتَ الثلاثة؟ أجاب: أنت تعني من الثلاثة أبا بكر وعمر وعثمان، أما أنا فأعني بالثلاثة الملك وإياك وإياي. لقد لعنتكما لأنكما تلعنان كبار الصالحين، ولعنتُ نفسي إذ ألجأتني شقوتي للاستعانة بكما.

باختصار، يلجأ الناس أحيانًا إلى مثل هذه الحيل خوفًا من الخَلق ظنًّا منهم أنهم لا يرتكبون بذلك أي إثم، ولكن الله تعالى يصرح بقوله ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ أن هؤلاء الخلفاء يكونون مثالاً

للشجاعة في سبيل الله تعالى، فلا يصيبهم خوف وذعر، بل يفعلون ما يفعلون لوجه الله تعالى غير خائفين لومة لائم.

ثبات أبي بكر في مواجهة فتنة الردّة

وهذه العلامة أيضًا كانت متوفرة في الخلفاء الراشدين على أكمل وجه. فلما توفي النبي ﷺ وانتُخب أبو بكر خليفةً، ارتدت الجزيرة العربية كلها، واستفحلت الفتنة حتى لم يُصَلّ الناس جماعةً إلا في مكة والمدينة، ورفض أهل البلد كلهم أداء الزكاة إلا أهل مكة والمدينة وقرية أخرى، محتجين بأن قول الله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾[٦٠] كان خاصًا بالنبي ﷺ، فلا يحق لأحد بعده أن يطالبهم بالزكاة على أموالهم. وثار العرب كلهم على الدولة الإسلامية وخرجوا بجيوشهم لمحاربتها. لا شك أن الإسلام كان ضعيفًا في أوائل عهد النبي ﷺ، ولكن القبائل العربية كانت تهاجمه متفرقة، فكانت طائفة منهم تحارب المسلمين في وقت، بينما كانت طائفة أخرى تحاربهم في وقت آخر. أما غزوة الأحزاب التي جاءت فيها جيوش الكفار مجتمعة متحدة، فكان الإسلام عندها قد اكتسب القوة إلى حد ما، ولكنه لم يكن قويًا بحيث لا يُخشى عليه من أي هجوم في المستقبل. ثم لما خرج النبي ﷺ لفتح مكة انضمت إليه بعض القبائل لنصرته. فمِن هنا يتبين أن الله تعالى قد جعل أعداء الإسلام ينبرون لمحاربته بالتدريج حتى لا يشكّلوا قوة تستولي على البلاد كلها. ولكن عند خلافة

[60] التوبة ١٠٣

أبي بكر ﷺ ارتدت القبائل العربية كلها دفعة واحدة إلا في مكة والمدينة وقرية أخرى، ورفضت سائر البلاد أداء الزكاة وخرجت بجيوشها لمحاربة المسلمين. وقد بلغ عدد جيش بعض القبائل المتمردة مئة ألف مقاتل، بينما كان عدد الجيش المسلم عشرة آلاف فقط، وكان هذا الجيش على وشك المسير ناحية الشام، وهو نفس الجيش الذي قد جهّزه النبي ﷺ قبيل وفاته تحت قيادة أسامة بن زيد لمحاربة الرومان على الحدود مع الدولة الرومانية. أما باقي المسلمين فكانوا ضعفاء وشيوخًا ما عدا بعض الفتيان القلائل. ونظرًا إلى الظروف الحرجة المحدقة بالمسلمين فكّر الصحابة أنه لو خرج جيش أسامة فلن يبقى في المدينة أحد للدفاع عنها ضد الثوار المتمردين، فذهب إلى أبي بكر وفدٌ يضم كبار الصحابة بمن فيهم عمر وعلي المشهورَين بشجاعتهما، فالتمسوا منه تأجيل مسير الجيش إلى حين قمع الثورة، إذ ليس هناك سبيل آخر للدفاع عن المدينة والعدو يتقدم إليها بجنوده. فغضب أبو بكر مما أشاروا عليه وقال: هل تريدون أن يكون أول ما يعمله ابن أبي قحافة بعد وفاة النبي ﷺ هو منع الجيش الذي أمر النبي ﷺ بتسييره؟ والله لن أوقف هذا الجيش أبدًا، ولا أبالي بتمرد العرب كلهم، ولا يهمّني إذا لم يبق هناك أحد للدفاع عن المدينة. والله، سأرسل هذا الجيش الذي أمر النبي ﷺ بتسييره وإنْ دخل العدو المدينة وأخذت الكلاب تجرّ أرجل المسلمات في شوارعها. إذا كنتم تخافون جيوش

الأعداء فيمكنكم أن تتخلوا عني، وسأخرج للقاء الأعداء كلهم وحدي[٦١].

فما أعظمَ هذا المشهدَ دليلاً على صدق قول الله تعالى ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾!

أما القضية الأخرى، أعني الزكاة، فقال الصحابة لأبي بكر إن كنت لا تريد إيقاف الجيش المسلم من المسير فعليك على الأقلّ أن تتصالح مع الثوار على ألا نأخذ منهم الزكاة هذه السنة، وذلك لكي تهدأ ثائرتهم خلال هذه الفترة ونجد سبيلاً للقضاء على هذه الفوضى. إنهم ثائرون ومستعدون للقتال والموت، وليس من الحكمة، والحال هذه، أن تطالبهم بأداء الزكاة. فرفض أبو بكر هذا الاقتراح أيضًا بشدة وقال: "والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدّونه إلى رسول الله ﷺ لَقاتلتُهم على منعه"[٦٢]. فقال الصحابة: لو خرج جيش أسامة ولو لم نعقد مع الثوار هدنة مؤقتة، فمن يتصدى للأعداء، إذ لن يبقى بعد ذلك في المدينة إلا الشيوخ والضعفاء أو بعض الشباب، وكيف يمكنهم صدّ الأعداء الذين يبلغون مئات الآلاف؟ فقال أبو بكر: أيها الناس، إن كنتم لا تقدرون على التصدي للعدو، فسأخرج لمحاربته وحدي.

---

[61] البداية والنهاية، ج٦، في تنفيذ جيش أسامة بن زيد. وتاريخ الخلفاء للسيوطي، ج١، فصل فيما وقع في خلافته

[62] البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ

لقد خرجت هذه الكلمات من فم شخص لم تكن عنده خبرة عالية بفنون الحرب والقتال، وكان يُظنُّ عمومًا أنه ضعيف القلب. فمِن أين استمد هذه الشجاعة والبسالة وهذه الثقة واليقين، يا ترى؟ إنما سببه أنه ﵁ كان مدركًا أن الله تعالى هو الذي بوّأه منصب الخلافة، وأنه هو المسؤول عن كل هذه الأمور، فمن واجبه أن يواجه التحدي، أما النجاح فبيد الله تعالى. فلو أراد الله له النجاح فسيجعله غالبًا، وإذا لم يرد الله له النجاح فلن تحققه له جيوش الدنيا كلها.[٦٣]

مواقف باسلة لعمر ﵁

ثم صار عمر ﵁ خليفةً، وهو الذي كان يشير على أبي بكر ﵁ أننا لن نقدر على مواجهة هذه الجيوش الجرّارة لأنها أكثر منا عددا، فلا تسيّر جيش أسامة لكي يدافعوا عنا، نجد فيه نفس التوكّل، ويحارب العالم كله في وقت واحد، غيرَ خائف ولا وجِل. لقد حارب الإمبراطورية الرومانية التي كانت دولة قوية عظيمة، والحق أن محاربة المسلمين للرومان كانت كمحاربة أفغانستان اليوم لإنجلترا. وفيما هو خائض في القتال ضد هذه الإمبراطورية القوية بلغه أن جيوش كسرى تتأهب لمحاربة المسلمين، وبدأت آثار التمرد والخروج تظهر في كثير من المناطق الفارسية التي استولى عليها المسلمون، فلم يلبث أن أمر الصحابة

---

63 تاريخ الخميس، ج٢: ذكر بدء الردة. وتاريخ الطبري، ج٤: بقية الخبر عن أمر الكذاب العنسي

بالهجوم فورا على فارس، وهو نفس عمر الذي كان يشير على أبي بكر بأننا لو أرسلنا جيش أسامة لمحاربة الروم من جهة، وحاربنا المتمردين بالداخل من جهة أخرى، فسيكون هذا خطأ فادحا منا. كان الصحابة يقولون لعمر: كيف نحارب دولتين قويتين في وقت واحد؟ ولكنه قال: حاربوهم ولا تبالوا بأي شيء.

لأن المسلمين كانوا يقاتلون الدولة الرومانية، فكان هجومهم على فارس مستبعدا جدا حتى إنه لما بلغ كسرى تقدُّم الجيوش الإسلامية لم يكترث لها مطلقًا، وقال إنما هي أراجيف، إذ كيف يمكن أن يفكر المسلمون في الهجوم علينا وهم لا يزالون مشتبكين مع عدو قوي في حرب دامية؟ وكان من أكبر دواعي هزيمة الفرس في المعارك الأولى أنهم لم يبعثوا من العاصمة أي جيش لصدّ المسلمين، بل ظل ملِكُهم يظن أن هذه الأخبار ليست إلا أراجيف وإشاعات باطلة. ولكن لما بلغته هذه الأخبار متواترة ومتواصلة بعث قائدًا له ليستطلع الأخبار ويأتيه بالخبر اليقين. فكتب إليه أن المسلمين قد شنّوا الهجوم بالفعل، وقد استولوا على مناطق كثيرة. عندها بعث الملك الفارسي جيشًا لمحاربة المسلمين.

وبوسعك أن تدرك من هنا مدى خطورة فتح المسلمين جبهة جديدة ضد الفرس وهم لا يزالون يحاربون الجيش الروماني على الجبهة الأخرى. ولكن هذه الأخطار لم تكن ذات شأن تجاه القوة التي شحن الله تعالى بها عمر رضي الله عنه بعد أن بوّأه منصب الخلافة.

أبو هريرة يبصق في منديل كسرى

وهي الحرب نفسها التي وجد فيها المسلمون غنائم كثيرة بعد انتصارهم، وكان منها منديل كسرى الذي صار من نصيب أبي هريرة ﷺ. وذات يوم أُصيب أبو هريرة بالسعال، فأخرجَ منديلَ كسرى وبصق فيه، وقال: بخٍ بخٍ أبو هريرة.. أي ما أعظمَ شأنَك يا أبا هريرة، إذ تبصق في منديل كسرى اليوم! فسأله البعض: لماذا تقول هكذا؟ فأجاب: لقد كنت في عهد النبي ﷺ يُغمى عليّ من شدة الجوع أحيانًا، فكان الناس يظنون أنه قد أصابتني نوبة صرع، فكانوا يضربون رأسي بالنعال، أما اليوم فترون أني أبصق في منديل ملك الفرس!

فالحق أن علامة ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ قد حققها الله تعالى في الخلفاء الراشدين بكل جلاء، فلم يخافوا أحدا أبدا سوى الله تعالى.

مواجهة عثمان وعليّ للأعداء ببسالة نادرة

أما عثمان ﷺ فكان معروفًا بالحياء ورقّة القلب، بل كان عند الناس اعتقاد بأنه ضعيف، ولكنه لما تولى الخلافة تحلّى بشجاعة نادرة حتى إن مواقفه الجريئة في صدّ الفتن الداخلية تبعث على الحيرة والدهشة.

وكذلك كان علي ﷺ، إذ لم يبال بأي معارضة أو خطر. وبرغم أن الأخطار كانت تحدق به من الداخل والخارج، إلا أنه آثر مرضاة الله

تعالى عند كل موقف ولم ينحرف قيد شعرة عن المشيئة الإلهية كما فهمها غير خائف ولا وجل من أي مخلوق.

إذًا، فإن الله تعالى قد حقق علامة ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ في جميع الخلفاء الراشدين بشكل واضح ورائع، ما يشكل دليلا قاطعًا على أن الله تعالى هو الذي أقامهم على منصب الخلافة، وهو الذي كفَل لهم التأييد والنصرة.

اعتراضات تثار حول آية الاستخلاف

أتناول الآن الاعتراضات التي تُثار عادة بشأن آية الاستخلاف.

الاعتراض الأول: يُقال أن الوعد الموجود في هذه الآية قد قُطع مع الأمة الإسلامية كلها وليس مع بعض أفرادها، أي أن الله تعالى سيجعل هذه الأمة كلها خليفة وليس أنه سيختار بعض أفرادها خلفاء، والمراد أن الله تعالى سيُعطي المسلمين كلهم الحُكم والغلبة.

والاعتراض الثاني: لقد قال الله تعالى هنا ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، والمعروف أن الأمم السابقة قد نالت الخلافة على شاكلة النبوة أو الملوكية، ولا نقبل المشابهة بينهم وبين الأمة الإسلامية إلا إلى هذا الحدّ، فنحن نقرّ بأنه سيكون في المسلمين أنبياء وملوك أيضا، ولكن الخلافة التي تذكُرها ليست خلافةَ نبوة ولا خلافةَ مُلك، فكيف تكون هذه الخلافة حقة؟

والاعتراض الثالث: لو سلّمنا بالخلافة التي كانت بعد الرسول ﷺ، فحيث إنها كانت تشمل الــمُلك أيضا فيمكن إدراجها تحت قوله تعالى﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾، ولكن أين الدليل على صحة الخلافة الأحمدية، فهي ليست خلافةَ نبوةٍ ولا خلافةَ مُلك.

والاعتراض الرابع: لو قيل بأن الوعد المذكور في آية الاستخلاف هو للأفراد وليس للأمة، فسيُستدلّ بها على خلافةِ نبوة وخلافةِ مُلك.. أي أن بعض أفراد هذه الأمة سيكونون أنبياء وملوكا، ولكن خلافة النبوة التي كانت جارية في الأولين قد ختمها الرسول ﷺ، فأنتم أيضا تسلِّمون بأنّه لا يمكن أن يأتي الآن ذلك النوع من الأنبياء الذين كانوا يأتون قبل النبي ﷺ، وأما الملوكية فتعترفون بأنفسكم أن الخلفاء الراشدين ليسوا ملوكًا، كما ورد في الحديث عن النعمان بن بشيرٍ عن حُذَيْفَة قَالَ، قال رَسُولُ اللَّه ﷺ: "تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّة، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا"[٦٤]؛ فما دام النبي ﷺ قد أنكر كون الخلفاء الراشدين ملوكًا كما هو واضح من هذا الحديث القائل بأن الخلافة تكون أولاً ثم بعدها يكون الــمُلك، فثبت أن خلافة النبوةِ وخلافة الــمُلكِ لن ينالها أفراد

---

[64] مسند أحمد، مسند الكوفيين

هذه الأمة، فثبت أن لا دليل في هذه الآية على خلافةِ فرد، وإنما يراد بها خلافة الأمة كلها، وهذا لا يمكن أن ينكره أحد.

الرد على هذه الاعتراضات

الآن أرد على هذه الاعتراضات كلها.

الاعتراض الأول: الوعد لكل الأمة لا لبعض الأفراد

الجواب الأول: مما لا شك فيه أن هذا الوعد قد قُطع للأمة كلها، ولكن هذا لا يمنع أن يتحقق على يد بعض أفرادها. فهناك وعود تكون للأمة كلها، ولكنها تتم على يد الأفراد، ومع ذلك يقال إن الوعد الذي قُطع للأمة كلها قد تحقق. وهناك أمثلة كثيرة على هذا الأسلوب الكلامي في كل لسانٍ في العالم، فمثلا يقال في لغتنا (الأردية): إن الإنجليز ملوك، فهل يعني هذا أن كل واحد من الإنجليز مِلكٌ؟ كلا، لا يكون كل إنجليزي مِلكًا ولا يمكن أن يكون، ومع ذلك يقال إن الإنجليز ملوك. وكذلك يقال إن الشعب الفلاني حاكمٌ، مع أن كل الشعب لا يكون حاكما بل بعض أفراده يتولّون الحكم بينما يكون الباقون كلهم تابعين لهم. كذلك يقال إن الأمة الفلانية ثريّة جدًّا، ولكن هذا لا يعني أن كل فرد منها يكون ثريًّا. فمثلا يقال إن الإنجليز أثرياء، مع أنه يوجد بينهم من يعيشون في فقر مدقع. لقد حكى أخي الأكبر المرحوم ميرزا سلطان أحمد ذات مرة أنه خلال أيام إقامته في لندن رأى ذات مرة أن خادمةَ البيت- الذي كان مقيما فيه- ألقت القمامة في الخارج، فجاء

أحد الصبية الإنجليز يفتّش الفضلات، فوجد فيها قطعة خبز فأكلها. كذلك رأيت أنا أيضًا نساء الأوروبيين في منطقة "براندزي"[٦٥] وقد خرجن حاملات الأواني على رؤوسهن لجلب الماء من مكان بعيد، وقد رأيتُ معهن أولادهن في ثياب رثّة مرقّعة بقطع قماش ذات ألوان مختلفة. وبرغم هذا الأمر الواقع يقال إن هؤلاء أثرياء جدًا. فثبت أنه إذا قُطع وعد لقوم فلا يعني ذلك أن تحقيقه على يد بعض أفراد منهم مستبعد ومحال، بل هنالك كثير من الوعود التي تُقطع مع الأمم وتتم على يد بعض أفرادها. ومثاله في القرآن الكريم قول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾[٦٦]. فهل بوسع أحد أن يثبت أن كل بني إسرائيل صاروا ملوكا؟ ثم هل يمكن أن يشكّ أحد في وجود فقراء مُدقعين بين بني إسرائيل، مع أن موسى عليه السلام يقول لهم: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾؟ إنما المراد من هذا التعبير أنه إذا كان الـمَلِك من قوم فكل القوم ينتفعون من النعم والمنافع المتعلقة بالـمُلك، ولذا يجوز القول إن القوم كلهم ملوك. فما دام هؤلاء المعترضون لا يعنون بهذه الآية، رغم وجود عبارة ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾، أن كل يهودي صار ملكًا، فلماذا يستنتجون من قول الله تعالى ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

---

65 مدينة إيطالية. (المترجم)

66 المائدة ٢١

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ..﴾ أن تحقق هذا الوعد من خلال بعض أفراد الأمة محال، وإنما المراد منه أن الأمة كلها تُعتبر خليفة؟ الغريب أن الله تعالى عندما يقول عن اليهود ﴿جَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ يقول المفسرون بكل هدوء: مع أنّ الـمُلك قد ناله بعض أفراد اليهود إلا أنه يمكن القول إنهم كلهم قد نالوه لأنّ مستوى حياتهم جميعا كان قد تحسن وارتفع، ولكن هؤلاء المفسرين حين يقرأون قول الله تعالى تعالى ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ يقولون: إن هذا الوعد مقطوع للأمة كلها، ولا نقبل القول أنه قد تحقق من خلال بعض أفرادها فقط. والحق أنه لو كان المراد منه غلبة الأمة كلها كما يقولون، فمتى نال كل منهم هذه الغلبة؟ كلا، بل الواقع أن بعض أفراد الأمة ينالون الحُكم والغلبة دون الآخرين. لقد كان بين الصحابة كثيرون عاشوا في ضيق شديد حتى أيام غلبة المسلمين. فهناك قصة طريفة لأبي هريرة ﵁ بأنه خلال المعركة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما نـزل الفريقان في موقع يسمى "صِفِّين"، كانت المسافة بين المعسكرين قرابة ميل، وكلما حانت الصلاة ذهب أبو هريرة إلى معسكر علي ﵁، وكلما حان موعد الطعام ذهب إلى معسكر معاوية ﵁. فقيل له: أنت شخص عجيب، تذهب مرة إلى معسكر علي ﵁، ثم تذهب إلى معسكر معاوية ﵁. فأجاب: أجد الصلاة عند عليّ جيدة، بينما أجد الطعام عند معاوية جيدا، فأذهب إلى

علي ﷺ وقت الصلاة، وأذهب إلى معاوية وقت الطعام. فكان أبو هريرة يذهب إلى معسكر معاوية لأنه كان يجد هناك أطعمة شهية، وكان يأتي إلى معسكر عليّ وقت الصلاة لأنه كان يصلي صلاة مليئة بالرقة والحرقة.

طريفة لأحد غير المبايعين

وهذا هو حال بعض غير المبايعين، بل طريفته أكثر غرابة من طريفة أبي هريرة. فذات يوم كنت في منـــزل شودري ظفر الله خان المحترم، فأخبرني أحد الإخوة أن بعض غير المبايعين قال له: إنّ عقائدنا نحن غير المبايعين هي الحق، أما أدعية خليفتكم فتُقبل أكثر. وقوله هذا يشبه قول أبي هريرة ﷺ تماما.

باختصار، برغم امتلاك أمةٍ الـــمُلكَ إلا أنّ كثيرا من أبنائها يظلون فقراء، ومع ذلك يقال إن هذه الأمة تملك الملك، مع أنّ شخصًا واحدا منها يكون ملكا والآخرون لا يكونون، ومن أجل ذلك قيل لليهود ﴿جَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾. لو كان مثل هذا الوعد يعني بالضرورة أن يكون كل فرد من الشعب ملِكًا فعليهم أن يثبتوا لنا أن الله تعالى جعل كل يهودي ملِكًا، ولكن لا أحد يقدر أن يثبت ذلك، بل سيقول: إذا صار من أمةٍ ملكٌ، قيل إن الأمة كلها نالت الـــمُلك، لأنها تنتفع منه. كذلك إذا صار بعض الأفراد من أمة خلفاء فيقال إن هذه الأمة كلها نالت نعمة الخلافة، وليس ضروريا أن ينالها كل فرد منها.

وهناك مثال آخر على هذا الاستعمال حيث قال الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنــزلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنــزلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾[67].. أي عندما يقال لليهود آمنوا بما نــزل في القرآن الكريم يقولون ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنــزلَ عَلَيْنَا﴾. وواضح أن الوحي لم يترل على اليهود، وإنما نزل على موسى، ومع ذلك قالوا ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنــزلَ عَلَيْنَا﴾. هذا يعني أنهم كانوا يقولون عما أنزل الله على موسى وغيره من الأنبياء عليهم السلام من كلام أنه ﴿أُنــزلَ عَلَيْنَا﴾، مع أنه لم يترل عليهم، بل على أنبيائهم.

فثبت من هنا أنه إذا نــزلت نعمة من نعم الله على أفراد الأمة فانتفع بها الجميع، فيقال إن الأمة كلها قد نالت تلك النعمة. لو كان عند زيد أموال طائلة فلا يقال أن كل بلدته صارت ثرية، ولكن لو كان في بلدةٍ عالم ينفع أهلَها بعلمه بالتعليم والتدريس فيقال إنها بلدة العلماء. وأوضح مثال لذلك هو بلدتنا قاديان، إذ يوجد فيها الناس من كل نوع، ففيها العلماء والجهلاء وأصحاب الدكاكين والعمال والمثقفون والأميون، ولكن لو ذهب اثنان أو أربعة من أهل قاديان، وإن كانوا عمالا يحملون الحجارة، إلى قرية مجاورة، فيقول أهلها: ها قد جاء شيوخ قاديان. وليس سبب ذلك إلا أنّ قاديان يدرَّس فيها العلم بكثرة في كل وقت، وبسبب شهرتها العلمية يسمون كل شخص من قاديان شيخا.

---

67 البقرة ٩٢

ومثاله الآخر أنهم يسمون ابن الطبيب طبيبًا، وإن لم يقرأ حرفا من كتب الطبّ، ذلك أنه إذا كان هناك انتماء شديد ونسبة قوية إلى شيء فإنهم يتكلمون نظرًا إليه، فيشركون جميع الأفراد فيه، فإذا نزل كلام الله على نبي فيقال إنّ كلام الله قد نزل على قومه، مع أنه لم ينزل إلا على نبيهم، كذلك إذا كان المِلك من شعب فيُعدُّ الشعب كله ملِكًا. ففي إنجلترا فقراء كثيرون يسألون الناس، ولكن لو جاء أحد الكناسين من إنجلترا إلى الهند فإن الناس يسلّمون عليه من بعيد تبجيلًا، ويهتمّ به رجال الشرطة أيضا، كي لا يساء إلى هذا الرجل العظيم، مع أنه لا يتمتع بأي عزّ ولا إكرام في بلده، فحيث إن بعض أفراد هذا الشعب قد صاروا ملوكًا فكل فرد منهم يلقى الإكرام.

قبل فترة ذهب حاكم إحدى الولايات الهندية إلى إنجلترا، وعند العودة لما وصل إلى مومبي أراد الخروج من الميناء عاجلا لعمل طارئ له، وكان أحد الموظفين الإنجليز يفحص جوازات السفر، فذهب إليه بجوازه مستعجلا وقال: أرجوك أن تفحص جواز سفري بسرعة لأن لديّ عملا طارئًا هاما وأريد الخروج بسرعة، فقال له: انتظرْ، لن أفحص جوازك إلا عندما يصل دورك. لم يبالِ هذا الإنجليزي بهذا الحاكم، ولم يسمح له بالخروج إلا بعد الآخرين. فأثارت الجرائد الهندية ضجة بأنّ حاكمنا قد تعرض للإساءة، ولكن لم يسأل أحدٌ هذا الموظف

الإنجليزي ولم يقل له لماذا فعلت هذا. فثبت أن الأمة التي تكون غالبةً يلقى فقراؤها نوعًا من العز والإكرام.

عندما فُرض الحظر على الخمر في أمريكا كانت سفن بعض البلاد الأجنبية تهرِّب الخمر إليها، وذات مرة حاولت سفينة إنجليزية تهريب الخمور، فعلم الأمريكان بذلك فطاردوها بسفنهم، ولكنها كانت قد خرجت من السواحل الأمريكية لمسافة ميلين أو ثلاثة. أمّا لو قبضوا عليها داخل حدود الساحل الأمريكي لفعلوا بها شيئا، ولكنها كانت قد خرجت من الحدود الأمريكية فظلت تُبحِر بهدوء. فأرسلت إليها السفن الأمريكية إشارات تنذرها بالوقوف وإلا يقومون بقصفها. فرفعت السفينة الإنجليزية عَلَمها مسلّطةً الضوء عليه، تنبيهًا للأمريكان أنها سفينة إنجليزية، فليقوموا بقصفها إن استطاعوا. لما رأى الأمريكان اللواء الإنجليزي يرفرف عليها عادوا أدراجهم لأن تعرُّضهم لها قد يُشعل الحرب بين الدولتين.

فثبت من هنا أنّ الأمة إذا نالت الغلبة نال أفرادها- حتى من الطبقة الدنيا أيضا- عزًّا وإكراما في بعض الأمور.

لقد حكى لي كثير من الهندوس القاطنين في قاديان أنهم عندما يذهبون إلى الخارج ويذكرون للناس أنهم من قاديان فيلقون الحفاوة والتكريم، لمجرد أنهم من أهلها. ثم إننا نرى أنه إذا زار شخص من البلاد العربية الهندَ فلا تملّ ألسنة الهنود من قولهم: يا أخا العرب، يا أخا

العرب، مع أنه لا يلوي عليه أحد في بلده. ثم خذوا مثلا جماعتنا نحن، فلأن الله تعالى قد أعطاها نعمة الخلافة، فيتمتع أبناؤها بمنافع كثيرة. ولو تعرض أحد الأحمديين لأدنى أذى تقوم ضجة في العالم كله، كذلك لو كان أحدهم بحاجة إلى المساعدة فإنه يصل إلى قاديان وتُسدُّ أكثر حاجاته فيها. أما لو كنا مشتتين، لا قدر الله، مثل المسلمين الآخرين، لما كان في صوتنا قوة وما انتفع أبناء الجماعة من المنافع التي ينتفعون بها.

تأثير الاحتجاج ضد أفغانستان

عندما استُشهد بعض أبناء جماعتنا في أفغانستان رفعنا صوت الاحتجاج، وكان ناجعًا بفضل الله تعالى حتى ظلّ الناس يتحدثون عن حادث استشهادهما في شوارع لندن لستة أشهر، وتعذّرَ على السفير الأفغاني الخروج للناس خجلا، وكلما خرج أخذوا يلومونه ويقولون له: هذه هي الحرية التي يتمتع بها أهل بلادك! وذلك رغم أن العديد يُقتَلون يوميا في أفغانستان، ولا أحد يذكرهم.

فلأن النظام يجلب لأبناء الشعب منافع كثيرة، لذلك إذا نال أفراد من الأمة نعمة الخلافة أو الملك يقال إن الأمة كلها نالتها، لأنه القوم كلهم ينتفعون من النعم والمنافع المنوطة بالخلافة أو الملك. فلأن الملوكية مدعاة لعز القوم كلهم قال الله لليهود: ﴿جَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾، ولأن الخلافة كانت ستنفع أبناء الأمة كلها، وقد نفعتهم فعلا، قال الله تعالى عنهم جميعًا ﴿ليستخلفنّهم﴾.

الخلافة أمرٌ انتخابيٌّ تشترك فيه الأمة كلها

والجواب الثاني هو أن الخلافة أمرٌ انتخابيّ يتدخل فيه القوم كلهم، وتركيزًا على ضرورة انتخاب الخليفة قال الله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. هذا الوعد مقطوع للقوم، فلا يمكن أن يناله أحد وراثةً، وإنما يكون الخليفة من ينتخبه القوم. إذن، فإن الله تعالى قد حثَّ بذلك على ضرورة الانتخاب خاصةً، مبينًا أنه لا يكون خليفةً إلا من يكون للمؤمنين دخلٌ في خلافته. لا شك أنها نعمة إلهية، ولكن الله يعطيها عبادَه المؤمنين أولاً، ثم يأمرهم أن ينتخبوا أكفأَهم ويسلّموه إياها. يختار الله تعالى الخليفة بأيدي المؤمنين لكي لا تنتقل الخلافة وراثةً، ويأمرهم أن ينتخبوا للخلافة أفضلهم وأكفأهم دائما. فالله تعالى قد وعد في قوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الأمةَ الإسلامية بالخلافة لكي يرسّخ في أذهانهم أن وعد الخلافة هو للأمة كلها، وسوف يجعل الخليفةَ مَن يشاؤه ﷻ بأيدي القوم.

لماذا عيّن أبو بكر عمرَ خليفةً؟

لو قيل: ما دام لا يكون خليفةً إلا مَن تختاره الأمة، فلماذا عيَّن أبو بكر عمرَ خليفةً؟ فالجواب أنه لم يعيّنه هكذا، بل الثابت أنه استشار الصحابة قبل ذلك. كل ما في الأمر أن الخلفاء الآخرين انتُخبوا بعد وفاة الخليفة السابق، أما عمر فانتُخب في حياة أبي بكر. ثم إنه لم يكتف باستشارة

بعض الصحابة في خلافة عمر وبإعلان خلافته، بل خرج إلى المسجد رغم ضعفه الشديد مستندا إلى زوجته وقال للقوم: أيها الناس، لقد اخترتُ عمر للخلافة بعدي، باستشارة الصحابة، فهل ترضون به خليفةً؟ فاستحسن القوم كلهم هذا الأمر. فهذا أيضا نوع من الانتخاب.

هل تعيين معاوية ليزيد خليفةً انتخابٌ؟

وإن قيل: فتعيين معاويةَ ليزيد أيضا سيُعدُّ انتخابا، إذ عرض أمر خلافته على القوم. فالرد على ذلك كالآتي:

١: لم يكن معاوية نفسه قد انتُخب، وما دامت خلافته ليست ثابتة فكيف تثبت خلافة ابنه؟ نحن مستعدون أن نعتبر يزيد نائبًا لمعاوية، ولكن لا يمكن أن نسميه خليفةً، لأن خلافة معاوية أيضا ليست ثابتة، فكيف تثبت خلافة ابنه؟ كان معاوية مِلكًا دنيويا، لذا فيمكن أن نعدّ يزيد مِلكًا دنيويا، ولكن لم يكن معاوية ولا يزيد خليفةً.

٢: ثم إن معاوية لما استشار الناس في يزيد فإنه كان حاكمًا عليهم.. فمشورته في هذه الحالة لا تسمى مشورة، إذ لا بد من حُرية عند تقديم المشورة، ولكن إذا لم تكن هناك حرية وقال المِلك لرعاياه أن يبايعوا ابنه، فمتى تكون الرعية حرة في مشورها، وأنَّى لها أن ترفض قوله؟ إنما مثله كمثل أن يقول المِلك الأفغاني لرعاياه: أيها الناس، اعتبروني خليفةً، وإذا رضوا به بدأ يقول إن الناس انتخبوني. فهذا الانتخاب لا يسمى انتخابا، ومثل هذه الاستشارة لا تسمى استشارة، إنما تصحّ الاستشارة

إذا كان الناس أحرارا وكل واحد يكون مجازا بأن يرشّح اسم من يشاء من دون فكرة مسبقة أو إجبار.

فأولاً لم يكن معاوية خليفة، بل كان ملِكا، وثانيا إنه عرض خلافة ابنه على الناس وهو ملِكٌ، فهذا لا يسمى استشارة ولا انتخابا.

ترشيح الأب ابنه للخلافة يخالف سنة الصحابة

ثالثا: ثم إن ترشيح الأب ابنه للخلافة يؤكد أنه لم يكن انتخابًا حقيقيا، لأن ترشيح الأب ابنه للخلافة خلاف لسنة الصحابة. عندما قرب أجل عمر رضي الله عنه جاءه الناس وقالوا له مجمعين أن يعيّن ابنه عبد الله خليفة بعده فهو أحقّ بالخلافة، لكنه قال: لقد ظلت أعناق المسلمين خاضعة لعائلتنا فترة طويلة، وأريد أن تنتقل هذه النعمة لغيرهم الآن.

فلو أن الناس انتخبوا عبد الله بن عمر بعد وفاة عمر خليفةً لصحّ ذلك، أما أن يعيِّن عمر ابنه خليفة فلم يكن صحيحا. كذلك لو أن معاوية لم يعرض أمر ابنه يزيد على الناس في حياته، وانتخبه القوم بعد وفاته لقلنا إنه كان ملِكًا انتخبه القوم، ولكن نظرًا إلى الأمر الواقع فيستحيل أن نسميه خليفة ولا ملِكًا منتخبا بيد الناس. لا نستطيع أن نسمي معاوية آثما، إذ فعل ما فعل مضطرًّا بسبب الظروف السائدة، إلا أننا لا نستطيع أن نسمي يزيد بل معاوية أيضا خليفةً، وإنما نسمي كلا منهما ملكا.

عندما عرض معاوية على الناس أمر يزيد استهجن الصحابة كلهم عرضه هذا، ولم يعيروه قيمة. فقد ورد في التاريخ أن معاوية لما قال للناس في خطابه: أيها المسلمون، تعلمون أن أسرتنا من سادة العرب، فمن ذا الذي هو أحقّ بالـــمُلك مني اليوم؟ ومن ذا الذي سيكون أحقّ من ابني من بعدي؟ وكان عبد الله بن عمر جالسًا في زاوية من ذلك المجلس، ويقول هذا: لما سمعتُ معاوية يقول هذا كنتُ جالسا وقد لففتُ قدميّ بردائي، فحللتها وأردتُ أن أقوم وأقول لمعاوية إنّ الأحق بهذا المقام منك مَن كان أبوه يحارب أباك تحت لواء الرسول ﷺ، وكان يخرج في الجيوش الإسلامية لمحاربتك ومحاربة أبيك، لكني قلت في نفسي ما لي ولهذه الأمور الدنيوية، وقد يؤدي قولي إلى الفتنة وإضعاف المسلمين أكثر، فجلستُ ولم أرفع صوتا ضد معاوية.

فكان الصحابة يرون تصرُّف معاوية هذا باطلا تماما، وكانوا لا يعيرونه أدنى قيمة.

استقالة ابن يزيد من الحكم

ورابعا: كان ابن يزيد نفسه غير راضٍ بخلافته، دَعْ عنك رضا الناس بها، فبمجرد أن جلس على العرش رفض الـــمُلك واعتزله. وهذا من الحقائق التاريخية الشهيرة، لكن لا أدري لماذا لم يذكر المؤرخون المسلمون هذا الحادث بكثرة كما ينبغي، مع أنه كان من واجبهم أن يذكروا هذه الواقعة مرارا، فإن فيها عبرةً وبرهانًا على ظلم يزيد.

لقد ورد في التاريخ أنه بعد وفاة يزيد جلس على العرش ابنٌ له، وكان اسمه معاوية مثل اسم جده، وبعد فراغه من أخذ البيعة من القوم ذهب وانزوى في بيته أربعين يوما، ثم خرج يومًا وصعد المنبر وقال: أيها الناس، لقد أخذت منكم البيعة ليس لأني كنت أهلاً للبيعة، بل فعلتُ ذلك درءًا للفتنة والفرقة، ولم أفتأ منذ ذلك الحين أفكّر منعزلاً في بيتي أن أجد فيكم مَن هو أهل للبيعة فأسلِّم له الإمارة وأبرِّئ ذمتي، ولكني لم أجد رغم التفكير الكثير أحدا فيكم هو كفء لذلك. فلذلك أيها الناس، اسمعوا وعوا، إني لست أهلاً لهذا المنصب، كما لم يكن أبي ولا جدي أهلا له. كان أبي أقلّ درجة من الحسين، وكان أبوه أقلّ درجة من الحسن والحسين، وكان عليّ أحقّ بالخلافة في وقته، وكان الحسن والحسين أحقّ بها بعده من جدي وأبي. فلذلك إني أعتزل الإمارة، فبايِعوا من شئتم الآن. وكانت أمه تسمع خطابه من وراء الحجاب، فلما سمعت قوله هذا قالت في غضب: أيها الشقي، لقد أرغمتَ أنف أسرتك ولطخت سمعتها. فردّ عليها: لقد قلتُ الحق، فقولي ما شئت. ثم بعد ذلك ظل منـــزويا في بيته بضعة أيام ومات.

يا لها من شهادة عظيمة على أن خلافة يزيد لم يرضَ بها حتى ابنه، دعْ عنك أن يرضى بها الآخرون. ولم يفعل ابنه ما فعل طمعًا في شيء، أو خوفًا من أحد، بل فكّر في قرارة قلبه بجدّيّة، ثم قرّر أنّ عليًّا رضي الله عنه كان أحقّ بالخلافة من جدّه، وأن الحسن والحسين كانا أحق بها من أبيه،

ووجد نفسه غير قادر على حمل هذا العبء. فثبت أن تعيين معاوية يزيدًا خليفةً لم يكن انتخابا أبدا.

تفسير المسيح الموعود عليه السلام لآية الاستخلاف

والجواب الثالث يخصّ الأحمديين، وهو أنّ المسيح الموعود عليه السلام قد كتب في تفسير هذه الآية في كتابه "سِرُّ الخلافة":

"إن الله قد وعد في هذه الآيات، للمسلمين والمسلمات، أنه سيستخلِفَنّ بعضَ المؤمنين منهم فضلاً ورحمة".[٦٨]

فما دام المسيح الموعود عليه السلام قد بيّن أن قول الله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ لا يعني خلافة الأمة كلها، بل خلافةَ أفراد منها، فلا يحقّ للمسلم الأحمدي على الأقلّ أن يقول بأن المراد منه خلافة الأمة كلها.

الاستدلال بالخلافة المحمدية

والجواب الرابع أيضا يخصّ الأحمديين، وهو أن المسيح الموعود عليه السلام قد استدل بهذه الآية على خلافتَه المحمدية مرارا، وهذا الوعد يشمل خلافة النبوة أيضا، وواضح أن خلافة النبوة لا يراد بها خلافة القوم كلهم، بل خلافة بعض أفراد منهم فقط، فلذلك عندما ذكر الله

---

68 سِرُّ الخلافة، الخزائن الروحانية؛ مجلد ٨، ص ٣٣٤

الــمُلك قال ﴿جَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾، ولكن عندما ذكر النبوة قال ﴿جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾. وإنما فرَّق بين التعبيرين لأنه يمكن القول أن الله تعالى جعل أولئك القوم ملوكًا، ولكن لا يقال إن الله تعالى جعل أولئك القوم أنبياء. فما دام وعد النبوة يتمّ على أيدي أفراد رغم كون الخطاب موجهًا إلى الأمة كلها، فيمكن إنجاز وعد الخلافة أيضا على يد أفراد رغم كون الخطاب موجها إلى الأمة كلها. وكما أُنجز جزء من الوعد، كذلك تماما سينجَز جزؤه الآخر.

شهادة الله الفعلية

والجواب الخامس هو أن شهادة الله الفعلية قد بيّنت المراد من هذه الآية. لو كان الله تعالى يقصد من قوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إقامة الديمقراطية، فعلينا أن نرى ما إذا قامت الديمقراطيةُ بعد الرسول ﷺ أم لم تقم؟ أما لو كان قصده تعالى منه أنه سيشرّف بعض أفراد الأمة بالخلافة، فيقال إن الأمة كلها قد تمتعت ببركات الخلافة، فعلينا أن نرى فيما إذا قامت الخلافة على هذا المنوال بين المسلمين أم لا؟ ليس المراد من هذه الآية إلا كما حقق الله هذا الوعد بعد وفاة الرسول ﷺ؛ إذ لا أحد سوى الله تعالى يقدر على تحقيق وعده أفضل منه.

عندما ننظر من هذا المنطلق إلى ما حصل بعد وفاة الرسول ﷺ نجد أن الخلافة قد نالها بعض أفراد الأمة لا كلهم. فإما أن يقول هؤلاء

المعترضون أن الله تعالى لم يحقق الله وعد خلافة الأمة لأن المسملين بعد وفاة الرسول ﷺ لم يعودوا مصداقا لقول الله تعالى ﴿آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وصاروا كلهم – والعياذ بالله– منافقين، كما يزعم الشيعة بأنه لم يبق من الأمة إلا شخصان ونصف من المؤمنين، أو يقولوا أنهم كانوا مؤمنين ويعملون الصالحات، ولكن سينشأ في هذه الحالة السؤال: إذا كان الله تعالى لم يحقق معهم هذا الوعد تحقيقًا صحيحا، فمن ذا الذي حقق الله معه هذا الوعد؟

باختصار، إن الطريقة التي أقام الله بها الخلافة في المسلمين بعد الرسول ﷺ لهي شهادة فعلية من عند الله تعالى، وهي تؤكد أن هذا الوعد لا يُنجَز للأمة إلا من خلال بعض أفرادها.

تشابُه الخلفاء الأربعة بخلفاء الأولين في كل شيء ليس ضروريا

أما **الاعتراض الثاني** الذي يُثار حول هذه الآية فهو قول البعض: لنفترض أن هذه الآية تعني أن بعض أفراد الأمة سينالون الخلافة، ولكنك تسلّم بأن الخلافة في الأولين كانت خلافةَ نبوة أو خلافةَ ملَكيّة، ولكنك لا تعتبر الخلفاء الأربعة لا من الأنبياء ولا من الملوك؛ فكيف تحقَّقَ هذا الوعد؟ وكيف صاروا مصداق هذه الآية؟

والجواب: لا شك أن الخلافة في الأمم السابقة كانت على شكل نبوة أو ملَكيّة، ولكن المشابهة بين شيئين لا تكون بالضرورة في كل شيء، بل

تكون في الأمر الأساسي. فمثلاً لو شبّهنا شخصًا طويلا بشخص طويل آخر، وكان الأول صالحا وعالما، والآخر سارقا وجاهلا، فلا يجوز لأحد أن يقول كيف يصحّ هذا التشبيه بينهما مع أن أحدهما سارق والآخر مواظب على الصلاة، أو أن أحدهما عالم والآخر جاهل؛ ذلك لأننا شبّهنا أحدهما بالآخر من حيث الطول فقط وليس في كل شيء.

وهناك مثال لذلك في القرآن الكريم حيث قال الله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾.[٦٩] وتعلمون أن الله تعالى قد شبّه هنا نبينا ﷺ بموسى عليه السلام، مع أن موسى كان قد أُرسل إلى فرعون فقط، بينما لم يُبعث النبي ﷺ إلى ملك واحد بل إلى ملوك الدنيا كلهم. كما أن موسى عليه السلام قد بُعث لهداية بني إسرائيل فقط، بينما بُعث النبي ﷺ لهداية العالم كله. ثم لم يكن عهد نبوة موسى عليه السلام إلا قرونًا، أما النبي ﷺ فرسالته ممتدة إلى يوم القيامة. هذه هي أهم الفروق بين موسى عليه السلام ونبينا ﷺ، ومع ذلك يقول المسلمون إن النبي ﷺ جاء مثيلاً له. فإذا كانت كل هذه الفروق لا تقدح في المشابهة بين هذين النبيين فلِم يعترض هؤلاء على بعض الفروق الجزئية بين أحوال خلفاء الأمم السابقة وأحوال خلفاء الإسلام؟

الحق أنّ التشابه بين موسى عليه السلام ونبينا ﷺ إنما كان يعني أن موسى عليه السلام أوتيَ شريعةً كانت كاملةً وشاملةً لكل القضايا نظرًا لحاجات

[69] المزمل ١٦

زمنه، كذلك قد أُعطي النبي ﷺ شريعةً كاملة وشاملة لكل القضايا سدًّا لحاجات الناس إلى يوم القيامة، وإن كانت شريعته ﷺ أفضل وأعلى كثيرا من التوراة. ثم كما أن الله تعالى ظلّ يحافظ على السلسلة الموسوية بعد وفاة موسى بأيدي الأنبياء، كذلك كلما حصل فساد في الأمة المحمدية سيقيم الله تعالى بينهم من يصلح هذا الفساد. كما أن التشابه بين النبيين يشير إلى أن المسيح كما جاء بعد موسى بـــ ١٣ قرنا، كذلك سيأتي المسيح في الأمة المحمدية بعد رسول الله ﷺ بـــ ١٣ قرنا. وليس المراد من هذا التشابه أبدا أن رسالة الرسول ﷺ كانت مختصة بزمن أو بشعب كما كانت رسالة موسى مختصة بزمن أو بشعب.

فإذا ثبتت مشابهة خلافة الخلفاء الراشدين بخلافة الأولين في بعض الأمور فقد تمت المشابهة، وليس ضروريا أن تتم في كل الأمور. كان الأمر الأساس أن الله تعالى كما أقام بعد وفاة موسى أناسًا لإصلاح أمته، كذلك سوف يقيم الله بعد وفاة الرسول ﷺ أفرادا لإصلاح أمته، وقد حقّق خلفاء الرسول ﷺ هذا الهدف أفضل مما حقّقه خلفاء الأمم السابقة. لا شك أن خلفاء موسى وخلفاء إبراهيم كانوا أنبياء، وكذلك كلما توفي نبي من الأنبياء الآخرين أقام الله تعالى لاستمرار مهمته نبيًّا خليفةً له، ولكن هل يسع أحدًا أن يقول أنّ تمكين الدين الذي تم على أيدي الأنبياء الأولين لم يتم على يد خلفاء الرسول ﷺ؟ إن دراسة الأمر الواقع ببصيرة ووعي تجعلنا نقرّ أن ما قام به أبو بكر وعمر وعثمان

وعلي رضي الله عنهم من تمكين الدين لم يستطعه يوشع وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.

سيقول السفيه أنك قد أسأت إلى هؤلاء الأنبياء، ولكن ليس في قولي أي إساءة لهم، لأننا عندما نتحدث عن النبوة سنقول: لم يكن أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا عليّ أنبياء، ولكن عند الحديث عن تمكين الدين سنقول إنّ خلفاء الرسول ﷺ قد سبقوا الأنبياء الآخرين في هذا المجال يقينا.

الواقع أنّ الأنبياء قبل النبي ﷺ لم يأتوا بشريعة كاملة، فجاء بعدهم أنبياء أو ملوكٌ. كلما مسّت الحاجة للوحي من أجل إصلاح الخلق بُعث نبيّ، ولكنه كان ينال النبوة مباشرةً. وكلما تطرق الفساد إلى نظام الـمُلك أُقيم بينهم ملِك. لأن الناس لم يكونوا قد تطوروا عقليا بحيث يسعوا بأنفسهم إلى إصلاح أنفسهم، فكان الله تعالى يهب الأنبياء مقام النبوة مباشرةً، وليس هذا فحسب، بل كان الملوك يعيَّنون من عند الله أيضا، كما قال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾[70]، مما يعني أن الناس لم يكونوا أهلاً بعد لاختيار ملِك لهم، كما لم تكن شريعتهم كاملة بحيث ينال أحد منهم ببركة فيوضها النبوةَ، ولكن الرسول ﷺ جاء بشرع كامل، فحصل الفرق بين الخلفاء بنوعيهم. كان خلفاء الأنبياء السابقين أيضا أنبياء، وإن كانت نبوتهم مباشرة ومستقلة، كما كان الملوك يُعيَّنون لإدارة الحكم ولم يكونوا يُنتخبون، فإما أنهم

---

[70] البقرة ٢٤٨

كانوا يرثون الــمُلك أو أن نبيهم كان يقيم لهم ملِكًا بأمر الله تعالى. ولكن أمة الرسول ﷺ كانت أعلى وأفضل، فلم تعُد بعده حاجة إلى خلفاء أنبياء، كما أُلغيت الصورة الأدنى للملوكية وأُعطيها النبي ﷺ بصورتها العليا. وواضح أنّ الخلافة الإسلامية التي ينجز الله بها وعده للأمة- حيث جعل الله فيها طريقة الانتخاب وحفِظ حقوق الأمة- لم تكن في الملوك الأولين. وواضح أن إعطاء الشيء بصورة أفضل وأكمل لا يعني إخلاف الوعد؛ فلو وعدتَ أحدا بمنحه خمس روبيات مثلا، ثم أعطيته عَشْرا، فهذا ليس إخلافا للوعد. فظهور الخلافة على هذا النحو يدل على كون النبي ﷺ أفضل من الأنبياء السابقين، وكذلك يدل على أن خلافته أفضل من خلافة الأنبياء السابقين.

"علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل" إشارة إلى الخلفاء الروحانيين

والجواب الثاني أن الرسول ﷺ قال: "علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل"[٧١]، وهذا لا يعني أن كل علماء الأمة المحمدية كأنبياء بني إسرائيل، فالذين يُدْعَون اليوم علماء تبعث حالتهم الدينية والأخلاقية على البكاء. عندما كنتُ في حوالي الحادية عشرة من عمري ذهبتُ مرة مع جدي لأمي رحمه الله إلى أمرتسر لشراء بعض الأغراض، فرأيتُ هناك في منطقة "رامباغ" شيخًا يمشي حاملاً العصا والمِسبحة، ولابسا عباءة طويلة،

[71] موضوعات الملا علي القاري

ويجري وراءه رجل فقير يتوسل إليه ويقول: حضرة الشيخ، بالله رُدَّ لي مالي. وكان الشيخ يتوقف بعد قليل ويلتفت إليه ويقول له: اخسأْ يا خبيث. وبعد فترة انفصل الرجل عن الشيخ، فقلت له: ما شأنك؟ قال: كنتُ جمعتُ بعض المال بشق النفس من أجل الزواج، ووضعته أمانةً عند هذا الذي ظننتُه شيخا متدينا، ولكنه لا يعطيني الآن مالي رغم سؤالي، ويقول: إني لا أعرفك، ولا أعرف متى أعطيتني المال.

فهل يمكن أن يكون مثل هؤلاء المشايخ كأنبياء بني إسرائيل؟ وكيف يمكن أن يقال أن الرسول ﷺ يتحدث هنا عن هؤلاء العلماء الذين هم عار على الإسلام؟ الحق أن المراد من العلماء هنا الخلفاء الذين هم علماء روحانيون. لقد أشار النبي ﷺ في هذا الحديث إلى أن الأعمال التي كان يقوم بها الأنبياء بعد أنبيائهم السابقين سينجزها الله تعالى في أمتي على يد العلماء الربانيين.. أي الخلفاء الراشدين، فما قام به يوشع بعد موسى عليه السلام سيقوم به أبو بكر في أمتي، وما أنجزه داود سينجزه عمر، وما قام به سليمان وغيره من الأنبياء سيقوم به عثمان وعليّ. باختصار، لقد نبه الرسول ﷺ في هذا الحديث إلى أن الله تعالى قد منحه مكانة عظيمة بحيث إن علماء أمته سيفعلون ما فعله الأنبياء السابقون. ولا يراد بالعلماء هنا أولئك المشايخ الذين يأكلون الرشاوى، بل هم علماء آخرون: أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم. عندما كانت هناك حاجات عادية أقامهم الله تعالى، وعندما اشتدت الحاجات

وكانت الدنيا بحاجة إلى نبي، أنجز الله وعده هذا ببعثة المسيح الموعود عليه السلام، مع الفرق بأن الأنبياء السابقين كانوا ينالون النبوة مباشرة، ولكنه نالها لكونه خادمًا للرسول ﷺ.

الخلافة الأحمدية

والاعتراض الثالث هو أن الله تعالى يقول في هذه الآية ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، ونحن نقبل جدلاً أنّ الخلفاء الراشدين جاءوا مصداقا لهذه الآية، إذ كانوا يملكون زمام الحُكم والـــمُلك أيضا، ولكن كيف تكون الخلافة الأحمدية مصداقا لهذه الآية، وهي لا تملك الـــمُلك أو الحُكم؟

والجواب أن الله تعالى قد وعد هنا أنه سيجعل الجماعة التي هي مصداق للذين ﴿آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ خليفةً، والخليفة يكون نائب من سبقه، وأدنى حدّ للوعد هو أن يكون نائبٌ بعد كل نبيّ، وواضح أن النائب إذا كان على منوال نبيه تحقق الوعد بحده الأدنى. وحيث إن المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام لم يكن يملك الـــمُلك، فمن نابه في أمر نبوته يكون قد حقق هذا الوعد. لو كان المسيح الموعود عليه السلام حاز الـــمُلك لجاز لأحد أن يقول كيف يصحّ أن ينوب عنه مَن لا يحوز الـــمُلك؟ ولكنه عليه السلام لم يحُز الملك فلا يصح هذا الاعتراض، لأن الخليفة إنما ينال مما كان يملكه النبي، وكيف ينال ما لم يملكه النبيّ؟

كان شهيرا عن حضرة الخليفة الأول ، بل كان يقول بنفسه أيضا، أن الله تعالى يرسل له المال من الغيب كلما احتاج إليه. وذات مرة وضع عنده شخص ٣٢ من الروبيات أمانةً، ولكنه أنفقها لسدّ حاجة له، فجاء صاحب الأمانة بعد أيام وطلبها منه، ولم يكن عنده أي شيء، فقال له: انتظرْ سأعطيك بعد قليل. وبعد ربع ساعة تقريبًا جاءه مريض من خارج قاديان ووضع أمام حضرته بعض المال أجرةً للعلاج، فقال حضرته للحافظ "روشن علي" الذي كان جالسا عنده: خُذْ هذه الروبيات وعُدَّها وأعطِها لصاحب الأمانة. ففعل وكتب الإيصال. وسألنا الحافظ "روشن علي" فيما بعد: كم كانت هذه الروبيات؟ قال: كانت بقدر أمانته تماما.

فكان الله تعالى يعين حضرة الخليفة الأول بطرق غريبة جدا وأحيانًا كان يعطيه المال آيةً. أما نحن فكنا نرى أن كل ذلك كان ببركة الدعاء، ولكن البعض كانوا يظنون خطأً أن عند حضرته وصفة الكيمياء[٧٢]، فبعد وفاة حضرته جاءني طبيب من دلهي، وقال لي: أريد أن أقابلك على انفراد. فأعطيته موعدا، فتكلم في البداية عن الدين وقال: كان والدك يتبوأ درجة عظيمة عند الله تعالى وكان مأمورا منه، والذي يجعله الله من المأمورين يستحيل أن يكون ابنه بخيلا؟ سيدي، لي

[72] وصفة الكيمياء هي ما كان يُعرف عند العلماء سابقا بحجر الفلاسفة، أي أنه لا بد من وجود وصفة لتحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب. (المترجم)

عندك حاجة، وأرجوك أن تسدّها ولا تبخل. قلتُ: ما حاجتك؟ قال: إنني مغرم بوصفة الكيمياء، وقد أفنيت عمري في البحث عنها، وقد علمتُ أن حضرة المولوي نور الدين كان يعرف وصفة الكيمياء، ولأنك قد صرت خليفة له فلا بد أنه قد علّمك إياها قبل وفاته، فأرجوك أن تدلّني عليها. فقلتُ للرجل: إني لا أعرف أي وصفة للكيمياء. قال: كيف يمكن هذا، فأنت خليفته، ويستحيل ألا يكون قد أطلعك عليها قبل وفاته؟ وكلّما أكدتُ للرجل أني لم أتعلم من حضرته أية وصفة كيميائية ازداد يقينًا بأني أبخل بها عليه. قلت له مرة بعد أخرى بأن لا علم لي بها، فبدأ يقول لي بمنتهى التملق: لقد قضيتُ عمري بحثًا عن هذه الوصفة، فأرجوك ألا تبخل بها عليّ، أرجوك أن تعطيني إياها. فلما ضقت به ذرعًا ألقى الله في قلبي طريقا للخلاص منه، فقلتُ له: لا شك أنني خليفة حضرة المولوي نور الدين، ولكنك تعلم أنني لم أرث داره. فقال: فمن ورثها؟ قلتُ: أبناؤه. ثم قلتُ: وكان لحضرته مكتبة ضخمة جدا، ولم أرثها أيضا. فحيث إنني لم أرث داره ولا مكتبته فكيف يمكن أن يورثني الوصفة الكيميائية هذه؟ فإذا كان أحد قد تعلّمها منه فهو أولاده، فاذهبْ واسألْهم. فقام من عندي وذهب إلى السيد عبد الحي- الذي كان على قيد الحياة عندها- وقال له: أعطني الوصفة. قال: أي وصفة؟ قال: الوصفة التي كان أبوك يعرفها. فتفاجأ، وقال له في النهاية: لا علم لي بأي وصفة. فعاد الرجل

إليَّ، وقد خاب ظنّه، وقال: إن الولد بخيل مثل الوالد. قلتُ: فلتقلْ ما تشاء، فهذا شأنك، أما أنا فأنا خليفته فيما ورثْتُه منه.

باختصار، يكون الخليفة على صبغة من خلَفه؛ فحيث إن المسيح الموعود عليه السلام لم يمتلك نظام الحُكم، فلا يقال لماذا لا يمتلك خلفاؤه نظام الحُكم.

آية الاستخلاف تشمل نبوة المسيح الموعود عليه السلام وخلافته كلتيهما

والجواب الثاني أن آية ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ لا تشمل خلافة الحُكم فحسب، بل تشمل كل ما فيها من وعود. ولكن الذين يؤمنون بنبوة المسيح الموعود عليه السلام من غير المبايعين، مثل الشيخ عبد الرحمن المصري وغيره، يسلِّمون بأن نبوته لا تشبه نبوة الأنبياء السابقين من كل النواحي، بل لقد قال عليه السلام بنفسه إن نبوته تختلف عن النبوات السابقة اختلافا كبيرا، حيث كان الأنبياء السابقون مستقلين و لم يكونوا أمتيّين.[٧٣] فكما أن نبوته عليه السلام جاءت مصداقا لقول الله تعالى ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ رغم كونها

[73] أُمّيّ: هو تعبير استخدمه المسيح الموعود عليه السلام بالأردية، ويعني نبيا من الأمة غير مستقل حاز النبوة الظلية بالفناء في النبي ﷺ. ووفقًا لقواعد النسبة في العربية ينبغي أن يكون التعبير "أميّ"، ولكن هذا التعبير له دلالات أخرى كثيرة كما هو معلوم. (المترجم)

مختلفة عن نبوة الأنبياء السابقين، كذلك فإن خلافته جاءت مصداقا لهذا الوعد المذكور في هذه الآية رغم كونها مختلفة عن خلافة الخلفاء السابقين في بعض الأمور. فلو قيل بأن خلافة خلفائه ﷺ ليست مصداقا للوعد المذكور في هذه الآية لاختلافها عن خلافة الخلفاء الأولين، فلا مناص أيضا من القول بأن نبوته ﷺ ليست مصداقا لهذه الآية. ذلك أن خلافة خلفائه إذا كانت تختلف عن خلافة أبي بكر وعمر في بعض الأمور فإن نبوته ﷺ أيضا تختلف عن نبوة الأنبياء السابقين بعض الاختلاف، فإذا لم تكن خلافة خلفائه مصداقا لهذه الآية، فلا بد من القول -والعياذ بالله- أن نبوة المسيح الموعود ﷺ أيضا ليست مصداقا لهذه الآية. مع أن حضرته قد اعتبر نبوته مصداقا لهذه الآية رغم اختلاف نبوته عن نبوة الأنبياء السابقين. وكما أن نبوة المسيح الموعود ﷺ تُعَدّ تحقيقًا للوعد المذكور في آية الاستخلاف رغم اختلافها عن نبوة الأنبياء السابقين، كذلك فإن الخلافة الأحمدية أيضا تُعَدّ تحقيقًا للوعد المذكور في آية الاستخلاف رغم اختلافها مع الخلافة السابقة في بعض الأمور.

خلفاء المسيح الناصري أيضا لم يكونوا حائزين الحكم

والجواب الثالث أن خلفاء المسيح الناصري ﷺ لم يكونوا حائزين الحكم.

وإن قال قائل أنه لم يكن بعد المسيح عليه السلام أي خليفة، فالجواب أولاً أن الرسول ﷺ قال: "ما كانت نبوةٌ قطُّ إلا تبعتْها خلافـــةٌ"[٧٤].. أي لم تظهر النبوة في الدنيا إلا وتبعتها الـــخلافة من نوعها. فإذا كان عيسى عليه السلام قد نال النبوة فلا بد لنا من التسليم بقيام خلافة بعـــده بحـــسب نوعية نبوته، وإلا فلا بد لهؤلاء المعترضين أن يقولوا أن عيسى عليه السلام لم يكن نبيًّا، لأن الرسول ﷺ قد اعتبر النبوة مستلزمة للخلافة.

وثانيا: ظلّ النصارى يرون بطرس خليفةً للمسيح عليه السلام.

فما دام النبي ﷺ يقول إن الـــخلافة كانت بعد المسيح حتمًا، ثم يقرّ النصارى بكون بطرس خليفةً للمسيح، فمن أين جاءت هذه الفئة الثالثة التي تقول أنه لم يكن بعد المسيح أي خليفة له؟ ومَن أخبرهم بـــذلك؟ أعني ما دام النبي ﷺ قد قال إن الخلافة قامت بعد كلّ نـــبيّ، ومـــا دام المسيحيون الذين تخصّهم هذه القضية يقولون إن الخلافة قامـــت بعـــد المسيح، وما دام التاريخ يؤكد ذلك، فلا شك أن إنكار هذه الفئة لهذه الحقيقة جحود ليس إلا.

ولو قيل أن بعض النصارى لا يعتبرون بطرس خليفةً، فـــالجواب أن بعض المسلمين لا يسلمون بخلافة الخلفاء الأربعة، فرفضُ البعض لشيء لا يجيز رفضه.

---

74 كنـــز العمال، ج١١، رقم الحديث ٣١٤٤٧. وفيض القدير، ج ٥، رقم الحديث ٧٩٦٩

ثم إن المسيح الموعود عليه السلام قد تحدث في كتيب "الوصية" عن وجود نظام كهذا للمسيحيين، حيث قال:

"عندما تواجه الأمة المحن بعد وفاة النبي، ويتقوى الأعداء، ويظنون أن الأمر الآن قد اختلّ، ويوقنون أن هذه الجماعة سوف تنمحي، حتى إن أعضاءها أنفسهم يقعون في الحيرة والتردد، وتنقصم ظهورهم، بل يرتدّ العديد من الأشقياء، عندها يُظهر الله تعالى قدرتَه القوية ثانيةً ويُساند الجماعة المنهارة. فالذي يبقى صامدًا صابرًا حتى اللحظة الأخيرة يرى هذه المعجزة الإلهية، كما حصل في عهد سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حيث ظُنَّ أن وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم قد سبقت أوانَها، وارتد كثير من جهال الأعراب، وأصبح الصحابة من شدة الحزن كالمجانين، عندها أقام الله تعالى سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه، وأظهر نموذجًا لقدرته مرة أخرى، ... وهذا ما حدث بالضبط في زمن سيدنا موسى عليه السلام .... وهذا ما حدث في زمن عيسى عليه السلام."[75]

وهذا يعني أن أبا بكر رضي الله عنه كما صار خليفةً بعد النبي صلى الله عليه وسلم، كذلك قامت الخلافة بعد موسى وعيسى عليهما السلام أيضا. فمن كان يرى أن الخلافة لم تقم بعد عيسى عليه السلام فإنه يخالف قولا صريحا للمسيح الموعود عليه السلام، ويقدِّم ما لا تؤيده أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ولا التاريخ ولا المسيح الموعود عليه السلام.

[75] الوصية، الخزائن الروحانية؛ مجلد ٢٠، ص ٣٠٤-٣٠٥

الرد على اعتراض آخر للمعارضين

والاعتراض الرابع هو أنه لو أُريدَ بهذه الآية خلافة الأفراد، فالوعد فيها لأفراد من نوعين؛ الأنبياء والملوك. فأما الأنبياء فقد ختم النبيّ ﷺ نوع النبوة التي كانت قبله، وأما الملوك فلم يحبذهم النبي ﷺ بل قال صراحة إن الخلفاء بعدي لن يكونوا ملوكا. وما دام الأمر كذلك فلِم لا نسلِّم أن وعد الخلافة في هذه الآية يتحقق على يد الأمة كلها وليس على يد أفراد منها؟

والجواب: لا شك أن النبوة بنوعها الأول قد انتهت، وكذلك انتهت الملوكية السابقة، ولكن انتهاء نوع خاص من شيء لا يعني ألا يحلّ محله ما هو خير منه وأفضل. كان نبينا ﷺ نبيا من نوع خاص ومختلف عن الأنبياء السابقين، وكان لا بد أن يكون النظام الذي بعده خاصا مختلفا عن النظم السابقة، وكون هذا النظام مختلفا عنها في بعض النواحي لا يُخرجه عن كونه مشابها لها، إنما يضفي عليه مزيدًا من الحسن والجمال. كان النبي ﷺ نبيًّا كاملا، وجاء إلى العالم بشريعة كاملة، فكان لزامًا أن يكون بعده أنبياء ينالون النبوة ببركة فيوضه، ولما كان نظامه أكمل من النظم السابقة، فكان لزامًا أن يكون بعده خلفاء تنتخبهم الأمة.

باختصار، أقام الله تعالى بعد الرسول ﷺ النبوة والملوكية على منوال جديد، ملغيًا النبوة السابقة والملوكية السابقة.

خلافة الأنبياء السابقين ناقصة، سواء كانت خلافةَ نبوة أو خلافةَ مُلك

اعلموا أنّ خلافة النبوة تقوم تأييدًا للنبي السابق، وخلافة المُلك تقوم حفاظًا على حقوق المؤمنين وتطويرًا لكفاءاتهم. نجد أن خلافة الأنبياء الذين سبقوا النبي ﷺ والذين كان خلفاؤهم أيضا أنبياء كانت خلافة ناقصة، لأنّ خلفاءهم الأنبياء الذين كانوا يُكملون مهمتهم كانوا ينالون نبوتهم مباشرةً. وإذا كانت في أممهم خلفاءُ ملوكٌ فأيضا كانت خلافتهم ناقصة، لأن خلفاءهم الملوك كانوا يرثون الصلاحيات والسلطات مباشرة بالوراثة، وبالتالي ما كانت كفاءاتهم تنمو كاملةً؛ إذ لم يكن للقوم دخل في انتخاب هؤلاء الملوك، تمامًا كما لم يكن لأولئك الأنبياء دخل في نبوة خلفائهم الأنبياءِ. حيثما يرث الابن الحُكم عن أبيه ثم حفيده كأنه حق وراثي، فلا تُرى حاجةٌ لرفع المستوى العلمي لأفراد الأمة وتنمية كفاءاتهم العقلية، بحيث ينتخبون حكامهم انتخابا صحيحا. ولكن حيثما يكون انتخاب الحكّام بيد الشعب فلا بد للحكومة أن تجعل كل فرد منها عالمًا وسياسيا وخبيرا بأحوال البلد لكي لا يرتكب حماقة عند انتخاب الحاكم. والإسلام هو الدين الوحيد الذي أمر بانتخاب الحكام من أجل تطوير القوم علمًا وعقلا. كانت خلافة الأنبياء الذين سبقوا الرسول ﷺ خلافة ناقصة، سواء كانت خلافةَ نبوة أو خلافةَ مُلك، أما الرسول ﷺ فكان نبيًا كاملا حقًّا، لذا فالنبي الذي

أتى بعده أو سيأتون فلا يكونون تابعين له فقط، بل ينالون النبوة ببركة فيوضه ﷺ، وكذلك كان لزامًا أن يكون الخلفاء الذين يأتون لإكمال مهمة النبي التابع للنبي ﷺ متصبغين بصبغة النبي التابع، أي أن يكون للقوم دخل في انتخابهم، لأن أمة النبي ﷺ أمة كاملة حقا، كما قال الله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[76]، فقرّر الله تعالى ألا يكون هؤلاء الخلفاء ملوكًا لا يتدخل القوم في انتخابهم، بل يُختارون بالانتخاب، ليكونوا ممثِّلين للأمة المحمدية حقّ التمثيل، كما يتمّ تطوير كفاءاتها على ما يرام. وبسبب هذا القرار الرباني فلا بد لكل خليفة من العمل على تطوير أبناء الأمة علمًا وعقلا، لكي لا يرتكبوا أي خطأ في انتخاب الخليفة التالي. وهذا الفرق إنما سببه أن نبينا ﷺ هو سيد الأنبياء وأمته خير الأمم، فكما أنّ النبي التابع ينال النبوة بفيوض سيد الأنبياء ﷺ، كذلك فإن خلفاء خير الأمم يُنتخبون بأصواتها. فهذا النظام راجع إلى أفضلية الإسلام وسموّ مكانة نبي الإسلام والأمة الإسلامية، وإنه لم يقضِ على خلافة الأفراد، بل قدَّمها على شكل أفضل وأكمل.

الرد على اعتراضين ضمنيين

بعد تناول هذه المسائل والاعتراضات الأساسية أتناول الآن الرد على اعتراضين ضمنيين.

---

76 آل عمران ١١١

الاعـتراض الأول: هـل الخلافـة الموعـودة هنـا تخـصّ فقط الخليفة الآتي بعد النبي فورًا؟

أحد هذين الاعتراضين هو أنّ الخلافة الموعودة في آية الاستخلاف إنما تخص الخليفة الذي يكون بعد النبي مباشرة، لا الخلفاءِ الذين يأتون فيما بعد أيضا.

والرد على ذلك هو التالي:

١: لقد اعتبر النبي ﷺ نفسه خلافةَ الخلفاء الأربعة خلافة راشدة، فقد ورد في الحديث عن سفينة: قال سمعت النبي ﷺ: "الْخِلافَةُ ثَلاثُونَ عَامًا، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ الْمُلْكُ."[٧٧]

ومدة خلافة الخلفاء الأربعة هي ثلاثون عاما فقط. فما دام النبي ﷺ يمدّ الخلافة إلى عهد الخلفاء الأربعة فلا يحق لأحد أن يحصرها في عهد الخليفة الأول فقط.

يقول البعض بأن المسيح الموعود عليه السلام هو الذي قد ذكر هذه الفكرة في كتابه "سرِّ الخلافة"، ولكن هذا زعم باطل، إن ما قاله عليه السلام هو ردّ على الشيعة الذين يقولون إن الخليفة الحقّ للنبي ﷺ هو عليّ فقط. فقد بين المسيح الموعود عليه السلام أن وعد الخلافة مذكور في القرآن الكريم في

[77] مسند أحمد

قوله تعالى ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وعلامات هذه الخلافة توجد في خلافة أبي بكر على أكمل وجه.[٧٨]

فالحق أن المسيح الموعود عليه السلام إنما قصد من قوله هذا أن خلافة أبي بكر ثابتة من القرآن الكريم أكثرَ من ثبوت خلافة عليّ رضي الله عنهما، وليس أن عليًّا لم يكن خليفةً راشدًا.

ثم إن المسيح الموعود عليه السلام قد ذكر أيضا في كتبه عبارة "الخلفاء الأربعة"، كما ذكر خلافة عليّ أيضا رضوان الله عليهم أجمعين[٧٩].

ومن البراهين الإضافية على ذلك أنّ حضرة المولوي عبد الكريم السيالكوتي رضي الله عنه كان قد ألقى محاضرة ردًا على الشيعة أثبت فيها خلافة أبي بكر وعمر وعثمان مستشهدًا بآية الاستخلاف، كما سلَّم بخلافة عليٍّ في شتى الأماكن في محاضرته أيضا. ثم طبعها ببعض الإضافات بعنوان: "الخلافة الراشدة"، وقد كتب في هذا الكتاب أن المسيح الموعود عليه السلام قد أمره بقراءة هذه المحاضرة عليه مرارا، كما نقل بعض أجزائها في كتابه "حجة الله"، وأرسل محاضرته إلى الإخوة في مختلف الأماكن هديةً منه[٨٠].

---

78 سر الخلافة، الخزائن الروحانية؛ مجلد ٨، ص ٣٣٣-٣٣٤

79 المرجع السابق ص ٣٢٦، ٣٥٨-٣٥٩

80 خلافت راشدة، للمولوي عبد الكريم السيالكوتي، الجزء الأول ص ١١٠، طبعة ١٩٢٢م، أمرتسر.

فثبت من هنا أن المسيح الموعود عليه السلام كان متفقًا مع حضرة المولوي عبد الكريم السيالكوتي في هذه العقيدة التي ذكرها في كتابه "الخلافة الراشدة".

٢- إذا ثبتت خلافة الخليفة الأول أبي بكر فقد ثبتت خلافة الخلفاء التالين له تلقائيا. فكما أن أبا بكر صار الخليفة الأول، ثم اختار عمرَ وعيَّنه خليفةً بعد استشارة الصحابة، كذلك قد كتب حضرة الخليفة الأول في هذا الزمن وصية وذكر فيها اسمي، ثم قام بوصية أخرى من دون ذكر اسمي. المهم أنه قد أقرَّ الخلافةَ بعده. وفيما يلي نصّ كلمات وصيته:

"أكتب أنا بكامل وعيي أن "لا إله إلا الله محمد رسول الله"... يجب أن يكون من يخلفني تقيًّا محبَّبًا للجميع، عالـمًا عاملاً، يصفح ويعفو عن أصحاب المسيح الموعود عليه السلام القدامى والجدد. كنت ناصحا للجميع، فيجب أن يكون ناصحًا. ينبغي الاستمرار في درس القرآن والحديث. والسلام

نور الدين، ٤ مارس/ آذار." [81]

كذلك قال رضي الله عنه في مناسبة أخرى:

"لقد جعلني الله خليفةً، والذي يكون بعدي يجعله الله أيضا خليفةً."

وقال أيضا:

[81] جريدة "الفضل" ١١-٣-١٩١٤ ص ١. علمًا أنه رضي الله عنه كتب هذه الوصية في مارس عام ١٩١٤. (المترجم)

"ليست الخلافة كمياه غازية تُشترى من دكان "الكيسري"[82]. لن تنتفعوا بالتدخل في هذه القضية. لن يجعلكم أحد خليفةً، كما يستحيل أن يصبح أحد خليفةً في حياتي. عندما أموت فلن يقوم إلا من يشاء الله، وسوف يتولى الله بنفسه إقامته."[83]

إذن، إذا كان الخلفاء السابقون خلفاء بحسب هذه الآية فإن قراراهم تؤكد أن الخلافة سوف تستمر بعدهم وستكون على نفس المنوال الذي كانت عليه خلافتهم، وستكون قراراهم حجة بهذا الشأن، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذي ارْتَضَى لَهُمْ﴾.

٣: ما دامت الموجبات موجودة فلماذا لا تظهر نتيجتها الطبيعية؟ فإما أن يقولوا أنه لم تعُدْ هناك حاجة للخلافة بعد ذلك، ولم تبقَ الأمة مؤمنة تعمل الصالحات، أو لا بد لهم من الاعتراف بوجود الخلافة.

هل يجوز عزل الخليفة؟

ومن **الاعتراضات** أيضا أن الأمة ما دامت هي التي تختار الخليفة بالانتخاب، فيجوز لها أن تعزله أيضا.

والجواب الأول: لا شك أن الخليفة يُختار بالانتخاب من قبل الأمة، ولكن هذه الآية تدل دلالة النصّ الصريح على أن الله تعالى إنما يتّخذ

82 الكيسري اسمٌ لصاحب مصنع للمياه الغازية. (المترجم)

83 جريدة "بدر" ١١ يوليو/ تموز ١٩١٢ ص ٤، محاضرة أُلقيتْ في ١٦ و١٧ يونيو/ حزيران ١٩١٢، بلاهور

الأمة مجرد أداة لتنفيذ قراره، فينوّر عقولهم عند الانتخاب بوجه خاص، وهو الذي يقيم الخليفة في الواقع، لقوله تعالى ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾. فبرغم أن انتخاب الخليفة يتمّ عن طريق المؤمنين، ولكن الإلهام الرباني يجعل قلوبهم تميل إلى من يستحق الخلافة حقًّا عند الله تعالى. كما أن الله تعالى يصرح هنا أنه يخلق في الخلفاء خصوصيات مميزة، وأنهم يكونون نعمة ربانية عظيمة. وعلى هذا فسيكون تفصيل هذا الاعتراض كالآتي: ألا يحقّ للأمة أن تعزل مَن هو الموحِّد الكامل، ويريد الله تعالى أن يمكّن دينه، ويعد بأنه سيدفع كل الأخطار عن الأمة من أجله، ويمحو الشرك على يده، ويحفظَ الإسلام بجهوده؟ والواضح الجلي أنه من المحال أن تعزل الأمة مثل هذا الإنسان، ولن يريد عزله إلا إخوان الشيطان.

والجواب الثاني: لقد استعمل الله تعالى هنا لفظ الوعد، والوعد يدل على الإحسان والمنة، إذًا، فإن اعتراضهم هذا يعني أن الله تعالى ما دام قد جعل أمر انتخاب هذه النعمة في يد الأمة، فيجب أن يكون من حقها أيضًا أن ترفض هذه النعمة. وكل عاقل يدرك أنه استنباط بالغ الإساءة، لأن المرء إذا رفض نعمة عُرضت عليه بدون أن يسألها أصبح أشدَّ جرمًا وأقام الحجة على نفسه. فكأن الله تعالى سيقول لمثل هؤلاء في هذه الحالة: أيها الناس، قد خيّرتُكم في أن تأخذوا هذه النعمة من خلال أي إنسان، فقلتم: نريد أن نأخذها في شكل فلان، فجعلتُ أفضالي مرتبطة بالذي اخترتموه؛ وبعد أن رضيت بقولكم، أي

بانتخابكم إياه، رُحتم تقولون لسنا براضين بهذه النعمة، وماذا عسى أن أجيبكم على رفضكم هذا إلا أن أقول ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.[٨٤] وإلى هذا المعنى نفسه قد أشار الله تعالى في آية الاستخلاف أيضًا حيث قال ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.. أي لا شك أننا خيّرنا الأمة عند انتخاب الخليفة، ولكننا قمنا بتوجيهها عند الانتخاب، ثم اصطفينا هذا الإنسان المنتخب، فلا يبقى بعد ذلك للأمة أي خيار في عزله، ومن أراد أن يأخذ هذا الخيار بيده فعليه أن يعلم أنه لا يحارب الخليفة فحسب، بل يكفر بنعمتنا؛ فإذا كان هذا لدى انتخاب الخليفة في عداد ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإننا سنمحو اسمه من قائمة الذين﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وندرجه في زمرة الفاسقين جرّاء موقفه الخاطئ هذا.

نكتة لطيفة

والآن اسمعوا نكتة لطيفة. لقد ذكر الله تعالى في هذه الآية أمرًا عجيبا، إذ وصف قومًا يرثون نعمة الخلافة بأنهم ﴿آمَنُوا﴾، أي تكون نيّاتهم طيبة، حيث يقول سيدنا عمر رضي الله عنه: "نية المؤمن خير من عمله."[٨٥]

أي أن عمل المؤمن محدود، ولكن نيته طيبة وواسعة جدا، حيث يقول: سأعمل كذا وأعمل كذا. ثم ذكر الله تعالى صفتهم الثانية وقال:

---

[84] إبراهيم ٨

[85] هكذا ورد في الأصل، إلا أن كتب الحديث تعتبره حديثًا للرسول ﷺ. (المترجم)

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.. أي أنهم صالحون، غير أن الله تعالى يخبر أيضا أنهم حين ينكرون الخلافة يصبحون فاسقين، لأن الفاسق من يخرج عن الطاعة ويُحرَم معيةَ النبيّ. وعليه فيكون مفهوم هذه الآية أن الخلافة تقوم بين قوم نياتهم طيبة وأعمالهم صالحة، ولكن الذين ينكرون الخلافة منهم فإنهم يُحرَمون معية النبيّ بسبب تصرفهم هذا، رغم نواياهم الطيبة وأعمالهم الصالحة من قبل.

والآن ضعوا كلمات هذه الآية مقابل رؤيا رآها المسيح الموعود عليه السلام عن المولوي محمد علي، حيث قال له فيها ما تعريبه:

"كنتَ أيضًا صالحًا وحسنَ النية، تعال اجلسْ معنا"[٨٦].

فقوله هذا يماثل ما ذكر الله تعالى في قوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وفي قوله تعالى ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.. أي أن الله تعالى قد وعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنه سيقيم فيهم الخلافة، ولكن الذي ينكر نعمة الخلافة بعد ذلك سيُحرَم معية النبيّ. وهذه الرؤية لا تبين ما إذا كان هذا الرجل جاء بعد ذلك وجلس مع المسيح الموعود عليه السلام أم لا، إلا أن الكلمات القرآنية تشير إلى أنّ مثل هذا الشخص لم يوفَّق للجلوس عنده. إنا لله وإنا إليه راجعون.

[86] جريدة "بدر"، مجلد ٣، عدد ٢٩، يوم ١٩٠٤/٨/١، ص ٤

آية أخرى في تأييد الخلافة الراشدة

والآية الأخرى في تأييد الخلافة الراشدة هي قول الله تعالى ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.[٨٧]

لقد وعد الله تعالى إبراهيم بأنه سيجعله إماما، فأدرك إبراهيم عليه السلام من فوره وبحقٍّ أنّ المهمة التي ستفوَّض إليه مستحيلٌ إنجازها في جيل واحد، ولا بد من أفراد يكملونها بعده، فسأل الله تعالى أن يجعل ذريته أئمة، فوعده الله تعالى وقال سأفعل ذلك، ولكن عهدي هذا لن ينال الظالمين منهم.

كان الوعد هنا لأبنائه عليه السلام، إلا الظالمين منهم، مما يعني أن أبناءه كانوا إما أئمة أو ظالمين، ولا يسع أحدًا أن يقول بأنه كان لإبراهيم أبناء سواهم أيضا. فكيف يا ترى تحقّقَ وعد الله بالإمامة في أبنائه؟ لا شك أنه تحقق بطريقتين؛ فبعضهم نال الإمامة، وبعضهم انتفعوا بها مِن خلال مَن صاروا أئمة.

فهذه الآية أيضا تردّ على ما يقال بأن وعد الاستخلاف كان للجميع، فكيف يمكن أن يكون بعض الأفراد خلفاء في الأمة. إلا أنني

[87] البقرة ١٢٥

لست بصدد ذلك الآن، إنما أريد الإشارة إلى جانب آخر من هذه الآية، وهو كيفية تحقق وعد الإمامة في أبناء إبراهيم عليه السلام؟

لقد كان في أبنائه عليه السلام أربعة أنبياء؛ إسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، وكلهم كانوا خلفاءه وأكملوا مهمته ودعوته من بعده. وقد أشار القرآن الكريم إلى هؤلاء الأربعة في آية أخرى حيث قال الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.[88] وقوله تعالى ﴿صُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ يعني: استَمِلْهُنَّ إليك.

لو أخذْنا هذه الواقعة على ظاهرها لكانت محلّ اعتراضات كثيرة؛ أوّلها: ما علاقة إحياء الموتى باستمالة الطيور؟ وثانيها: لماذا أربعة طيور؟ ألا يكفي طير واحد لتحقيق الغرض؟ وثالثها: ما الفائدة من وضعها على الجبال؟ ألا يكفي أن توضع في أي مكان آخر؟

الحقيقة أن أخذ هذا الكلام بحرفيته مستحيل، وإنما له مدلول مجازي. لقد دعا إبراهيم عليه السلام: يا ربّ، أَنْجِزْها لي مهمّة إحياء الموتى التي عهدتَها إليَّ، وأَرِني كيف تُنفَخ الروح في قومي. فإني قد أصبحتُ شيخا هرما، والمهمة عظيمة ضخمة. فقال الله تعالى: ما دمنا نحن الذين قد وعدناك بذلك فلسوف يتحقق هذا الوعد حتمًا. قال إبراهيم: أعلمُ أن

---

[88] البقرة ٢٦١

هذا سوف يتحقق حتمًا، ولكن أسألك من أجل الاطمئنان، كيف تتغير هذه الأوضاع غير المواتية؟ قال الله تعالى له: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾.. أي عليك بتربية أربعة من أبنائك، ليلبّوا نداءك، ويكملوا مهمتك في إحياء القوم. وهؤلاء الطيور الأربعة الروحانيون هم: إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام كما ذكرت آنفا. لقد تمت تربية اثنين منهم على يد إبراهيم مباشرة، وتربية اثنين بطريق غير مباشر. والمراد من وضعهم على الجبل أن يربيهم تربية عالية لأنهم سيتبوّأون درجات عالية جدا. فوضعُهم على الجبال إشارة إلى أنهم سيكونون رفيعي الدرجات، ويبلغون القمة. وهكذا فإن الله تعالى أخبر إبراهيم عليه السلام عن كيفية إحياء قومه بعده بزمن قريب. كان رسول الله ﷺ مثيلاً لإبراهيم أيضا كما يعلم ذلك المسلمون الذين يردّدون الصلاة الإبراهيمية التي علّمناها رسولُ الله ﷺ كالآتي: "اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ".[٨٩] وحيث إن الرسول ﷺ أفضل من إبراهيم، فلا شك أنّ الصلاة الإبراهيمية تشير إلى فضيلة خصوصية في إبراهيم عليه السلام، وما هي إلا أن الله تعالى جعل في

[89] البخاري، كتاب الدعوات، باب: الصلاة على النبي ﷺ

أبنائه الإمامة والنبوة، كما قال في آية أخرى ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.[٩٠] فثبت أن الفضيلة التي أُعطيها إبراهيم عليه السلام إنما هي فضيلة استمرار النبوة في أبنائه الذين جاءوا خلفاء له، وهذا ما ملأ بيته شرفا ومجدا. فقد سئل النبي ﷺ مرة: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: أَتْقَاهُمْ؟ فَقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ..[٩١] أي إبراهيم عليه السلام.

فإننا حين نقول: كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ... كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ فكأننا ندعو الله تعالى أن يعطي نبيه ﷺ الفضيلة التي كتبها لإبراهيم في شخصه وفي أبنائه.. أي أن يكون النبي ﷺ أبا الأنبياء، وأن تختص النبوة بأولاده الروحانيين. وقد استجاب الله هذا الدعاء، فكما أنه تعالى أرسل أربعة رسل بعد إبراهيم مباشرةً، كذلك جعل الله بعد النبي ﷺ مباشرة أربعة خلفاء قاموا بتمكين دينه. ثم كما أن الله تعالى بعث في نسل إبراهيم عليه السلام أنبياء في زمن بعيد، كذلك أنبأ الله تعالى بظهور نبيّ بعد النبي ﷺ في زمن بعيد. غير أن الرسول ﷺ قد فُضِّل على إبراهيم في هذا الأمر أيضا، أعني أنه تمكّن من تربية اثنين من خلفائه مباشرة، واثنين منهم بطريق غير مباشر، ولكن الرسول ﷺ قام بتربية أئمته الأربعة بنفسه.

---

[90] العنكبوت ٢٨

[91] البخاري، كتاب الأنبياء

ولولا هذه المشابهة بينهما فما معنى قولنا "كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ... كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ"؟ وإلا فلا بد لنا من التسليم بأن إبراهيم ربما كان أفضل درجةً من النبي ﷺ. فثبت أن الوعد الإبراهيمي والصلاة الإبراهيمية يبيّنان معًا وبصراحة أن الله تعالى سيعامل نبيه ﷺ كما عامل إبراهيم عليه السلام، وأنه سيأتي بعده ﷺ خلفاء لتمكين دينه.

ولو قيل أن خلفاء إبراهيم كانوا أنبياء، ولكن خلفاء الرسول ﷺ لم يكونوا أنبياء، فالجواب: الواقع أنه كان هناك وعدانِ لجعل أئمةٍ في نسل إبراهيم؛ وعدٌ قريب، ووعد بعيد. والوعد البعيد يشمل موسى وعيسى ومحمد والمسيح الموعود أيضا. لقد اقتضت حكمة الله أن يكون خلفاء الرسول ﷺ في العهد القريب أئمة خلفاء، وأن يكون خليفته في العهد البعيد نبيًّا. وكان الخلفاء الراشدون يشابهون الأنبياء مشابهة كبيرة جدًّا بحسب الحديث النبوي: "علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل"، إلا أنهم لم يكونوا أنبياء، أما الخليفة الأخير للرسول ﷺ فكان من أمته من جهة ونبيًّا من جهة، لتكون المشابهة بين النبي ﷺ وإبراهيم كاملة غير ناقصة.

ونجد أن الخلفاء الراشدين الأربعة الذين تربوا على يد النبي ﷺ كانوا أكثرَ تمكينًا للدين من الأنبياء الأربعة الذين كانوا بعد إبراهيم، وهذا يشكّل آيةً عظيمة على القوة القدسية للنبي ﷺ.

وهناك قول للمسيح الموعود عليه السلام أيضا يبين ما أشرت إليه آنفًا، حيث قال حضرته في كتيب "الوصية":

"عندها أقام الله تعالى سيدنا أبا بكر الصديق ﷺ، وأظهر نموذجًا لقدرته مرة أخرى، وحمى الإسلام من الانقراض الوشيك. وهكذا أتم ﷻ وعده الذي قال فيه: ﴿ولَيُمكِّننَّ لهم دينَهم الذي ارتضى لهم وليُبدِّلنّهم من بعد خوفهم أمنًا﴾. .. وهذا ما حدث بالضبط في زمن سيدنا موسى عليه السلام.[٩٢]"

لقد تبين من هنا أن المسيح الموعود عليه السلام يسلّم بوجود التشابه بين النبي الذي خلَف موسى وأبي بكر في هذه الآية

وهناك حديث للرسول ﷺ يلقي الضوء على هذا الأمر، حيث قال: "لو كان نبيٌّ بعدي لكان عمر بن الخطاب."[٩٣]

إنما المراد من هذا الحديث النبوي أنه سيكون بعده ﷺ أئمة. ولو أن الله تعالى أراد استمرار النبوة بعدي مباشرة لصار عمر نبيًّا، ولكنه سيكون إماما لا نبيا.

وهناك حديث آخر يلقي الضوء على هذا الموضوع، وهو أن الرسول ﷺ أراد مرةً المسير لحرب وأمّر عليًّا رضي الله عنه على أهل المدينة في غيابه، ولم يبق فيها إلا المنافقون، فجاء إلى النبي ﷺ قلقًا وقال: خُذْني معك، فطمأَنه الرسول ﷺ وقال: "ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من

[92] الوصية، الخزائن الروحانية؛ مجلد ٢٠، ص ٣٠٤-٣٠٥

[93] المعجم الكبير للطبراني، باب الظاء، عصمة بن مالك الخطمي.والترمذي، كتاب المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه

موسى، إلا أنه ليس نبيّ بعدي"[٩٤].. أي يا عليّ، إن النسبة بيني وبينك هي كالنسبة بين هارون وموسى، وسوف تكون خليفة بعدي يوما ما، كما كان هارون خليفة موسى، إلا أنك لن تكون نبيًّا.

وهنا قد شبَّه النبي ﷺ عليًّا بنبيّ وأخبرَ في الوقت نفسه أنه ليس بنبي. فكما أن عليًّا يمكن أن يُعدَّ مشابَهًا لهارون، كذلك فإن الخلفاء الأربعة يمكن أن يُعَدُّوا مشابهين للأنبياء الأربعة.

وهذا الحديث النبوي إذ يبيّن لنا أنه يمكن اعتبار الخلفاء مشابهين للأنبياء، فإنه يشير كذلك إلى الفتنة التي ظهرت في زمن عليّ رضي الله عنه، وكأن فيه نبوءة عن وقوع الفساد في عهد عليّ كما حصل في عهد خلافة هارون لموسى، وأن الناس سيتهمون عليًّا شتى التهم، ولكنه سيكون بريئًا منها كما كان هارون بريئا من تهمة الشرك. باختصار، قد أشار هذا الحديث إلى أن عليّا رضي الله عنه سيكون مشابها لهارون عليه السلام في إدارة الأمر، حيث يميل إلى اللين مخافة الفرقة، وذلك كما حصل في موقعة صفين، عندما رضي بالتحكيم.

قول آخر للنبي ﷺ عن الخلافة

والآن أذكر حديثًا واحدا فقط من بين الأحاديث الكثيرة على ضرورة الخلافة، إذ يضيق المجال بذكر أكثر من ذلك.

---

94 البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك

قال النبي ﷺ: "ما مِن نبي إلا تبعتْه خلافة."[٩٥]

وبعد هذا القرار النبوي العام فإن إنكار الخلافة ليس إلا هجومًا على الرسول ﷺ وإنكارًا لنبوة المسيح الموعود عليه السلام، لأن الرسول ﷺ قد بين هنا قاعدة كلية.

اعتراض كبير على حقوق الخلفاء

أتوجه الآن إلى اعتراض كبير وشهير يثار عن حقوق الخلفاء، ثم سأردّ عليه.

من عقائدنا أن الثابت من آية الاستخلاف وآية ﴿وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ وآية ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾[٩٦] أن على الخليفة أن يستشير القوم في الأمور الهامة، ولكنه ليس ملزما بالعمل برأيهم. ويعترض على ذلك البعض قائلا إن هذا مخالف لتعليم الإسلام، فقد قال الخليفة الأول سيدنا أبو بكر رضي الله عنه: "إن زِغْتُ فقوِّمُوني."[٩٧] فثبت من ذلك أن من حقّ الناس منع الخليفة من شيء.

هذا الاعتراض يثيره غير المبايعين دائمًا قائلين: إن قول أبي بكر رضي الله عنه: "إنْ زغْتُ فقوِّمُوني" دليل على أن الخليفة يمكن أن يخطئ، ومن حقّ القوم أن يقوّموه كلما حاد عن سواء السبيل.

---

[95] لم نعثر على هذا في كتب الحديث، وأقرب نص له هو: "ما كانت نبوّة قط إلا تبعتْها خلافة." (كنز العمال)

[96] آل عمران ١٦٠

[97] البداية والنهاية لابن كثير، ج٦، سنة إحدى عشرة من الهجرة، خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وكنز العمال، ج٥، خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

والرد على ذلك هو أنّ عمل سيدنا أبي بكر ﷺ شاهد على أنه لم يعْنِ بقوله ما يعنيه المعترضون أبدا. كما لم يفهم المسلمون من قوله بأن عليهم إصلاحه بشدّة إذا رأوا رأيه خلاف آرائهم. لقد جاء صحابةٌ كبار يمنعون أبا بكر من تسيير جيش أسامة، ولكنهم لم يقولوا له: عليك أن تلتزم بقرارنا وإلا قوّمناك، بل هو الذي رفض رأيهم جميعا قائلا: لن أمنع تسيير جيش أسامة. فغيّر الصحابة رأيهم. كذلك طلب الصحابة من أبي بكر أن يليّن موقفه بشأن حرب المتمردين، ولكنه رفض طلبهم، وقال: سأعاملهم كما يستحقون. فلم يقل له الصحابة إنك إذا لم ترض بقرارنا فلن ندعك حتى نقوِّمك، بل اعترفوا بخطئهم وأحنوا رؤوسهم أمام قرار أبي بكر. فكلما تصادم رأيه مع آرائهم قال: رأيي هو الصواب، وأنتم على الخطأ. ولا نجد مثالاً واحدا أن الناس قوّموه، أو أنه نفسه قال لهم: أيها المسلمون، لقد زغت قليلا فتعالوا قوّموني. لذا فلا يمكن أن يفسر قول أبي بكر هذا إلا بما يتفق مع أحكام الله ورسوله وفعلِه هو.

الزيغ يعني الكفر البواح فقط

اعلموا أن الزيغ هنا يعني الكفر البواح المشار إليه في أحاديث أخرى، فهو ﷺ يقول لهم: طاعتي واجبة عليكم ما دمتُ أعمل بحسب تعاليم الإسلام، أما إذا خالفت الإسلام وصدر مني الكفر البواح فمن واجبكم أن تواجهوني. وليس المراد أن ينتقدوا قراراته اليومية ويعملوا بما يرضون ويخالفوه فيما لا يرضون.

هل هناك إمكانية لوقوع أبي بكر في الكفر البواح

لو قال قائل: هل كان ممكنًا أن يقع أبو بكر في الكفر البواح، فالجواب: هل كان ممكنا أن يزيغ أبو بكر بحيث يتطلب الأمر أن يقوِّمه المسلمون؟ هذا محال! إلا أن يقول الصحابة بأنّ أمرا كذا ثابت من القرآن الكريم والحديث، فيرد عليهم أبو بكر: أنا لا أقبل ما ورد في القرآن الكريم والحديث. فالسؤال: هل كان ممكنًا أن يتصرف أبو بكر رضي الله عنه هكذا ضد القرآن الكريم والحديث، حتى يتطلب الأمر أن يهبّ المسلمين بالعصيّ لتقويمه؟ ما دام هذا محالا، فمن المحال أيضا أن يصدر منه الكفر البواح، ومع ذلك قال مقولته هذه ليبين للناس أن الحقيقة الأزلية هي فوق كل شيء، وليس أنّ صدور الكفر البواح كان ممكنا منه والعياذ بالله. كان يعني فقط إنما أنا خليفة، وليس عملي إلا إقامة تعاليم رسولي المطاع في الدنيا بشكل صحيح، فعليكم تفضيل هذه الحقيقة الأزلية على كل شيء، ولا تتهاونوا في التمسك بهذا المبدأ الأصيل وإن كنت أنا من أمرتُكم بخلافه.

بعض الأمثلة من القرآن الكريم

وأسوق الآن تعابير مماثلة من القرآن الكريم.

يقول شعيب عليه السلام للكافرين لما قالوا له تعال انضمَّ إلينا فننضم إليك: ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾.[98] أي من المستحيل أن ننضم إلى دينكم إلا أن يشاء الله ربنا.

فهل يمكن لأحد أن يقول أن رجوع شعيب إلى الكفر كان ممكنـــا؟ كلا، كانت عودته إلى الكفر محالاً، لأنه نبي الله، ومع ذلك قال هـــذا. والحق أنه لم يقل هذا إلا ليبين للناس عظمة الله وجلاله، فقال: يستحيل أن أعود إلى الكفر، وليس هذا لعظمة في نفسي، وإنما هو بتوفيـــق الله وبعونه، ولولا عونه لما تيسرت لي هذه العصمة.

كذلك قد أجرى الله على لسان رسوله ﷺ تعبيرا مماثلا حيـــث ورد في القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِـــدِينَ﴾.[99] فهذه الآية لا تعني إمكانية وجود ولدٍ لله تعالى، بل المراد منها أنه لـــيس هناك أي ولد لله تعالى يقينا، ولكن لو كان لكنتُ أول العابـــدين لـــه كوني عبدًا مطيعًا لله تعالى.

وبالمثل كان صدور الكفر البواح من سيدنا أبي بكر محالا البتة، ولكنه ترسيخا لأهمية الحقيقة الأزلية في أذهان الناس قال: حتى ولو خالفتُهـــا أنا، فلا تبالوا بي.

---

[98] الأعراف ٩٠

[99] الزخرف ٨٢

واقعة من زمن المسيح الموعود عليه السلام

وهناك واقعة من زمن المسيح الموعود عليه السلام تلقي الضوء على هذا الأمر. كان هناك شخص اسمه ميان نظام الدين، وعندما ادعى المسيح الموعود بوفاة المسيح الناصري عليهما السلام وقعت ضجة في الهند كلها، وفي تلك الأيام كان حضرة الخليفة الأول رضي الله عنه قد قدم من جامون إلى لاهور في إجازة، فوصل المولوي محمد حسين البطالوي إلى لاهور وتحدّاه للمناظرة، واشترط عليه أن يكون النقاش في حياة المسيح ووفاته بناء على الأحاديث فقط. فقال له حضرة الخليفة الأول: الحديث ليس حاكما على القرآن الكريم، بل القرآن هو الحاكم على الحديث، فعلينا فصل الأمر بناء على آيات القرآن الكريم. ولكنه لم يرض، واستمر الجدال بينهما، وخرجت مِن الطرفين إعلانات متكررة لتحديد كيفية سير المناظرة. وكان المولوي نظام الدين صديقا للمولوي محمد حسين البطالوي، كما كان على صلة وثيقة بالمسيح الموعود عليه السلام، فأراد حسم الخصام بينهما. لقد قال الرجل في نفسه إن السيد الميرزا شخص صالح، ولا يمكن أن يقول بما يخالف القرآن الكريم، ولا بد أنه قد قال شيئا لم يستوعبه المولوي البطالوي جيدا، فثار وانبرى لمعارضته، وإلا فكيف يمكن أن يقول القرآن الكريم بحياة المسيح ويدعي إنسان ورع مثل الميرزا بوفاة المسيح مخالفًا القرآن الكريم؟ فجاء من فورة حماسه إلى قاديان، وقال للمسيح الموعود عليه السلام: سمعتُ أنك تقول بوفاة المسيح عليه السلام؟ قال:

نعم، هذا ما أدعي. قال: لو ثبتت حياة المسيح من القرآن الكريم، فهل تتخلى عن عقيدتك؟ قال عليه السلام: لم لا؟ إذا ثبتت حياة المسيح من القرآن الكريم فسأؤمن بحياته. فقال المولوي نظام الدين في فرحة عارمة: لقد كنت أقول سلفًا إن الميرزا إنسان صالح ولا يمكن أن يتفوه بشيء خلاف القرآن الكريم متعمدا، ولا بد أنه قد حصل منه سوء فهم، ولو رفع سوء فهمه فإقناعه بحياة المسيح لن يكون صعبًا. ثم قال: حسنًا، لو جئتُك بمائة آية على حياة المسيح فهل ستقتنع؟ قال عليه السلام: دعك من مائة آية، فتكفيني آية واحدة من القرآن الكريم. قال: حسنًا، إذا لم آتك بمائة فسوف آتيك بخمسين آية. قال عليه السلام: لقد قلتُ لك إن آية واحدة تكفيني ولا حاجة لمائة آية أو خمسين. قال: حسنا، سآتيك بعشر آيات على الأقل تدل على حياة المسيح. فعاد أدراجه إلى لاهور، وقابل الشيخ البطالوي. وكان الجدال بين حضرة الخليفة الأول والبطالوي على شروط المناظرة قد طال جدا، فتضايق حضرته من ذلك ورضي بالاستدلال بأحاديث البخاري علاوة على القرآن الكريم. وكان البطالوي فرحًا بهذا الانتصار جدا، وكان يقول بكل تفاخر جالسًا في المسجد: لقد صرعتُ المولوي نور الدين هكذا، وألقيته هكذا، حتى لم يجد مناصًا من قبول تقديم الأحاديث إلى جانب القرآن الكريم في المناظرة. وفيما هو يتفاخر فرحًا هكذا وصل إليه ميان نظام الدين فجأةً، وقال له: دعْ عنك هذا النقاش يا شيخ، فإني قد ذهبتُ إلى قاديان

وأقنعت السيد الميرزا أني لو جئته بعشر آيات من القرآن الكريم علـــى حياة المسيح فسوف يتخلى عن عقيدته، فأسرِعْ وأخرجْ لي هذه الآيات العشر من القرآن، لأحسم القضية في لمح البصر، وأجعل السيد المـــيرزا يعترف بلسانه بأن عيسى عليه السلام حي في السماء. وبسماع هذا القـــول سُقط في يد المولوي البطالوي الذي كان يقول للناس بمنتـــهى الزهـــو والتفاخر لقد صرعتُ نور الدين هكذا وهزمته هكذا، واستشاط غضبًا وقال: أيُّ غبي قال لك أن تذهب إلى الميرزا؟ لقد أقنعتُ نور الدين بعد جدال استمر شهرين تقريبًا بضرورة ذكر الأحاديث في المناظرة، وأنت أرجعتَ النقاش إلى القرآن؟ وكان ميان نظام الدين رجلاً صالحا، فلما سمع قول البطالوي وقف بعض الوقت صامتًا من شدة الحيرة والدهشة، ثم خاطبه وقال: حضرة الشيخ، إذا لم يكن في القرآن الكريم دليل على حياة المسيح، فمن كان مع القرآن فإني معه. ثم خرج من عند البطالوي وجاء إلى قاديان من فوره، وبايع المسيحَ الموعود عليه السلام.

فمع أن الله تعالى كان قد كشف على المسيح الموعود حقيقة وفـــاة المسيح الناصري عليهما السلام، ومع أنه كان قد أثبت هـــذه القـــضية بالبراهين القاطعة من القرآن الكريم والحديث الشريف، إلا أنه قال لميان نظام الدين: لو جئتني بآية قرآنية واحدة خلاف وفاة المسيح فـــسوف أتخلى عن عقيدتي. فهل يسع أحدا أن يقول أن هذا يعـــني أن المـــسيح الموعود عليه السلام لم يكن يوقن بوفاة المسيح يقينا كاملا، وكان يظن أنه ربما

توجد آية خلافها في القرآن الكريم؟ ومن قال هذا فهو أكبر الجاهلين، لأن حضرته عليه السلام لما قال للرجل: إذا جئتني بآية قرآنية واحدة على حياة المسيح فإنني سأتخلى عن عقيدتي، فإنما قالها تعظيمًا للقرآن الكريم، وكان يقصد أن عقيدته لو كانت خلاف القرآن الكريم مثقال ذرة، فإنه مستعد لتركها، ولم يكن مراده أن عقيدته مخالفة للقرآن في الواقع. كذلك فإن هذه المقولة لأبي بكر رضي الله عنه لا تعني إمكانية صدور الكفر البواح منه، وإنما تعني أن الحقيقة حَرِيّة بالاتباع في كل حال، ولو خالفتُها أنا فلا تطيعوني، وليس المراد أنه كان من الممكن أن يخالف حكم الله ورسوله في أمر من الأمور. كما أن مقولته هذه لا يمكن أن تفسَّر على النحو الذي يريده المعترضون، مع وجود قول الله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، وآية الاستخلاف.

آية الاستخلاف وخلافتي

بعد الحديث عن الخلافة الإسلامية الأحمدية على ضوء آية الاستخلاف، أتحدث الآن عن خلافتي أنا بإيجاز.

أولاً: لقد بين الله تعالى في قوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[100] أن نظام الخلافة سيبقى قائما في الأمة ما دامت أكثريتها مؤمنة وتعمل الصالحات، لذا فعلينا أن نرى أولاً ما إذا كانت جماعتنا لا تزال

[100] النور ٥٦

مؤمنة وتعمل الصالحات.. أعني هل لها سمعة طيبة، وهل أغلبية أبنائها يعملون الصالحات؟ الجواب على ذلك لا يحتاج إلى أي دليل، فالجميع يعلم أن جماعتنا تتمتع بسمعة طيبة وأكثريتها تعمل الصالحات. وما دامت هذه حالة إيمانهم وأعمالها الصالحة فيجب أن يتحقق وعد الخلافة لهم، لأن الله تعالى قد وعد بذلك المؤمنين فقال ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ووعد الله لا بد أن يتحقق.

ثانيا: قال الله تعالى هنا ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.. أي أنه سيجعل الخلفاء في الأمة كما استخلف من قبل، بمعنى كما أن الخلفاء السابقين صاروا خلفاء بقوة الله وقدرته، ولم يقدر أحد على محاربة خلافتهم، كذلك سيحدث الآن.

وهذه العلامة أيضا متوفرة في خلافتي. في عهد الخليفة الأول رضي الله عنه كان هناك خوف الأعداء من الخارج فقط، أما في خلافتي فأُضيف خوف الأعداء من الداخل أيضا. ثم إن حضرة الخليفة الأول رضي الله عنه كان يلقب في حياة المسيح الموعود عليه السلام بحكيم الأمة وغيره من الألقاب، أما أنا فقد تمّت الدعاية ضدي في الجماعة لسنوات بأنه لو وُضع زمام أمر الجماعة في يد صبيّ فسوف تدمَّر. ثم لم أكن عالـمًا بالعربية ولا بالإنجليزية، ولم يكن عندي أيّة مهارات ولا كفاءات تجعلني محط أنظار الناس، ولم يكن لي في الجماعة منصب ولا نفوذ، وإنما كان المولوي محمد علي يتمتع بكل الصلاحيات، وكان يفعل ما يشاء. وفي هذه

الظروف، قام ضد هذا الذي كان يُعَدّ صبيًا غريــرًا بـــسبب عمـــره، وجاهلاً لقلة علمه، ولم يكن يتمتع بأي صلاحيات في مؤسسة "صـــدر أنجمن"، ولم يملك أموالاً، وكان يقال أنه سيدمر الجماعة، أناسٌ حائزون على شهادات عليا، ويملكون أموال الجماعة، ويتمتعون بعزة ونفوذ منذ سنوات، ويدَّعون أنهم لن يدَعوا هذا الصبي ليصير خليفةً، فخيّبـــهم الله تعالى في مسعاهم، واختاره هو لمنصب الخلافة. وعنـــدما رأى هـــؤلاء خيبة آمالهم انشقّوا وذهبوا من هنا قائلين: لقد ارتكبت الجماعة حماقـــة كبيرة بانتخاب صبيّ غرير أحمق خليفةً، وسوف يذوقون وبال أمـــرهم بعد أيام، وسوف تدمَّر الجماعة، وستنقطع مصادر تمويلـــها، وتـــتلطخ عزتها وسمعتها، وسيضيع بسبب هذا الصبي الغرير ما حققته الجماعة من إقبال وعروج. ولكن ماذا حصل؟ عندما أجلس الله تعالى ذلك الـــصبيّ على منصب الخلافة، فإن أسد الله هذا بدأ يصول صولة الأســـد علـــى الخراف، فأخذ خروفًا من هنا، وخروفا من هناك، وصاد مـــاعزا مـــن الشرق، وماعزا من الغرب، وكبشا من الشمال وكبشا من الجنـــوب، ليجمعها ويقدمها قربانا على مذبح مسيح الله. حتى إن الجالسين علـــى منصة هذه الجلسة اليوم هم أكثر عددًا ممن حضروا في آخـــر جلـــسة سنوية في حياة المسيح الموعود عليه السلام. فمن كانت له عينان فلينظر، ومن كانت له أذنان فليسمع، ألم يبطل الله بفضله جميع المطاعن التي كانـــت تثار ضدي؟ ألم يجعل الله تعالى للجماعة خليفةً ذلك الشاب الذي كان

يبلغ ٢٥ سنة والذي كان يقال أنه سيدمر الجماعة، ثم كتب للجماعة على يده ازدهارا مدهشا، ليكشف أنه ليس خليفةً مِن صنع البشر، بل إن الله هو الذي جعله خليفةً ولا يقدر على مقاومته أحد؟

ثالثا: والعلامة التي ذكرها الله تعالى في آية الاستخلاف هي ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾.. أي أن العلوم الدينية التي يكشفها الله لهؤلاء الخلفاء سوف يرسيها الله تعالى في الدنيا ولن يقدر أحد على محوها. لا شك أن الصحابة يتمتعون بمكانة خاصة لقربهم من رسول الله ﷺ، ولا شك أن جمْع الصحابة للأحاديث في حد ذاته إنجاز عظيم يرفع من مكانتهم بما يفوق تصوّر العامة. ثم لا شك أيضا أن حضرة الخليفة الأول رضي الله عنه كان يتمتع بمهارة كاملة في علوم القرآن الكريم، وكان عاشقا له، وإن مننه على جماعتنا عظيمة. ولكن لا أحد من هؤلاء وُصِمَ بتهمة الجهل، ولذلك فقد تجلَّت صفة الله العليم بجلال وعظمة على يدي بما لا نظير له في زمرة الخلفاء. كنتُ ذلك الشخص الذي كان يسمى ابن البارحة، وكنت ذلك الذي كان يسمى بليدا وغبيا، ولكن الله قد كشف عليّ بعد أن توليتُ منصب الخلافة علوما قرآنية بكثرة بحيث إنّ الأمة الإسلامية مضطرة إلى يوم القيامة إلى قراءة كتبي والاستفادة منها. هل من مسألة إسلامية لم يكشفها الله تعالى عليّ بكل تفاصيلها؟ لم توجد في الأمة الإسلامية منذ ١٣ قرنًا مواضيعُ مفصَّلة حول مسألة النبوة، ومسألة الكفر، ومسألة الخلافة ومسألة القدَر

والمفاهيم القرآنية الهامة الضرورية، ومسائل الاقتصاد الإسلامي والسياسة الإسلامية والقضايا الإسلامية الاجتماعية وغيرها، ولكن الله وفقني للقيام بهذه الخدمة، وبواسطتي كُشفت حول هذه المواضيع معارف القرآن الكريم التي ينقلها اليوم الأحباب والأعداء كلهم. مهما شتمني أحد ومهما ذكرني بسوء، إلا أنه لا بد لمن أراد نشر تعليم الإسلام في العالم أن يقتبس مني ويستعين بي، ولن يقدر على أن يخرج عنقه عن نطاق مِنّتي سواءً أكان من "البيغاميين" أو "المصريين"[101]، كلما أراد أولادهم خدمة الدين سيضطرون لمطالعة كتبي والاستفادة منها. بل أستطيع أن أقول، ولا فخر، إنه قد جُمعت بيدي ولا تزال تُجمع بهذا الصدد موادّ لم تُجمع بيد الخلفاء. فمهما شتمني هؤلاء ومهما ذكروني بسوء إلا أنهم لن ينالوا علوم القرآن إلا بواسطتي أنا، وسيضطر العالم لأن يقول لهم: أيها الأغبياء، كل ما هو في جُعبتكم فقد أخذتموه منه، فبأي وجه تعارضونه؟

رابعا: والعلامة الرابعة المذكورة في هذه الآية هي ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.. أي أن الله تعالى سيبدّل خوف الخلفاء أمنًا. وقد حقق

---

[101] المراد من المصريين هنا من له صلة بالمولوي شيخ عبد الرحمن المصري. وكان قد أسلم من الهندوس. أُرسلَ في عام ١٩١٣م إلى مصر لدراسة اللغة العربية، فاشتهر بلقب "الشيخ المصري". انضم إلى فئة الأحمديين اللاهوريين في الثلاثينيات، ثم تركهم أيضا. علمًا أن "شيخ" جزء من اسمه، لأن من يُسلِم من الهندوس كانوا يضيفون إلى اسمه لقب "شيخ". (المترجم)

الله هذه العلامة في عهدي بكل جلاء. عندما انتخب الخليفة الأول كان هناك خوف أن الأعداء من الخارج سيسخرون ويسعون للإضرار بشمل الجماعة، أما في بداية خلافتي فلم يكن هناك خوف من أعداء الخارج فحسب، بل حصلت الفتنة داخل الجماعة أيضا، وكان هناك خطر أن يتأثر أبناؤها منها، فبدَّل الله على يدي هذا الخوف أمنًا رغم الظروف العصيبة، وقضى على خطر انحراف الجماعة عن العقائد الصحيحة قضاء تامًّا. فترون اليوم أنّ الشيخ المصري أيضا يقول بنبوة المسيح الموعود عليه السلام رغم معارضته لي. ولو كان منصفا وصادقا فلا بد له من الاعتراف أن الجماعة قد ثبتت على هذا الموقف بسببي أنا، وأنا الذي قمت بحلّ هذه القضية. فهل أراد الله تعالى حلّ هذه القضية على يد شخص يستحق العزل كما يزعم الشيخ المصري اليوم؟

كذلك جاءت على الجماعة أهوال كبيرة أخرى، ولكن الله تعالى أيدني عند كل خطر، وبدّل هذا الخوف أمنًا بسببي. عندما كان الأحراريون[١٠٢] في قوة ظن الناس أن هذه الجماعة سوف تدمر الآن،

---

[102] الأحراريون أو مجلس الأحرار هم طائفة من المشايخ وأتباعهم المتعصبين المتطرفين. انضموا إلى حزب الكونغرس الهندوسي المعارض لتأسيس باكستان كدولة مستقلة للمسلمين، وعندما تأسست باكستان فروا إليها وحاولوا بكل وقاحةٍ الوصولَ إلى الحكم بطرق شرعية وغير شرعية. كما إنهم أعداء ألداء للجماعة الإسلامية الأحمدية، وهاجموا في ١٩٣٤م مركز الأحمدية قاديان بمساندة حاكم البنجاب الإنجليزي. (المترجم)

ولكني قلت عندها إني أرى البساط يُسحب من تحت أقدام الأحرارين. وبعد ذلك بأيام سُحب البساط من تحت أقدامهم وصاروا أذلة مهانين في العالم. لقد كتب أحد السيخ[١٠٣] مقالاً عني مؤخرًا وقال للناس: مهما اعتبرتموه كاذبًا، ولكن هناك أمر لا يسع أحدا إنكاره، ألا وهو أنّ الأحرارين حين كانوا في قوة وكان يُظن أهم سيقضون على الجماعة الأحمدية أعلن إمامها أنني أرى البساط يُسحب من تحت أقدام الأحرارين. وقد تحقق قوله هذا بشأن عظيم. في الماضي كلما قاد الأحراريون حركة نجحوا فيها، أما اليوم فكل حركة يقومون بها تبوء بالفشل.

خذوا أيضا فتنة الارتداد في منطقة "ملكانه"[١٠٤]، ثم الثورة التي قامت عند طبع كتاب "رنجيلا رسول" وغيرها من الفتن السياسية التي أطلت برأسها خلال هذه الفترة، فسوف تجدون أن الله تعالى نصرني في كل

---

103 اسمه سردار أرجن سنغ. وهو أحد السيخ، واسم كتابه "خليفة قاديان". الناشر

104 "شدهي" تعني بالهندية تطهير النجس. و"حركة شدهي" حركة متطرفة قادها الهندوس قبل عام ١٩٢٣م وبعده في الهند ولا سيما في منطقة تسمى "ملكانه" وتقع قرب مدينة "آغره"، وذلك لاسترجاع جميع المسلمين القاطنين هناك إلى الهندوسية، متذرعين بأن هؤلاء كانوا هندوسًا سابقًا فلا بد من تطهيرهم وإعادتهم إلى دينهم الأصلي ثانية. وبالفعل تمكنوا من تضليل ستة ملايين منهم. وعندما استفحلت هذه الفتنة في عام ١٩٢٣م تصدى لها مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه، وجمع حوله المخلصين من جماعته، واسترجع آلاف المسلمين الذين كانوا قد ارتدوا وصاروا هندوسا. (المترجم)

مصيبة، ورافقني عند كل محنة، وبدَّل من أجلي كل خوف أمنـــا. مـــا كنتُ أظنّ أن الله تعالى سوف ينجز على يدي هذه الإنجازات العظيمة، إلا أنني لا أستطيع أن أخفي الحقيقة بأن الله تعالى قد منَّ عليَّ مِنَنًا تفوق تصوري. عندما بدأت خلافتي ما كنت أظن أنني سأقوم بـــأي خدمـــة للدين. كانت الظروف ضدي، و لم أكن أتمتع بأي كفاءات، و لم أكـــن من العلماء الفضلاء، و لم يكن عندي أموال ولا أنصار. والله شاهد على أنه حين وضع أمانة الخلافة في يدي ظننت أن ثغرة قد حصلت في سدِّ نهر العرفان الإلهي، ويخاف على مياهه الضياع بجريانها هنا وهناك، وقد أقامني الله تعالى لكي ألقي بجثماني الميت مكان هذه الثغـــرة لكـــي لا تفيض هذه المياه وتضيع. فألقيتُ بجثتي فيها حمايةً للدين، وظننـــتُ أنّ واجبي قد انتهى، ولكن لم تمضِ على خلافتي ثلاثة أيام حتى بدأت آيات الله تعالى تنزل كالمطر الغزير.

آية إلهية عظيمة

كان هناك شاب من "عليغره"، وكان قد شرع في جمـــع نبـــوءات المسيح الموعود عليه السلام عني حتى في عهد الخليفة الأول رضي الله عنه، وكان يدّعي أن هذه النبوءات تبلغ من القوة بحيث لا يسع أحدًا إنكارها. جاء هـــذا الشاب إلى قاديان قبل وفاة حضرة الخليفة الأول رضي الله عنه بحوالي ١٣ يوما، ولما رأى أنّ وضعه رضي الله عنه ليس على ما يرام قال لي: إنني مستعد لبيعتـــك. فقلتُ: كيف تقول هذا القول الذي فيه إثم؟ إن الحديث عن الخليفـــة

القادم في حياة الخليفة حرام شرعا تماما. فلا تكلّمني بذلك. فعـــاد إلى عليغره. وبعد حوالي ١٣ يوما توفي حضرة الخليفة الأول ﵁. وكانت لهذا الشاب علاقات وثيقة مع الخليفة الأول، فعندما حـــصلت فتنـــة الخلاف في الجماعة عند وفاته، كتب لهذا الشاب بعض البيغاميين ليسعى للقضاء على هذه الفتنة. فبعث لي من عليغرة ببرقية قال فيها: عليك أن تصالح هؤلاء القوم فورا، وإلا لن تكون عاقبتك محمودة. فكتبتُ له في الردّ: وصلتني رسالتك. تنصحني بعقد الصلح مع هؤلاء، ولكن ربي قد أنزل عليَّ الوحي التالي: "مَن ذا الذي يقدر أن يحول دون ما يريـــد الله من أمور"؟ فلا أستطيع أن أصالحهم. أما أنت الذي تنصحني، فـــاعلم أنك تحت حجة قوية من الله تعالى، وقد سمعتَ عني من لسان حـــضرة الخليفة الأول مرارا بأن الله تعالى سوف يبوّئني مقام الخلافة بعـــده، ثم إنك بنفسك كنت تجهّز كتابًا عني وذكرتَ فيه تلك الأنباء التي تنبأ بها المسيح الموعود ﵇ عني. فقد قامت الحجة عليك، ولو أنكرتني فسوف يكون مصيرك الإلحاد حتمًا.

هذا ما كتبتُ له في رسالتي، ولم يمضِ على ذلك شهر حتى ألحـــد، وهو لا يزال ملحدا، وينكر وجود الله علنًا، مع أنه كان مستعدا لبيعتي قبل وفاة حضرة الخليفة الأول بـــ ١٣ يوما، ثم إنه كان يُعِدُّ كتابا عني، وكان ينوي أن يجمع فيه كل نبوءات المسيح الموعود ﵇ عني. ولكنه لما أنكر حقيقةً بينة، كتبتُ له إن إنكارك لخلافتي سيوصلك إلى الإلحاد،

فحصل ما قلت له بالضبط، فصار ملحدا في شهر واحد. ثم بعد فترة جاءني وبدأ يناقشني في نبوءات المسيح الموعود عليه السلام، فقلتُ له: دَعْ عنك نبوءاته عليه السلام، وأخبرْني: هل تحققت نبوءتي فيك أم لا؟ فبُهت.

تحقّقُ وحي "ليمزّقنّهم" بشأن غير المبايعين

وثاني أكبر ما كان عند غير المبايعين هو كثرة الأنصار، فكانوا مغرورين بأنّ ٩٥% من الجماعة معهم. فأوحى الله تعالى إليّ في تلك الأيام وقال: "لَيُمَزِّقَنَّهم". ومن غرائب قدرة الله تعالى أن خواجه كمال الدين كان على صلات وطيدة مع المولوي محمد علي بحيث لو سمى خواجه المحترم الليل نهارا، لقال هذا إنه نهار، ولو سمى النهار ليلا لقال إنه ليل، ولكنهما تخاصما بشدّة قبل وفاة خواجه كمال الدين بسنتين، وتبادلا تهمًا تجاوزت الحدود. ثم حصل خصام علني بين الدكتور سيد محمد حسين وغيره من أعضاء مؤسستهم في مركزهم "المباني الأحمدية" بلاهور، حتى قال بعضهم سوف نطرد النساء من هذا المكان. وبالأمس أيضا زارني أحد منهم وقال إن فلانا قد سلبني عقاري، فعليك أن تشفع لي.

باختصار، قد تحقق كما قيل في الإلهام وتمزقت قوتهم.

وعلى النقيض فإنّ الشاب البالغ الخامسة والعشرين من عمره، الذي سُمّي صبيًا على سبيل الازدراء، فقد وفقه الله تعالى وأعطاه من القوة أنه

كلما قامت فتنة قضى عليها بشدّة كما يداس الذباب والبعـــوض، ولا أحد يقدر على الصمود أمامه طويلا.

الثقة بالله تعالى

والعلامة الخامسة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية للخلفاء الصادقين هي ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾، وبحسب هذه العلامة لم أخَفْ أحدًا قطّ بفضل الله تعالى. إنني شديد الحيطة والحذر، ولا أراه عيبًا بل هي ميزة عندي، ولكني إذا أيقنتُ بالأمر فلا أبالي بالصعاب أبدا، ومن أجل ذلك قد حفظني الله تعالى من المداهنة دائمـــا، رغـــم الأهـــوال الشديدة، و لم أَمِلْ إلى الصلح الباطل قط.

رؤيا عن فتنة البنّائين

كنت رأيت ذات مرة في الرؤيا أنني آتٍ ومعي ميـــان مـــير محمـــد إسحاق، وفي طريقنا بحر كبير، وهناك سفينة، فركبتها أنا وميان محمـــد إسحاق وتحركنا. ولما وصلت السفينة إلى المكان الذي كان يوجد هناك بيت البنّائين دخلت السفينة في دوامة، وأخذت تدور فيها. وفيما نحـــن في ذلك ظهر رأس من البحر وقال: هناك قبر رجل صالح بالقرب مـــن هنا، فاكتبوا ورقةً باسمه، وألقوها في الماء، فتخرج السفينة من الدوامـــة بسلام، وتصلون إلى بر الأمان. قلتُ: هذا محال، لأنه عمـــل وثـــنيّ. ثم اشتدّ دوران السفينة وخفنا غرقها، فقال لي ميان محمد إســـحاق: أي

حرج في ذلك؟ الأفضل أن نكتب الورقة ونلقيها في الماء الآن، ثم نتوب فيما بعد. قلتُ: لا، هذا لن يكون. فكتب الورقة خفية عني ولفّها وأراد إلقاءها في البحر، فوقع بصري عليها صدفة، فقلتُ: سيد مير، لن أسمح بهذا العمل الوثني، ولو غرقنا. فانتزعتُ منه الورقة ومزقتها، ثم رأيتُ السفينة خرجت بنفسها من الدوامة بسلام.

بعد هذه الرؤيا بسنوات كثيرة، وقعت فتنةُ البنّائين[105] في نفس المكان الذي رأيتُ في الرؤيا أن السفينة وقعت في دوامة هناك، فرمونا بتهم عديدة، ثم كما ورد في الرؤيا تماما جاءني مير محمد إسحاق قلقًا ذات يوم، وقال: ما الحرج في أن نعطي هؤلاء بعض المال لإسكاتهم. قلتُ: سيد مير، إذا كان ما يقول هؤلاء حقًّا فلا قيمة لإسكاتهم، وإذا كانت تهمهم باطلة فإن الله تعالى سيدمّرهم بنفسه. فما الحاجة لأن نعطيهم المال؟

ففيما يتعلق بخلافتي وخلافة الخلفاء السابقين فهناك فرق بيّن بيني وبينهم. فإن النقاش عن خلافتهم نقاش علمي بحت، أما خلافتي فتمتاز بآيات إعجازية. فعند الحديث عن خلافتي ليس الأمر ما إذا كانت الآية القرآنية الفلانية تنطبق عليها أم لا، بل إنّ آيات الله المتجددة ومعجزاته الحية التي تظهر لي لهي خيرُ دليل على أن الله هو الذي جعلني الخليفةَ،

105 هذه إشارة إلى فتنة أثارها عائلة من البنائين الأحمديين القاطنين في قاديان، حيث رموا الخليفة الثاني رضي الله عنه بشتى التهم الشنيعة الباطلة. (المترجم)

وليس هناك مَن يقدر على مواجهتي. إذا كان بينكم ولدٌ ولدتْه أُمُّه ويريد محاربتي فليخرج الآن. سوف يذلّه الله تعالى ويخزيه، بل ليس هو وحده، بل لو أنّ قوى العالم كلها أجمعتْ على القضاء على خلافتي فإن الله تعالى سوف يمزّقها كما تُسحق البعوضة. إن كل مَن يهبّ لمحاربتي سوف يُسقط، وكل من يتكلم سوف يُسكت، وكل من أراد ذلتي سوف يذلّ ويخزى.

فيا جماعة المؤمنين الذين يعملون الصالحات، أقول لكم والحقّ أقول: إن الخلافة نعمة عظيمة من الله تعالى، فاقدروها حق قدرها. سوف يُنزلها الله عليكم طالما تكون أكثريتكم مؤمنين يعملون الصالحات، ولكن إذا حُرمت أكثريتكم الإيمانَ والعملَ الصالح فيمكن أن يستمر في إنزال هذه النعمة إن شاء، أو يوقفها إن شاء. فليس هناك سؤال عن فساد الخليفة، وإنما تُنزع منكم الخلافة حين تفسدون أنتم. فلا تكفروا بنعمة الله هذه، ولا تزدروا إلهامات الله، بل كما قال المسيح الموعود عليه السلام: عليكم أن تعكفوا على الدعاء دائما لكي تظهر فيكم القدرة الثانية مرة بعد أخرى. لا تكونوا كأولئك الخائبين الخاسرين الجاهلين الذين رفضوا الخلافة، بل انهمِكوا في الدعاء كل حين أن يقيم الله تعالى فيكم مظاهر القدرة الثانية دائما لكي يقوم دينه على أسس قوية، وييأس الشيطان للأبد من الإخلال فيه.

ادعوا دائما لنزول القدرة الثانية

اعلموا أن شرط الدعاء الذي اشترطه المسيح الموعود عليه السلام من أجل نزول القدرة الثانية ليس خاصا بزمن معين، بل هو شرط دائم. كان المراد من قوله هذا في حياته أنْ ادعوا في حياتي أن يُريكم الله تعالى عهد الخليفة الأول، وكان المراد من هذا الدعاء في عهد الخليفة الأول أن يُرينا الله تعالى بعده عهد الخليفة الثاني، والمراد من هذا الدعاء في عهد الخليفة الثاني أن تروا عهد الخليفة الثالث، ويكون المراد من هذا الدعاء في عهد الخليفة الثالث أن يأتي بعده زمن الخليفة الرابع، كي لا يغلق باب هذه النعمة عليكم من سوء أعمالكم. لذا فاعكفوا على الدعاء دوما وتذكّروا جيدا أنه ما دامت الخلافة فيكم فلن تغلبكم أمة في العالم، وتكونون في كل مجال من المظفرين المنصورين؛ لأن هذا وعد الله الذي قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾. ولكن تذكروا أيضا أنه تعالى قد أتبعَه بقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

كان الله معكم، وكنتم جماعته المختارة إلى أبد الآبدين.

الكلمات الاختتامية

عندما أنهى الخليفة الثاني رضي الله عنه هذا الخطاب في ٢٩ ديسمبر/ كانون الأول في الساعة الثانية ظهرا، سمح لمن حضر هذه الجلسة بالعودة إلى

بيوهم قائلا: الآن تنتهي هذه الجلسة، وسوف يرجع الإخوة إلى بيوهم. عليهم أن يسعوا دومًا إلى ازدهار الأحمدية. اعلموا أن الرقيّ يتمّ من خلال الأولاد أيضا، ولكنه ليس كالرقيّ الذي يتمّ بالتبليغ. إن ازدهار الجماعة الذي يتمّ من خلال التبليغ لهو أكثرُ بركة من الذي يتمّ بزيادة الأولاد. وقد قال الرسول ﷺ: "فَوَاللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ."[106] فعليكم بالدعوة والعكوف على نشر الأحمدية، لكي يأتي في حياتكم زمنُ غلبة الإسلام وشوكة الأحمدية. عندما يصبح الناس جميعا أحمديين، فيكون الرعايا أيضا أحمديين والملوك أيضا أحمديين. رأيت رؤيا في طفولتي حين كان عمري حوالي ١٣ عاما بأن هناك مباراة "كَبَدِّي"،[107] كان الأحمديون في طرف والمولوي محمد حسين بطالوي وأصحابه في طرف آخر. كنا نبطش بكل لاعب يأتي إلينا من طرف البطالوي مردِّدًا "كبدهي كبدهي"، ومن قواعد هذه اللعبة أنّ اللاعب الذي يُبطش به يصبح من الطرف الآخر، وبحسب هذه القاعدة كل من نبطش به من أصحاب البطالوي يصبح في طرفنا. واستمرت اللعبة حتى صار جميع أصحاب البطالوي إلى طرفنا، وبقي هو وحده. فأخذ يتحرك إلينا ببطء متوجهًا إلى جدار قريب خجلاً، وعندما

---

106 البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة، رقم الحديث ٢٧٨٣

107 لعبة هندية شبيهة بالمصارعة. (المترجم)

وصل إلى خط منتصف الملعب قال: أنا أيضا أريد أن آتي إلـــيكم، وفي الأخير لحق بنا.

والمراد من الشيخ محمد حسين البطالوي أئمةُ الكفر. لقد أخبرني الله تعالى بهذه الرؤيا أنّه عند دخول عامة الناس في الأحمدية سينضم إلينـــا أئمة الكفر أيضا، وعندما يصبح الرعايا أحمديين يصبح الملـــوك أيـــضا أحمديين. فعليكم التبليغ ونشر الأحمدية والعكوف على الدعاء. أَنـــشِئوا في قلوبكم حرقة والتياعا، وتحلَّوا بالتواضـــع والانكـــسار والـــصدق والأمانة، وحاولوا بكل السبل أن تكونوا من عباد الله المخلـــصين. إذا وقعتم في خطأ فلا تصرّوا عليه، لأن المصرّ على خطئه يفقد نور باطنه، فلا تبقى في صلواته متعة ولا في أدعيته بركة. إن الندامة والبكاء عند الله بعد الخطأ سرٌّ عظيم للرقيّ. فسواء أخطأتم أو لم تخطئوا، فعليكم الإنابة إلى الله طالبين منه العفو، فهذا سيجعل الإيمان أبديا، والتوبة تحافظ عليه. لقد قال النبي ﷺ: "إِذَا زَنَى الْعَبْدُ خَرَجَ مِنْهُ الإِيمَانُ فَكَانَ فَـــوْقَ رَأْسِـــهِ كَالظُّلَّةِ، فَإِذَا خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الْعَمَلِ عَادَ إِلَيْهِ الإِيمَانُ."[١٠٨] لقد بيّن الـــنبي ﷺ في هذا الحديث أن إيمان التائب لا يتركه كليةً، وإنما يخرج منه جرّاء خطئه، ولكنه إذا تاب عاد إليه.

فاستمرِّوا في الدعوات من أجل الدُعاة ومن أجل الأحمديين جميعا. لا شك أن الله تعالى قد وعدني وعودا، ولكن قوتي بكم، فادعوا لأنفسكم

---

[108] الترمذي، أبواب الإيمان، باب لا يزني الزاني وهو مؤمن

ولي أيضا. لقد اجتمع الناس بهذه الكثرة في هذه الجلسة لكونها جلسة يوبيل خلافتي، فاسعوا لكي تزداد الجماعة عددًا بحيث يحضر مثل هذا العدد في الجلسة التالية أيضا. ثم ادعوا للأغيار أيضا، ولا تكنّوا في قلوبكم غضبا عليهم، بل رحمةً لهم، فالله يرحم من يرحم عدوه. فأَنشِئوا في قلوبكم مشاعر النصح والمواساة تجاه الجميع. جاءني مؤخرًا أحد الأفغان من "وزيرستان" وقال: ادعُ الله تعالى أن يُخرج الإنجليز من هنا. قلت: إننا لا ندعو عليهم، بل ندعو الله تعالى أن يكونوا لنا. فلا تدعوا على أحد، ولا تكنّوا في قلوبكم حقدًا على أحد، بل ادعوا الله تعالى له، واسعوا ليزداد الإسلام عظمة وشوكة، وتنتشر الأحمدية في العالم أجمع.

بهذه المناسبة أدعو الله تعالى لأولئك الذين بعثوا ببرقيات طالبين الدعاء. لا أستطيع أن أقرأ أسماءهم لضيق الوقت، فعليكم أن تدعوا لهم وللآخرين وللإسلام وللأحمدية.[١٠٩]



[109] نُشر هذا الخطاب كله في جريدة الفضل، ٤ يناير/كانون الثاني ١٩٤٠

Al-Khilāfatur-Rāshidah

(The Rightly Guided Caliphate)

This book contains a speech which was made by Ḥaḍrat Mirza Bashir-ud-Din Mahmud Ahmad Khalīfatul-Masīḥ II (may Allah be pleased with him) in Jalsa Salanah on December 28, 29, 1939 when the Jama'at was celebrating its 25th Anniversary of the Khilāfat of Ḥaḍrat Muṣleḥ-e-Mau'ūd.

Khilāfat-e-Rāshidah, is an exquisite exposition of the fundamental issue of Khilāfat in Islam against the backdrop of Islamic history and doctrines, and removes many misunderstandings and misconceptions.


ISBN 184880454-7
9 781848 804548